مسرحيات يحيى حقي المترجمة



كنوك

تأليف : جول رومين

الطائر الأزرق

تأليف : موريس ميترلينك

دار المعارف

مسرحيات يحيى حقي
المترجمة

كنوك
أو انتصار الطب

تأليف: جول رومين

الطائر الأزرق
أحدوثة من عالم السحر

تأليف: موريس ميترلينك

١٩٤٩ - ١٨٦٢

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

كنوك

أو انتصار الطب

تأليف: جول رومين

«مثلت هذه المسرحية لأول مرة في باريس على مسرح كوميدى سانزليزيه يوم ١٥ من ديسمبر ١٩٢٣ تحت إدارة جاك هبرنو، وتولى لويس جوفيه الإخراج والديكور. وقام بأداء أدوار النساء: كوتان لامبير - إرمابيرو - إيزا رينار - ماج بيروبيه - ى تيسيران. وقام بأدوار الرجال: لويس جوفيه - أ. هيرو - انفرييف - جولتيه، بن دانو - ساليس - مامى - سانت أيل...»

مقدمة

مسرحية كنوك.. والهزلية الجيدة

بقلم: الدكتور محمد مندور

مسرحية «كنوك أو انتصار الطب»، هي بإجماع النقاد وأساتذة الأدب خير ما كتب مؤلفها الكاتب الفرنسي المعاصر «جيل رومان»، بل هي المسرحيه التي يقوم عليها الجانب الأكبر من مجد مؤلفها، فيها عرف وذاع صيته في العالم كله، وذلك بالرغم من أنه شاعر وقصاص وفيلسوف لا كاتب مسرحيات فحسب، وكل ذلك بالرغم من أن كثيراً من أساتذة ونقاد الأدب المسرحي وبخاصة في العالم الأنجلوسكسوني يسمون هذه المسرحية فارس Farce أي هزلية، فهي تسميه - إذا صح إطلاقها على هذه المسرحيه الجيدة - جديره بأن تجعلنا نغير حكمنا العام على هذا النوع من المسرحيات الذي ننظر إليه دائماً نظرة تضعه في أسفل السلم بالنسبه للأنواع الأخرى من المسرحيات، فالهزلية، بمعناها الدارج، مسرحية لا تستهدف إلا الإضحاك، وقلما يؤدي فيها

الضحك وظيفة جاده ويكفيها أن تسرى عن مساهديها، وذلك فى حين تعمر مسرحية كنوك بالحقائق النفسيه والاجتماعيه العميقه مغلفه فى روح السخريه المرة والتهكم اللاذع اللذين يمتاز بهما مسرح جيل رومان، وإن يكن وقائع المسرحية يبدو مبالغاً فيها إلى حد يكاد يبعدها عن الواقع، وبالتالى عن المعقولية وإمكانيه الحدوث وهما شرطان يتوفران عادة لما نسميه الملهاة النقديه أو الكوميديا الاجتماعية، وهذه قضية سننظر فيها نظريا وتطبيقيًّا بعد أن نقدم أولا المؤلف جيل رومان إلى القراء.

ولد لويس فاريجول رومان وشهرته جيل رومان فى قرية سان جوليان شاتيل بفرنسا سنة ١٨٨٥، ولا يزال حيًّا حتى الآن، وبعد إتمامه لمرحلة التعليم العام فاز فى مسابقة مدرسة المعلمين العليا وهى مدرسة لا يتلقى فيها الطلبة دراساتهم العليا ولا يحصلون منها على درجات علمية، بل يدرس طلبتها فى الجامعه مع غيرهم من الطلبة، وما هى إلا بمثابة قسم داخلى يقيم فيه الطلبة المتفوقون الذين يجتازون مسابقتها بعد إعداد أنفسهم لهذه المسابقة على إثر حصولهم على البكالوريا والانتهاء من مرحلة الدراسة الثانوية، وهم مقيمون فى هذه المدارس مجاناً، بل ويمنحون مكافأة شهرية، وفى هذه المدارس مكتبات كبيرة يستفيد بها طلبتها. واجتياز مسابقه مدرسة المعلمين العليا أمر شاق، ولذلك يعتبر الفائزون فى مسابقتها صفوة الشبان ويظل كل واحد منهم، يعتز طول حياته بقبوله فيها. وبعد أن حصل جيل رومان

على ليسانس الدوله فى الفلسفة من السوربون، أخذ يعد نفسه للتقدم لمسابقه الأساذية (الأجرجاسيون)، وهى مسابقة ضخمة عنيفة تعقدها الجامعه كل عام ليتقدم إليها الطلبه بعد التحضير لها لمدة عامين كاملين. والغايه منها هى اختيار السبان النابغين الذين يصلحون للتدريس بالمدارس النانويه، ومن يفوز فى هذه المسابقة لا يعتبر مدرساً، بل يعتبر أستاذاً بكل معانى الكلمه. ولقد فاز جيل رومان فى هذه المسابقة سنة ١٩٠٩ فأصبح بذلك أستاذاً فى الفلسفة.

ومع ذلك لم ينتظر جيل رومان حصوله على لقب الأستاذيه لكى ينادى بمذهب فلسفى اجتماعى جديد سماه مذهب «الكلّيه» Unanisme الذى أعلنه منذ سنه ١٩٠٣ وهو مذهب أو منهج يرمى إلى تصوير الروح الموحدة الى تحرك كل مجتمع بسرى، وقد أوحى إليه بهذه الفكرة تعاليم أساتذة علم الاجتماع الذين تلقى عنهم العلم فى السربون. من أمثال رائد علم الاجتماع الحديث العالم الكبير «دركايم» وزملائه من كبار الأساتذه مثل: «ليفى بريل» وغيره.

وبالرغم من دراسة جيل رومان للفلسفه بفروعها المختلفة وتخصصه فيها، فإن مواهبه السعريه والأدبية، قد أخذت تظهر منذ وقت مبكر، إذ رأيناه يسترك مع عدد من شبان جيله الأدباء والسعراء أمثال «سنفير» و «ديهاميل» و «فيلدراك»

و «أركوس» فى تأسيس ما يعرف فى تاريخ الأدب الفرنسى المعاصر: بـ «دير كورتيل»، ولهذا الدير قصة أدبية تاريخيه بالغه الطرافة خلدها أحد أعضاء الدير وهو رينيه أركوس فى صفحات سعرية جميلة نثبتها هنا لطرافتها بالرغم من سبق نسرنا لها فى المقدمة التى كتبناها لترجمتنا لكتاب «دفاع عن الأدب» لمؤلفه جورج ديهاميل.

يقول رينيه أركوس: «كنا فى أوائل خريف سنة ١٩٠٦ فى يوم أحد مطير عندما اكتشفنا - فيلدراك وزوجته وأنا - الدار التى أصبحت «الدير»، داراً ممحوة الطلاء لم يسكنها أحد منذ سنين ولكنها جليلة المظهر بشرفاتها وواجهتها ذات الطوب الأحمر ونوافذها الخضراء. كانت محاطة ببستان أشعث جمع أشجاراً من كافة العناصر، وبأقصى البستان حديقة فواكه فيها عدد كبير من الأشجار (لقد اتخذنا من الفواكه غذاءنا صيفاً بأكمله)، ثم حشائش وكوخ، وطرق عمت مسالكها الأعشاب المسرفة. وكانت مئات من الطيور قد آوت إلى هذا المنزل المهجور منذ زمن طويل. وبعد هذه الزيارة بخمسة عشر يوماً كان عقد الإيجار الذى جعلنا سادة «الدير» قد وقع. وهذه الوثيقه الحزينة التى لا تزال بين يدى تحمل خمسة إمضاءات لمؤسسى الدير: رينيه أركوس، جورج ديهاميل، ألبير جريز، هنرى مارتان، شارل فيلدراك، ولقد أضفنا فى قلوبنا اسم «لينار» الطباع الذى علمنا مهنتنا والذى قاسمنا حتى النهاية أيام نعيمنا وأيام بؤسنا.

وكان من أول حرصنا عليه أن «سمرنا» على المدخل «يافطه» كان المارون يستطيعون أن يقرءوا عليها أبيات ربليه:

هنا. ادخلوا. ادخلوا على الرحب والسعة
ادخلوا تجدوا مأوى وحصنا.
يقى من الخطأ الأيم الذى طالما احتال
بأسلوبه الكاذب فسمم العالم.
ادخلوا لندعم هنا الإيمان العميق.

وتحت هذه المقطوعة كتبنا المقطوعة الأخرى التى تقول:

هنا لا تدخلوا أيها المتزمتون
أيها القرود العتاق.
أيها الأقذار المنبعجون.

وهنرى مارتان، السياسى الساب الذى كنا قد تعرفنا إليه والذى أعجبته مشاريعنا، هو الذى حصل لنا على أدوات الطباعة ووضعها تحت تصرفنا. وفيلدراك الذى كان متزوجاً وأباً لأسره أتى بعائلته كلها ووضع كل منا فى غرفة الانتظار - التى كانت غرفتنا المشتركة - أعز ما يملك من أثاث.

ثم تعلمنا مهنتنا، مهنة الطباعة، فى سرعة أدهشت «لينار»، والمجلدان الأولان اللذان حملا سارتنا كانا. «أساطير ومعارك» لجورج ديهاميل، «مأساة الأمكنة»، لرينيه أركوس. ولقد نشر «الدير» ما يقرب من عشرين مجلداً، ثم إن روبير دى مونتسكيو

لكى يظهر لنا عطفه، عهد إلينا بدىوان سعر له «ىارسىملورا»، ولكنه طلب إلىنا الكىىر إذ حملنا على إعاده طىعه أكىر مى مرة، وى النهايه ظهر أن هذه الصفقه كانت من أسوأ الصفقات الى عقدناها.

وكان الكىىر من الفنانين السبان يأىون إلى الدىر ضىوفًا بضاحىة كورنىه، كاىوا يأتون ىوم الأحد جماعات. لقد أصبحت دارنا هدفًا للنزهة وكان يزورنا أيضًا أسخاص عجىبون، كان من بينهم رحال ذوو قمصان حمراء وأخرى سوداء، ونباتيون وكائنات من هنا وهناك، ونساء دميمات ذربىات اللسان يدعوننا إلى أن نعيش وفقًا للمذهب. أى مذهب؟ ذلك ما لم نعلمه قط على وحه التحقىق. وأراد أحد الإسراقىىن أن يحملنا على ىناء عدة أكواخ خسبية ببستاننا، بلا ريب لكى نربى فيها جيلا من التلاميذ! وذات صباح أتانا على دراجة ساب قوى عضلات الأرجل ذو عينىن فى لون السماء هو حيل رومان الذى كان إذ ذاك طالبًا بمدرسة المعلمىن العليا (النورمال)، أتى حاملا مخطوطة «الحياه الكليه» Vie unanime التى قرأناها فى نفس المساء بصوت مرتفع. يالها من حماسة! وإن تكن الصياغة، ونسرية الدىوان، قد حملتنا بعضنا، من لحظة إلى لحظة، على أن يقطب حاجبيه، إلا أننا أحسسنا جميعًا أن ساعرًا قوى الأصالة، نادر البكورة قد ولد.

وحمل الربيع إلى «الدير» مستأجرين جدداً: مرسيرو وزوجته

(أتنا من موسكو حيث تزوجا)، وبرتولدمان، ودوممار، وألبير دوبان وزوجته، وبعض الأصدقاء الآخرين. وكان الموسيقيون يأتون ليلعبوا فيه موسيقاهم، والمصورون ليعرضوا لوحاتهم، والشعراء لسمعوا شعرهم ينشده ممثلون وممثلات، ولقد أصبحت إحداهن فيما بعد (بلانس ألبان) زوجة لديهاميل، ودامت المغامرة أربعة عشر شهرًا. وبعد شتاء آخر قاس اضطررنا إلى أن نفترق، وأن نترك «الدير» الذى لم نعد نستطيع أن نعيش فيه.

يجب أن يعزى الفشل إلى حداثتنا قبل كل شيء. لقد كان ينقصنا النظام، إذ كنا لاننصت لغير هوانا. ثم إننا كنا نتابع غايات مختلفة، غايات لم نكن قد انتهينا كلنا إلى تحديدها على وجه دقيق.

بقيت لدىّ كلمات قليلة هى: أن الدير لم يكن قط مدرسة شعرية. لقد كان مجرد جماعة من الرجال يريدون بعملهم أن يعيشوا معاً فى حياة حرة، وإذا كنا قد أظهرنا عندئذ عطفاً نحو كل الشعراء والكتاب الذين لاحوا لنا موهوبين، فإن ذلك لم يكن لغرض خفى فى أن نجندهم تحت راية ما. لم يكن لنا مذهب مشترك، بل لقد كان يتفق أحياناً أن نسخر بعضنا من بعض، بل أستطيع أن أقول مع ڤلدراك أو ديهاميل، أنه قد لاح لنا أن فلاناً من رفاقنا كان يتكلم ويكتب بلغة غريبة عن لغتنا.

لقد أظهر النقاد كثيراً من القرابات الدقيقة بين ڤلدراك

ورومان وديهاميل وبينى، ولن يخطر ببال أحد منا أن ينكرها. بل إنها بلا ريب قد امتدت إلى شعراء آخرين: جوف وسنفير، وديرتان... إلخ، ولكنه لم تكن هناك مدرسة أصلا، لقد كنا جميعاً نبغض أشد البغض روح التجنيد.

ورينيه أركوس على حق فيما يقرره من أن جماعه الدير لم تكوّن مدرسة أدبية متفقه فيما بينها على فلسفة إنسانية أو فنيه، وذلك بالرغم من سيطرة شخصية: جيل رومان، ومحاولة فرضه مذهب الكلية على الجماعة كلها، ولقد أوضحت فى مقدمتى لكتاب «دفاع عن الأدب» كيف أن جورج ديهاميل مثلا، كان ينفر كل النفور من فلسفة جيل رومان، وبخاصه عندما كانت تتطرق الى السلوك الأخلاقى والاجتماعى على نحو ما نحس من بعض عبارات جيل رومان الخارجه مثل قوله: «لا تفر من المزواجه، بل احذر أن تكون أحد اثنين على نحو دائم» أو «إن الأسرة والزواج أحجار عثره تقوم فى سبيل الكليه». ومع كل ذلك. فإن طرف النقيض من ناحيه الفلسفة الأخلاقية الاجتماعية وهما جورج ديهاميل، وجيل رومان، هما اللذان اكتسبا شهرة عالمية واسعه بضخامه إنتاجهما وجودة الكثير منه.

ونقصر حديثنا هنا على جيل رومان، فنذكر أن مؤلفاته الكثيرة تتوزع بين ثلاثه فنون أدبية كبيره:

١ - **القصة الطويلة مثل:** «القريه التى بعثت» سنه

١٩٠٦، و «سلطات باريس» سنة ١٩١١، و «موت إنسان» سنة ١٩١١، و «الأصدقاء» سنة ١٩١٣، و «دونو جوتونكا» سنه ١٩٢٠، وثلاتية: «الروح أو لوسيين» سنة ١٩٢٢، و «إله الأجساد» سنة ١٩٢٨، و «عندما السفينة...» سنة ١٩٢٩، ثم سلسلة: «الرجال الطيبون» التى تعتبر أشهر قصصه.

٢ – **دواوين شعر مثل:** «روح الناس» سنة ١٩٠٤، و «الحياة الكلية» سنة ١٩٠٤: ١٩٠٧، و «أناشيد وصلوات» سنه ١٩١٣، و «أغنية عسر سنوات» من سنة ١٩١٤: ١٩٢٤، وقد نسرها سنة ١٩٢٨ كما ألف مع ستقيير سنة ١٩٢٣ كتاباً عن «نظم السعر»، عرض فيه منهجه فى موسيقى الشعر التى يراها فى تكرار صوت بسيط قد يكون صائتاً أو صامتاً وليس من الضرورى أن يأتى فى آخر البيت.

٣ – **سلسلة من المسرحيات مثل:** «الجيش فى المدينة» سنة ١٩١١، و «كوميدير العجوز» سنة ١٩٢٠، و «السيد تروهاديك مأخوذاً بالدعارة» سنة ١٩٢٢، و «كنوك أو انتصار الطب» سنة ١٩٢٣، و «زواج السيد تروهاديك» سنة ١٩٢٥، و «البراقه» سنة ١٩٢٥ و «الديكتاتور» سنة ١٩٢٥، و «ديميتريوس» سنة ١٩٢٦، و «أميديه» سنة ١٩٢٦، و «حان سيئ الصراحة» سنة ١٩٢٦، وفى سنة ١٩٢٩ اشترك مع ستيفان زفايج فى اقتباس مسرحية «فولبونى» عن الساعر الإنجليزى بن جونسون، وهى

المسرحية الى عرضت على جمهور القاهرة باسم «عبيد الذهب»، ثم مسرحيه «حان موس» سنة ١٩٣٠، و «دولوجو» سنه ١٩٣١، و «الملك المقنّع» فى نفس العام.

وأما فى مجال التفكير الفلسفى فله فضلاً عن نظريه «الكلية»، نظريه أخرى تقول إن بعض الأشخاص يستطيعون أن يبصروا دون الاستعانة بالأعين. وقد بسط هذه النظرية فى كتابين سمى أحدهما: «الرؤيه الخارجه عن الحدقة» أى اللاحدقيه، وسمى الآخر «حاسة الرؤية بلا أعين».

ويجمع النقاد على أن تفوق جيل رومان الحق، إنما كان فى مجال المسرح، وذلك بفضل روحه الفكهه اللاذعة، وسخريته النافذة فى نقد الأخلاق، كما يجمعون على أن مسرحيه «كنوك أو انتصار الطب»، هى رائعته الفذة التى عرف بها فى العالم أجمع، ومن الواضح أن الروح الفكهة اللاذعه لا يواتيها فن الشعر، وبخاصه إذا كان صاحبها مكوناً تكويناً فلسفيًّا يحمله على التحليل النظرى الذى لا يتسع له عاده وعاء الشعر، وقد تصلح له القصه، ولكن مجاله الحق هو الحوار المسرحى، وهو ما نبغ فيه جيل رومان، أكثر من نبوغه فى فن القصه أو فى فن الشعر، حيث يغلب على دواوينه التفكير الفلسفى الجاف، بل المتعسف أحياناً فضلاً عن النثريه التى تذهب بطلاوة الشعر وجماله.

كنوك وفن الهزليات

ننعقد الإجماع على أن هده المسرحيه من الروائع العالميه، ومع ذلك لاحظ أن الأساتذه، والنقاد الأنجلوسكسونيين يسمونها هزليه Farce ، على نحو ما ورد فى الموسوعه الأبجديه لأكسفورد المعروفة باسم: المرشد إلى الأدب الفرنسى Companion to Grench literature ، فإلى أى مدى ينطبق عليها هذا الوصف؟.

نتلخص هذه المسرحية فى السخرية اللاذعه من الطب والأطباء، وهو موضوع من مواضيع الكوميديا التقليدية وبخاصه منذ عصر موليير الذى طالما سخر من الأطباء من مرضى الوهم، ولكن مسرحية «كنوك» لا تنتقد واقعاً فعلياً أو ممكن الوجود، بل تفترض فروضاً مسرفه وإن يكن هدفها النهائى طبعاً، هو نقد حيل بعض الأطباء لجمع المال من طريق الإيهام بالمرض.

فالدكتور باربالبد عمل فى عيادته بقريه «سان مورس» سنين طويلة قد تبلغ الربع قرن، ومع ذلك لم يصب نجاحاً، ولا جمع ثروة مما اضطره إلى البحث عن مشتر لهذه العيادة لكى ينتقل للعمل فى مدينة كبيرة هى ليون، واهتدى إلى كنوك ليبيعه هذه العيادة، بل ويبيعه أيضاً السيارة العتيقة التى كان يستخدمها فى تنقلاته بالريف. ونحس من احتيال باربالبد على إقناع كنوك

بصلاية السيارة المستهلكة وتفضيلها على السارات الجديده التى يزعم أنها مصنوعة من الصفيح – نحس بأن بارباليد هو الآخر رجل محتال، بل وأن زوجته وسائق عربته يتآمران معه فى هذا الاحتيال، وتبدأ المسرحية ذات الفصول الثلاثه بمشهد العربه العتيقة وقد ركبها الدكتور بارباليد وزوجته وكنوك ليصعدوا الجبل إلى قرية سان موريس، وكلما أصاب السيارة عطل اجتهد بارباليد وزوجته فى إيهام كنوك بأن السائق يريد إراحة السياره بعض الوقت، بل ويحاولان صرفه عن ملاحظة ما يجريه فيها السائق من إصلاح، حتى إذا وصلوا إلى القرية الجبليه، سلم بارباليد العيادة إلى كنوك وحرر معه عقد البيع للعيادة والسياره، على أن يدفع كنوك ثمنها أقساطاً على فترات محددة.

وفى القرية يعلم كنوك أن سبب فشل بارباليد يرجع إلى أنه لم يكن يتكالب على مهنته، بل كان ينفق الكثير من وقته للنزهه، أو فى ألعاب التسلية بفندق القرية، كما كان يهون على المرضى خوفهم، ويصف لهم أبسط الأدوية وأرخصها ويدعوهم إلى الثقه بقدرة الجسم على المقاومة الذاتية حتى ضج صيدلى القرية من كساد بضاعته، بل وانصرف أهل الناحية جميعاً تقريباً عن الطبيب وعيادته، مما دعا كنوك إلى أن ينتهج نهجاً مضاداً استخدم فيه كافة الحيل والوسائل الجهنمية لابتزاز المال، فابتدأ بأن استدعى الصيدلى وأقنعه بأن العمل سينشط فى صيدليته وأوصاه بأن يجلب إليها الأدوية الغاليه الثمن كما استدعى المسيو برنار

معلم القرية واتفق معه على أن يزوده بمجموعه من الأمراض على أن يعرضها فى محاضرات يلقيها بمقر المدرسة على الجمهور عن ستى الأمراض وبخاصه الأمراض المحلية، موضحاً المعلومات التى يقدمها إليه كنوك بالصور التى يعرضها بالفانوس السحرى. واستدعى أيضاً منادى المدينة لكى يكلفه بأن يطوف بالقريه والقرى المجاورة معلناً أن طبيب القريه الجديد، قد قرر أن يفتح عيادته مجاناً يوم السوق من كل أسبوع وهو يوم الاثنين لفحص جميع سكان المنطقه وطمأنتهم على حالتهم الصحيه. وماإن أتم كنوك ترتيباته الجهنمية حتى أخذ جميع أهل المنطقه يتوافدون على عيادته للفحص المجانى يوم الاثنين. وابتداءً من هذه اللحظه تمر أمامنا طائفه من المشاهد المضحكة اللاذعة التى نرى فيها عدداً من الرجال أو النساء يدخلون عياده كنوك وهم أصحاء، أو على الأقل بادى الصحه ويخرجون منها مرضى أو مؤمنين أنهم مرضى بعد أن أوهمهم كنوك بكل ذلك وأمرهم بأن يخرجوا من عيادته إلى منازلهم ليأووا فى فراشهم على أن نعودهم فيه، ويطب لهم، بحيث يتولد فى نفوسنا إحساس واضح بأن أهل القرية وضواحيها قد لزموا جميعاً الفراش، بل ويحل موعد القسط، ويصل الدكتور بارباليد إلى سان موريس ليتسلم من كنوك هذا القسط، ويعلم بارباليد وهو فى الفندق بالنجاح الفظيع الذى أحرزه كنوك حتى صعب على بارباليد أن يجد غرفه خاليه بالفندق الذى تحول إلى شبه مستشفى، لولا توسط كنوك لدى

إدارة الفندق. ويندهس باربالبد مما برى وسمع، ولكنه لا يكاد يلتقى بكنوك ويدور بينهما الحديث وسنسمع إلى فلسفه كنوك التى تزعم أن الأصحاء ليسوا إلا مرضى غافلين حتى ساوره هو الآخر الشك فى أنه مريض، ولكن كنوك يعتذر بكثرة اعماله ومواعيده عن فحص باربالد فوراً ويعده بإجراء هذا الفحص بعد الظهر. وهنا تنتهى المسرحيه، أى بعد أن أسعرنا المؤلف بأن كنوك لم ينجح فى إلزام جميع أهل القرية وصواحبها فراش المرض فحسب، بل ونجح فى إيهام الدكتور باربالد نفسه بأنه مريض غافل عن مرضه.

وسخصية «كنوك» هى التى تعطى المسرحيه طابع الهزليه.

فنحن نعلم منذ الفصل الأول ومن الحوار الذى يجرى بين كنوك والدكتور باربالد، أن كنوك لم يدرس الطب فى جامعة، ولم يحصل على مؤهل، وإنما زاول المهنه احتيالاً وها هو الحوار الشيق اللاذع الذى نعلم منه ذلك:

الدكتور : هذا كلام غير مفهوم.

كنوك : بالعكس هى مسأله فى غايه البساطه، ومنذ عسرين سنه مضت تخليت مضطراً عن دراسة الاداب واشتغلت بائعاً فى قسم «الكرفتات» فى متجر كبير بمرسيليا، ثم فقدت عملى وأخذت أتسكع فى المساء وقرأت إعلاناً عن سفينة حمولتها ١٧٠٠ طن مسافرة

إلى الهند نطلب مسرفاً صحيًّا، ولا تسترط أن يكون حاصلاً علي لفب دكتوراه، فماذا تفعل لو كنب مكانى ؟

الدكتور : لا أفعل سيئاً بطبيعه الحال.

كنوك : أفهم هذا منك، فأنب لا تعسق مهنة الطب، أما أنا ففد تفدمت، وإذا كنب أمفت المواقف المريبه — ففد أعلنتهم منذ دخولى فائلا: «أيها السادة كنت أستطيع أن أزعم لكم أننى دكتور ولكنى فى الوافع لست دكتوراً، بل أصرح لكم بما هو أدهى — إننى لا أعرف فى أى موضوع سأكتب رسالى»، فكانت إجابتهم أنهم لا يتمسكون بلفب دكتور، وأن موضوع رسالتى لا يهمهم فى سىء، فرددت على الفور: مع الاعتراف بأننى لست دكتوراً فإننى أود — لأسباب تتعلق بالكرامه وحسن النظام — أن يطلق علىّ فى السفينة لفب دكتور»، ففالوا إن هذه المسألة طبيعيه، ومع ذلك لبثت مدى ربع ساعه أشرح لهم الحجج التى زحزحتنى عن التمسك بالصدق والأمانه وحملتنى على المطالبة بلفب لاحقّ لى فيه ولا يرضاه ضميرى. وهكذا أطلت الحديث حتى لم يبق أمامهم سوى ثلاث دقائق للبت فى تحديد مرتبى.

الدكتور : ولكن أصحيح أنه لم يكن لديك أى إلمام بالطب ؟

كنوك : افهمني! إنني كنت منذ طفولتي أقرأ بسغف في الصحف كل إعلان عن علاج طبي أو دواء، وإذا اشترى أبواي علبه حبوب أو زجاجة دواء سائل، نزعت الورقة الملفوفه عليها وقرأت سرحها لطريقة الاستعمال، فلما بلغت التاسعه من عمري حتى كنت أحفظ عن ظهر قلب نصوصاً طويلة عن عوارض الإمساك، وأستطيع الآن أن أتلو عليك من الذاكرة نص خطاب بديع أرسله الأرملة: م.ع. من مدينه بورج عام ١٨٩٧ إلى المعمل الأمريكي الذي ينتج دواء ضد الإمساك اسمه: «الأعشاب السحريه الأكيدة المفعول». أتريد؟!..

الدكتور : لا تتعب نفسك إني أصدقك.

وإذن فكنوك لس طبيباً بل محتالاً، ابدأ سلسلة احتيالاته باللعب على لفظه دكتور ليوهم أنه طبيب، وإن لم يحصل على درجه الدكتوراه. وهذا هو جانب الهزل في المسرحية، ولكن أيبيح لنا ذلك تسمية المسرحيه كلها فارس Farce؟ وليست المسأله مسألة اصطلاح أو خانة نضع فيها هذه المسرحية أو ننقلها إلى خانه أخرى، بل مسألة فنيه هامة، لأن وصف مسرحيه بأنها هزلية يخرجها من الأدب الرفيع إلى الأدب الرخيص. وللبت في ذلك نوضح أولاً مدلول لفظه هزليه وتاريخ فن الهزليات في إيجاز.

لقد اصطلحنا في لغتنا العربيه الحديثه على ترجمه لفظه

كوميديا بلفظة ملهاة، وأما لفظه فارس Farce فنقترح ترجمتها بلفظة هزليه، تمييزاً لها عن الملهاة أى عن الكوميديا.

ولفظه فارس Farce، معناها الاستمافى فى اللغة الفرنسيه «الحشو» الذى تحشى به ورق العنب أو «الكوسه» مثلاً! وقد تطرقت هذه اللفظه إلى لغة المسرح منذ القرون الوسطى إذ أطلقت على مشاهد هزليه كانت تعرض فى فترات الاستراحه بين كل فصل وآخر من فصول المسرحيات الدينية التى كانت منتشره فى القرون الوسطى، وسيئاً فسيئاً أخذت تلك المشاهد الهزليه تستقل بذاتها لتكون فناً مسرحيًّا قائماً بنفسه، وبذلك نشأت المسرحية التى تسمى الآن بالفارس، أى الهزليه، وهى مسرحيه لا هدف لها غير الإضحاك. وفى الغالب تعتمد فى ذلك على النكات اللفظية والحركات البهلوانية والمواقف غير المعقوله الخالية من كل دلالة. وفن الهزليه كثيراً ما يصعب تمييزه فى تاريخ الأدب الدرامى عن أنواع أخرى من المسرحيات الفكاهيه الخفيفة، السطحية الهدف، مثل ما عرف فى إيطاليا، وانتقل منها إلى البلاد الأوربيه الأخرى باسم الكوميديا الفنيه، وهى كوميديا كان الممثلون يرتجلونها؛ ومن أشهر هؤلاء الممثلين السيد «بنطلون» والسيد «سكاراموش»، ثم نوع آخر ازدهر فى أحد وديان فرنسا وعرف باسم هذا الوادى وهو فن «الفودفيل».

والآن هل نعتبر مسرحية «كنوك» كوميديا نقد اجتماعى وأخلاقى؛ أى «ملهاة» أم نعتبرها هزليه لا تستهدف غير

الإضحاك بالوقائع والمواقف غير المعقولة التى تضع معها كل هدف اجتماعى أو أخلاقى.

الواقع أن هذه المسرحية الرائعة تتضمن شخصيات وأحداثاً تبدو بعيدة عن واقع بلد متحضر مما يقربها من الهزلية، ولكننا نلاحظ من جهة أخرى أن ما يبدو غريباً فيها قد يكون مجرد تجسيم ومبالغة لواقع يستحق النقد والسخرية، وهى فوق كل ذلك تتضمن فلسفة نفسية واجتماعية لاشك فيها، فمن الناحية النفسية، نحس فيها بتحليل دقيق لقدرة الإنسان على إيهام غيره وإيهام نفسه، بل إن فكرة كنوك الأساسية التى يسميها رسالته لنيل الدكتوراه، قد لا تخلو من صدق، وهى زعمه، بأن الأصحاء مرضى غافلون، فهذه حقيقة كثيراً ما تشهد بها تجارب الحياة وإن يكن التعميم يفسدها، كما يمكن أن يفسد كافة الأحكام، والمسرحية فوق ذلك تتخللها الفلسفة الاجتماعية التى تلقاها جيل رومان عن أساتذة علم الاجتماع فى السوربون كدور كايم وليفى بريل وغيرهما، ففيها دراسة وتحليل لروح القطيع عند الجماهير وكيف يمكن استهواؤها بأيسر الطرق الاحتيالية وبخاصة بالمحاضرات المصورة التى ألقاها برنار معلم القرية عن الأمراض وأعراضها وعواقبها ومضاعفاتها، وكل ذلك فضلاً عن إظهار المؤلف لأخطار سهوة جمع المال على المجتمع عندما يتضافر الجشعون أمثال كنوك وصيدلى القرية على ابتزاز أموال الناس بإيهامهم أنهم مرضى، وإن يكن المؤلف قد بالغ فى سطوة هذا

الإبهام الذى ألزم أهل الناحيه كلهم فراش المرض، وكأن حبل رومان ينتقد الاتجار بالطب ويكاد يلفت الأنظار إلى ضروره تأميمه.

وأما من الناحيه الفنيه الخالصة، فالمسرحيه محكمه البناء، وشخصياتها دقيقه التصوير، وحوارها خفيف براق، بالرغم من عمق المعانى النفسيه والاجتماعيه والأخلاقيه التى تحملها، وفى كل هذا مايرفع المسرحيه إلى مستوى الأدب الجاد بحيث نستطيع أن نخلص إلى أننا سواء جارينا الأنجلوسكسونيين فاعتبرنا هذه المسرحيه من نوع الهزليات الجيدة، أو جارينا الفرنسيين فاعتبرناها ملهاه من نوع الكوميديا النفسيه الاجتماعيه، فإننا على أية حال لا نستطيع أن ننكر النجاح الجماهيرى الضخم الذى حازته منذ أن عرضت أول مره على كوميديا الشانزليزيه سنه ١٩٢٣ وقام بإخراجها وتمثيل دور كنوك فيها، الممثل والمخرج الفرنسى العالمى الصيت: لويس جوفيه. ومنذ ذلك التاريخ احتلت هذه المسرحيه مكاناً ثابتاً فى رصيد أى ريبرتوار للكثير من المسارح العالميه فى كافة بلاد العالم.

محمد مندور

شخصيات المسرحية

* كنوك
* الدكتور بارباليد
* موسكيه
* برنار
* منادى البلدة
* فتى قروى -الأول
* فتى قروى -الثانى
* سيبيون

حان
مدام بارباليد
مدام ريمى
السيده ذات الثياب السود
السيده ذات النياب البنفسجية
الخادمة
صوت ماريت بين حسد من أهالى البلد

الفصل الأول

«يجرى حوادث هذا الفصل داخل أو حول سيارة من طراز قديم جدًّا يرجع لسنة ١٩٠٠ – ١٩٠٢، هيكل ضخم (هى فى الأصل من طراز «فتون مردوح» وحولت فيما بعد إلى طراز يشبه «الطوربيد» بفضل إضافة ألواح معدنية عليها) مستلزمات السيارة من النحاس كبيرة الحجم ومقدمها حيث المحرك على شكل صندوق صغير؛ وتتحرك السيارة من مكانها فى أثناء بعض مشاهد هذا الفصل ويكون التحرك من جوار محطة صغيرة للسكة الحديد ثم تصعد بعد ذلك فى طريق جبلى . »

المشهد الأول

كنوك – الدكتور بارباليد – مدام بارباليد – جان

الدكتور بارباليد : أهذا متاعك بتمامه يا زميلى العزيز؟

كنوك : نعم هذا كل متاعى يا دكتور بارباليد.

الدكتور : سيضعه جان بجانبه، المقعد الخلفى يسعنا نحن الثلاثة بسهولة، السيارة فسيحة والكراسى الصغيرة الإضافية مريحة، ستان بين هذه السيارة والسيارات الحديثة القميئة.

كنوك : [يلتفت إلى جان وهو يصع الصدوق] خذ بالك من هذا الصندوق فقد وضعت فيه أجهزة سهلة الكسر.

[يبدأ جان فى تكويم متاع كنوك]

مدام بارباليد . هذه سيارة سأتحسر عليها طويلا إذا غلبتنا الحمافه وبعناها.

[كنوك يتأمل السياره بدهشة]

الدكتور : لأنها فى الحفيفة طوربيد ومع طراز الفيتون المزدوج القديم.

كنوك : نعم.. نعم..

[يختفى المقعد الأمامى كله تحت أكوام المتاع]

الدكتور : انظر إلى متاعك كيف اتسع له المقعد وبقيت لجان جلسته المطمئنه، بل ليتك جئت بمتاع أكبر لتدرك أن هذه السيارة تعنى بكل المطالب.

كنوك . هل بلدة سان موريس بعيدة؟

الدكتور : على بُعْد أحد عشر كيلومترًا، ولا يخفى عليك أن بعدها عن السكة الحديد بهذا القدر نعمة كبيرة لأنه يستبقى إخلاص المرضى لطبيبهم فلا يزوغون منه لالتماس العلاج فى عاصمة الإقليم.

كنوك : ليس بينها إذن وبين المحطه عربة نقل؟

الدكتور : نعم هناك عربة نقل ولكنها فى حالة يرىى لها، بحيث يحبب إليك المسى بدل الركوب.

مدام بارباليد : السيارة هنا لا غنى عنها.

الدكتور : بخاصة للأطباء.

[كنوك متمسك عسلك مهدب متحمط]

جـان : (إلى الدكتور) هل أدير المحرك؟

الدكتور : نعم يا بنى!

[جان يهمك فى معالجة السيارة يفتح غطاء المحرك، ويفك الوچيهات، ويصب البنزين إلح إلح]

مدام بارباليد : [إلى كنوك] إن المناظر الطبيعيه على جانبى الطريق جميله، وقد سبق للكاتب زيناثيد فلوريو أن وصفها فى قصه من أحسن قصصه، فد نسيت اسمها، [تركب السيارة وتقول لروحها.] ألا ترى أن يكون لك الكرسى الصغير الأمامى وهكذا يجلس الدكتور كنوك إلى جانبى ليتملى من المناظر الى نمر بها؟

[كنوك يجلس إلى يسار مدام باربايد]

الدكتور : السياره فسيحة بقدر كاف والمقعد الخلفى يتسع لجلوس ىلاىه براحة، غير أنه يحسن للراكب أن يملك حركته ليتمتع برؤية المناظر من حوله

[يقترب من جان] كل شيء على ما يرام؟ هل فرغت من صب البنزين؟ وفي السلندرين الاثنين؟ لعلك لم تنس أن تنظف الوجيهات قليلا، فهذا أحوط بعد مشوار طوله أحد عشر كيلومترًا، ولف «الكاربوراتير» بقطعة من القماش أو بمنديل كبير فإنه خير من هذه الخرقة [يقول وهو يكر راجعًا] بديع! بديع! [يصعد إلى السيارة] إنني أجلس على الكرسي الأمامي الصغير الفسيح، ومع ذلك فهو بمثابة فوتيل رحب يفرد ويطوى.

مدام بارباليد : سيظل الطريق يوالي صعوده حتى نبلغ سان موريس، والذهاب إليها على الأقدام وبهذا المتاع كله عذاب عظيم، أما بالسيارة فهو متعة ساحرة.

الدكتور : كنت يا زميلي العزيز في الأيام الخوالي أداعب آلهة الشعر، ونظمت أنشودة من أربعة عشر بيتًا تتغنى بجمال الطبيعة في هذه الأرجاء التي ستتكشف لنا، والمصيبة أنني نسيتها:

وفيعـــان تتـوه العـــين فيهـا
يـرفرف فـوقها علم الجمـال

[جان يدير المانيفلا بجهد المستميت]

مدام باربالبد : يا ألبرت لك منذ سنين إصرار على رواية هذا البيت وفيه كلمه «فيعان» بدلا من كلمه «أغوار» كما كان فى الأصل.

الدكتور : صحبح، صحيح، [يسمع صوت انمحار] التى سمعك ما زميلى العزيز إلى المحرك لتتبين كيف أنه مطواع لا يحرن، فما احتاج إلا إلى لفة أو لفتين من المانيملا حتى «سفط» البنزين، ثم ها أنت تسمع صوت انفجاره مرة ومره أخرى، هيا هيا، فإذا بنا نسير..

[حان يحتل مقعده وتتحرك السيارة وتتتابع المناظر شيئًا فسيئًا]

الدكتور : [بعد فتره صمت] صدقنى يا خَلَفى العزيز [يدق على كتف كنوك]، نعم فقد صرت من هذه اللحظة خلفًا لى، صدقنى حين أقول لك إنك أبرمت صفقة طيبة، نعم، فجميع مرضاى هم منذ هذه اللحظة زبائنك، حتى ولو صادفنا ونحن نقطع الطريق مريض ولمحنى برغم أن السيارة تمرق أمامه بسرعة خاطفة وطلب إلى أن أعالجه فإننى سأتنحى وأقول له رافعًا صوتى: «أخطأت مقصدك يا سيدى، فهذا هو طبيب البلد [يشير بسبابته إلى كنوك] ولن أخرج عن

مخبئى [تتوالى انفجارات المحرك] إلا تلبية لدعوة
أصولية منك للاشتراك معك فى كونسولتو
لتغليب رأى على رأى [انفجارات أخرى من المحرك]
من حسن حظك أنك وقعت على رجل يتخلى
عن عمله لا لشىء إلا للتلذذ لتحقيق نزوة
طافت برأسه.

مدام بارباليد : لقد أقسم زوجى أن يختم حياته العملية فى
مدينة كبيرة.

الدكتور : إننى أشتهى أن أنحنى أودع الجمهور للمرة
الأخيرة من فوق مسرح كبير، وهذا منى
غرور فيه شىء من السخف. أليس كذلك؟
إننى أحلم بباريس، ولكن قد أقنع بليون.

مدام بارباليد : وذلك بدلا من أن يجمع له هنا ثروة مضمونة فى
طمأنينة وهدوء.

[كنوك يتأملها تارة، ويستغرق فى أفكاره تارة، ويلقى نظرة
إلى المشاهد من حوله تارة أخرى]

الدكتور : لا تسرف فى السخرية منى يا زميلى العزيز،
فإنما بفضل هذه النزوة التى طافت برأسى قد
أتيح لك أن ترث عيادتى لقاء تعويض زهيد.

كنوك : أهذا حكمك؟

الدكتور : إنها الحقيقة السافرة.

كنوك : على كل حال فأنا لم أساومك قط.

الدكتور : حقًّا لقد أحببت فيك ترفعك عن اللجاجة، وأعجبنى منك جدًّا أنك بدأت المفاوضة بالمراسلة أولا حتى إذا تم الاتفاق على جميع التفاصيل جئت بنفسك، وهكذا أبرمت الصفقة، كما بدا لى، على طريقة كرام الناس، أو قل على الطريقة الأمريكانية. حقًّا أهنئك على هذه النعمه التى هبطت عليك، فالعيادة لها دخل ثابت لا يتعرض لأزمات مفاجئة.

مدام بارباليد : وليس بجانبك منافس آخر لك.

الدكتور : والصيدلى الوحيد لا يجاوز قط حدود مهنته..

مدام بارباليد : وليس هنا شىء يغريك بإنفاق النقود.

الدكتور : لن تجد وسيلة لهو واحده تستنزف جيبك.

مدام بارباليد : فى سته أسهر تكون قد اقتصدت ضعف ما أنت مدين به لزوجى.

الدكتور : وسأرضى أن تدفع هذا الدين على أربعة أقساط فى السنة. آه! لولا الروماتيزم الذى تعانى منه زوجتى لهممت أن أعدل عن الصفقه.

كنوك : مدام بارباليد مصابة بالروماتيزم؟

مدام بارباليد : نعم، مع الأسف.

الدكتور : الجو هنا جو صحى جدًّا بصفة عامه، ولكنه لا يلائم زوجى بصفة خاصة.

كنوك : هل فى البلد كبير من المصابين بالروماتيزم؟

الدكتور : لك أن تقول إنه المرض الشائع عندنا.

كنوك : هذا أمر فى نظرى يثير غاية الاهتمام.

الدكتور : نعم عند من يريد التخصص فى دراسة الروماتيزم.

كنوك : [بهدوء] كنت أفكر فى الزبائن.

الدكتور : حاشا وكلا، فكما أنت لا يخطر ببالك أن تستدر المطر بقرع أجراس الكنائس، فكذلك أهل البلد هنا، هيهات لهم أن يخطر ببالهم طلب الشفاء من الروماتيزم بالذهاب إلى الطبيب!

كنوك : ولكن هذا شىء يؤسف له.

مدام بارباليد : انظر يا دكتور! هذا المنظر أمامك كم هو بديع.. كأننا فى سويسرا.

[انفجارات متعالية من المحرك]

جـان : [يهمس فى أذن الدكتور بارباليد] يا دكتور! المحرك «عطلان» يلزمنى أن أفك ماسورة البنزين.

الدكتور : [لجان] طيب.. طيب.. [للآخرين] كنت بالفعل أريد أن أقترح عليكم التريث هنا لحظة.

مدام بارباليد : ولمـاذا؟

الدكتور : [يصوب لها نظرات ذات معنى] هذا المنظر الجميل.. ألا.. ألا يستحق أن نقف عنده؟

مدام بارباليد : إذا كنت تريد التريث فالمنظر المرتفع أكثر جمالا.. [السيارة تقف ومدام بارباليد تدرك حقيقة الأمر]

الدكتور : لا ضير أن نتريث هناك أيضًا قليلا نتريث، ولم لا؟ نتريث مرتين، وثلاث مرات، بل أربع مرات كما نحب ونهوى. من حسن الحظ لسنا فى سباق [موجهًا الكلام لكنوك] هل انتبهت يا زميلى العزيز إلى هذه السيارة كيف وقفت بتؤدة وانصياع، فزمام سرعتها وأنت تقودها يظل دائمًا فى يدك، وهذه مسألة هامة جدًّا فى الطرق الجبلية [يستطرد وهم ينزلون من السيارة] ستنضم يا زميلى العزيز فى وقت أسرع مما تظن إلى صفوف أنصار السفر بالسيارات، ولكن حذار من سيارات اليوم الرديئة إنها حطام مصنوع من الصفيح لا من الصلب.

كنوك : إن لم ينحدنى مرض الروماتزم فقد يسعفنى بدلا منهم مرضى الالتهاب الرئوى ومرضى النزلات الشعبية.

الدكتور : [إلى چان] اغتنم عزمنا على الوقوف ونظف ماسورة البنزين [إلى كنوك] ماذا تقول؟

التهابات رئوية ونزلات شعبية؟ هذه أمراض نادرة عندنا، فالجو هنا قاس كما تعلم، إذا ولد الطفل ضعيفًا هزيلاً مات قبل أن يبلغ الشهر السادس من عمره، ولا يعرض على الطبيب. بطبيعة الحال، أما إذا جاوز الأطفال منطقة الخطر شبوا فتية صحتهم كالحديد. بقيت أمراض القلب والسلل، ولكن المصابين بهذه الأمراض يعيشون فى غفلة عنها لا يستيقظون قط للخطر الجاثم عليهم، فإذا ما بلغوا الخمسين من العمر تخطفهم الموت فى لمح البصر.

كنوك : لا تقل لى إن جيبك امتلأ من معالجة أموات فارقوا الحياة بغتة؟

الدكتور : كلا بطبيعة الحال [يبحث فى سره عن بقيه كلامه] فلا تزال هناك أولا حالات الأنفلونزا، لا أقصد حالات الأنفلونزا العادية التى لا يأبه لها المرضى بحال من الأحوال، بل لعلهم يرحبون بها لأنها تعينهم فيما يزعمون على طرد سموم الجسد كلا، إنما أعنى الأنفلونزا حيث تتفشى كوباء فى العالم كله.

كنوك : ينبغى إذن أن أنتظر الدورة القادمة للأنفلونزا

العالميه! هل أمل إبليس فى الجنه!

الدكتور : لا عليك! فهذا الذى بحدثك قد عاصر منها وباءين، الأول فى شتاء ١٨٨٩ - ١٨٩٠ والثانى ١٩١٨.

مدام بارباليد : فى سنة ١٩١٨ كان عدد الموتى هنا يزيد نسبيًّا على عدد الموتى فى المدن الكبيرة [لروحها] أليس كذلك؟ لقد قمت بنفسك بمقارنة الإحصائيات.

الدكتور : نعم، كانت نسبة الوفيات عندنا تفوق كثيرًا نسبة الوفيات فى ثلاث وثمانين مقاطعة.

كنوك : وهل لجئوا إلى الطبيب؟

الدكتور : نعم وبخاصه فى نهاية الوباء.

مدام بارباليد : وزاد دخلنا عند حلول عيد القديس ميشيل عند موسم حصاد القمح.

[يرحف چان تحت العربه]

كنوك : ماذا تعنين؟

مدام بارباليد : الزبائن هنا لا يدفعون أجر الطبيب إلا فى هذا العيد بعد أن يبيعوا القمح.

كنوك : ما معنى هذا الكلام؟ أهو التفويم اليونانى أم التفويم الخيالى؟

الدكتور : [وهو يتتبع بنظره منه بين الحين والحين عمل جان تحت السيارة] لم هذه الهواجس يا زميلى العزيز؟ إن عيد القديس ميشيل هو يوم مرموق بين أيام السنه وموعده آخر سبتمبر.

كنوك : [يعدل لهجته] ونحن الآن فى أوائل أكتوبر! يا للداهية!.. أما أنت فقد أحسنت على الأقل اختيار الوقت الذى تبيع فيه عيادتك [يمشى بضع خطوات وهو يفكر] ولكن لنفرض أن جاءك زبون لتسكف عليه، أفلا يدفع لك أجرك من فوره قبل انتهاء الزيارة؟

الدكتور : كلا، إنه يدفعه فى عيد القدبس مبسيل هذه هى العادة.

كنوك : حتى ولو جاءك لزيارة واحدة عارضه بحبث لن تراه بقية العام؟

الدكتور : فى عيد القديس ميشيل.

[كنوك يتأملها وهو صامت]

مدام بارباليد : على كل حال فإن الناس هنا فى أغلب الأمر لا يقصدون الطبيب إلا مرة واحدة.

كنوك : مـاذا؟

مدام باربالبد : نعم.. هذا هو الواقع.

[الدكتور باربالبد يتصنع شرود الذهن]

كنوك : وماذا تفعل مع المرضى المواظبين؟

مدام بارباليد : أى مرضى مواظبين؟

كنوك : الذين يواظبون على التردد على الطبيب عده مراب فى الأسبوع أو عدة مرات فى الشهر..

مدام بارباليد : [إلى زوجها] أسمعت ما يقوله الدكتور؟ يتحدث عن زبائن متل زبائن القصاب أو الخباز.. إنه سأن كل طبيب جديد فى الكار تخدعه الأوهام..

الدكتور : [يصع يده على دراع كنوك] صدقنى يا زميلى العزيز، إن المرضى هنا هم أحسن صنف من الزبائن.. أعنى الصنف الذى لا يجور على استغلالك.

كنوك : استغلالى؟ أتمزح؟

الدكتور : دعنى أوضح الأمر، أريد أن أقول إنك لن تقع تحت رحمة نفر من المرضى قد يتم سفاؤهم بين يوم وآخر فإذا خسرتهم أفلست، أما إذا اعتمدت على الجميع فكأنك لا تعتمد على أحد.. أفهمت؟

كنوك : بمعنى آخر لم يبق لى إلا أن أصطاد السمك وكان ينبغى أن أحضر معى «سنار»، وكمية لا بأس بها من الديدان، ولكن ربما أجد كل هذا فى بلدكم [يسير بضع خطوات وهو يفكر، يقترب

من السياره الرىه ويتأملها، ىم يلتفت التفاته عىر كامله]
بدأت المسألة تتبين بجلاء سديد، يا زميلى العزيز.. إنك، لقاء آلاف من الفرنكات معدودة هى باقية فى ذمتى دينًا لك علىّ، قد تنازلت لى عن عيادة زبائنها يستهوون ساريك هذه تمام السبه [يربت على السياره بحنو] إذا قدرت قيمة هذه السيارة بتسعة عسر فرنكًا فإنها لن تكون غاليه، وإذا قدرتها بخمسة وعسرين فرنكًا فإنها تباع بأكثر من ثمنها [يتأملها بنظره هواه السيارات] وإذا كنت أحب أن أظل سمحًا فى معاملاتى فإنى أعرض عليك ثلاثين فرنكًا ثمنًا لها.

الدكتور : ثلاثين فرنكًا لهذه السيارة؟ إننى لا أفرط فيها ولو بستة آلاف.

كنوك : [وقد ظهرت عليه دلائل الأسف] كنت أتوقع ذلك، [يتأمل السياره الرثه من جديد] إذن لن أستطيع شراء سيارتك.

الدكتور : سأبيعها، ولكن على الأقل لو أنت عرضت على ثمنًا معقولا..

كنوك : يا للأسف! كنت أريد أن أحولها إلى صندوق [يعود] أما فيما يتعلق بعيادتك فإننى أتنازل عنها

دون ندم عليها إن كاس الصففة لم تتم بعد.

الدكور : اسمح لى أن أقول لك يا زميلى العزيز إنك ضحية أوهام كاذبة.

كنوك : بل الأقرب إلى عقلى أننى ضحيتك أنت، وليس من عادتى التأوه والتفجع، وإذا ضحك علىّ إنسان فلا ألومن إلا نفسى.

مدام باربالبد : ضحك عليك.. دافع عن كرامتك يا صديقى.. دافع!

الدكتور : كل ما أوده أن أجنب الدكتور كنوك الاسترسال فى الأوهام.

كنوك : أما أقساط الدين فعيبها أنها تدفع كل ثلاثة سهور فى بلد كل مريض فيه زبون سنوى، ينبغى لى أن أجد مخرجاً، على كل حال لا داعى لانزعاجكم، فإننى أكره أن أكون مديناً، وألم الدين أقل على العموم من ألم اللمباجو أو ألم «خراج» فى الإلية..

مدام بارباليد : ماذا؟ إذن أنت لا تريد أن تدفع لنا الأقساط فى مواعيدها المتفق عليها؟

كنوك : إننى متلهف على سداد الدين يا مدام... ولكن لا سلطان لى على التقويم، ولا أستطيع أن أزحزح عيد القديس جوزيف عن موعده.

مدام بارباليد : المديس مينسيل..

كنوك : المديس مينسيل..

الدكتور : ألبس عندك مال مدخر؟

كنوك : ولا سنتيم، فإنى أرتزق من عملى أو على الأصح أتلهف على أن أرتزق منه، وإنى أكره هذا الطابع الأسطورى فى زبائن العيادة التى أفلحتم فى بيعها إلىّ، خصوصاً وكنت أريد أن أعاملهم بوسائل حديثة جدًّا [تفكير بعد لحظه وكأنما يخاطب نفسه] فى الواقع أن المسكلة واحدة وإن استبدلت وجهاً بوجه.

الدكتور : إذن أنت يا زميلى العزيز ترتكب حماقة مزدوجة حين تسارع إلى اليأس قبل الأوان، وهذا شأن كل مستجد فى المهنة لم يتزود بعد بالتجارب، لا ريب أن مهنة الطب حفل خصب، ولكن خيراته لا تنبت عفواً ومن تلقاء ذاتها، إنها أحلام سبابك التى رسمت لك الصورة بألوان زاهية نوعاً ما.

كنوك : يا زميلى العزيز كلامك هذا محسو بالأخطاء، فأولا أنا أبلغ من العمر أربعين عامًا، فإن كانت لى أحلام فهى ليست أحلام السباب.

الدكتور : لبكن، ولكنك لم تمارس مهنة الطب فقط.

كنوك : وهذا خطأ آخر

الدكتور : ماذا؟ ألم تقل لى إنك لم تتخرج من كليه الطب إلا فى الصيف الماضى؟

كنوك : نعم وقدمت رسالة من اثنتين وثلاثين صفحه فولسكاب عنوانها: «علامات تمام الصحة، قناع كاذب مخادع»، ووضعت تحت العنوان كلمة مأثورة أسندتها إلى كلود برنار هى «الأصحاء هم مرضى غافلون».

الدكتور : إذن فنحن متممان يا زميلى العزيز..

كنوك : على أن رسالتى أصابت كبد الحقيقه.

الدكتور : لا.. على أنك لا تزال فى أول السلم.

كنوك : عفواً إن شهادتى حديثه ولكن لى خبرة بمهنة الطب ترجع إلى عشرين سنه مضت.

الدكتور : ماذا؟ هل كنت معاون صحة؟ هذه الوظيفه قد ألغيت منذ زمن طويل..

كنوك : كلا بل منتسباً للكلية.. حاملا لشهادة البكالوريا..

مدام باربالد : لم توجد قط بكالوريا فى الطب..

كنوك : بكالوريا فى الآداب يا سيدى..

الدكتور : كنت تمارس مهنه الطب إذن بدون شهاده وفى الخفاء؟

كنوك : كلا بل نهاراً جهاراً، لا فى بلد فى أقاصى الريف بعيد عن العمران، بل فى منطقه مساحتها سبعه آلاف كيلومتر تقريباً..

الدكتور : هذا كلام غير مفهوم.

كنوك : بالعكس هى مسألة فى غاية البساطة، فمنذ عشرين سنة مضت تخليت مضطراً عن دراسة الآداب واشتغلت بائعاً فى قسم «الكرافتات» فى متجر كبير بمرسيليا، ثم فقدت عملى وأخذت أتسكع فى الميناء، وقرأت إعلاناً عن سفينة حمولتها ١٧٠٠ طن مسافرة إلى الهند تطلب مسرفاً صحيًّا ولا تشترط أن يكون حاصلا على لقب دكتور، فماذا تفعل لو كنت مكانى؟

الدكتور : لا أفعل شيئاً بطبيعة الحال..

كنوك : أفهم هذا منك فأنت لا تعشق مهنة الطب، أما أنا فقد تقدمت، وإذ كنت أمقت المواقف المريبة فقد أعلنتهم منذ دخولى قائلا: «أيها السادة! كنت أستطيع أن أزعم لكم أننى دكتور، ولكنى فى الواقع لست دكتوراً، بل أصرح لكم بما هو أدهى، إننى لا أعرف فى أى موضوع سأكتب رسالتى». فكانت إجابتهم

أنهم لا يتمسكون بلقب دكتور، وأن موضوع رسالتى لا يهمهم فى شىء، فرددت على الفور: «مع الاعتراف بأننى لست دكتوراً، إلا أننى أود لأسباب تتعلق بالكرامة وحسن النظام أن يطلق على فى السفينه لقب دكتور». فقالوا إن هذه مسأله طبيعيه، ومع ذلك لبثت مدى ربع ساعة أشرح لهم الحجج التى زحزحتنى عن التمسك بالصدق والأمانة وحملتنى على المطالبة بلقب لا حق لى فيه ولا يرضاه ضمير، وهكذا أطلت الحديث حتى لم يبق أمامهم سوى ثلاث دقائق للبت فى تحديد مرتبى..

الدكتور : ولكن أصحيح أنه لم يكن لديك أى إلمام بالطب؟

كنوك : افهمنى! إننى كنت منذ طفولتى أقرأ بشغف فى الصحف كل إعلان عن علاج طبى أو دواء، وإذا اشترى أبواى علبة حبوب أو زجاجة دواء سائل، نزعت الورقة الملفوفه عليها وقرأت شرحها لطريقة الاستعمال، فلما بلغت التاسعة من عمرى حتى كنت أحفظ عن ظهر قلب نصوصًا طويلة عن عوارض الإمساك، وأستطيع الآن أن أتلو عليك من الذاكره نص

خطاب بديع أرسلته الأرمله م.ع. من مدينه بورج عام ١٨٩٧ إلى المعمل الأمريكى الذى ينتج دواء ضد الإمساك اسمه «الأعساب السحرية الأكيدة المفعول». أتريد؟

الدكتور : لا تتعب نفسك إننى أصدقك..

كنوك : كان لهذه النصوص الفضل فى أنها جعلتنى منذ سن مبكرة آلف لغة الطب، ولكن فضلها الأكبر أنها كشفت لى من الطب عن حقيقة معناه وحقيقة أهدافه، هذه الحقائق التى تخفيها تعليم الطب فى الجامعة تحت زخرف من المصطلحات العلمية الجوفاء، وأستطيع أن أقول لك إننى حين بلغت الثامنة عشرة كنت قد نمت لى فطنة صادقة بالطب هى التى تعتمد عليها اليوم طريقتى فى العلاج..

الدكتور : لك طريقتك فى العلاج؟ يشوقنى أن أعرفها..

كنوك : إننى لا أقوم بدعاية، إذ النتائج وحدها هى التى تتكلم، وها أنت ذا اليوم تبيعنى عيادة هى باعترافك أنت، صفر فى صفر.

الدكتور : عفواً. صفر فى صفر؟

كنوك : عد بعد سنة فسترى ماذا سأكون قد فعلت بها، سيكون أمامك البرهان القاطع،

وإذ بجعلنى أنت أبدأ من الصفر فإنك
بضاعف عندى متعة التجربة.

حــان : سيدى.. سيدى! [يتجه إليه الدكتور بارباليد] أظن أنه بحسن أيضاً أن أفك «الكاربوراتير»..

الدكنور : أسرع.. أسرع [يعود] لما رأيت حديثنا قد طال، طلبت إلى السائق أن يباسر الآن تنظيف «الكاربوراتير» كما يفعل مرة كل سهر.

مدام بارباليد : ولكن كيف سترب وجهك فى هذه السفينة؟

كنوك : قضيت الليلتين السابقتين لإبحارى وأنا أفكر وأندبر، ثم أتاحت لى الخدمة ستة أسهر فى السفينة أن أتحقق من صحة فهمى لمهنة الطب ووجدت أن ما أفعله مطابق لما يحدث فى المستشفيات.

مدام باربالبد : أكان عليك أن تعنى بأناس كثيرين؟

كنوك : طاقم السفينة وسبعة من الركاب كلهم رفيقو الحال، فى مجموعهم خمسة وثلاثون نفراً.

مدام بارباليد : عدد لا يستهان به.

الدكتور : وهل حدثت وفيات؟

كنوك : ولا مرة واحده، فالوفاة ضد مبادئى، فأنا من أنصار تقليل الوفيات.

الدكتور : هذا سأننا جميعاً..!

كنوك : أنت أيضاً؟ ما كنت أظن ذلك، اعتمادى أن واجبنا فى كلمتين أن نعمل على استبقاء المريض وألا يصرفنا عن ذلك أى إغراء.

مدام بارباليد : فى قول الدكتور نصيب من الحق.

الدكتور : والمرضى؟ هل كان هناك مرضى كثيرون؟

كنوك : خمسه وثلاثون

الدكتور : يعنى كل فرد فى السفينة؟

كنوك : نعم كلهم جميعاً.

مدام بارباليد : وكيف كانت تسير السفينة إذن؟

كنوك : كان العمل بالتناوب.

[لحظه صمت]

الدكتور : اصدقنى الآن.. أحقاً أنت يا دكتور؟ فإنهم لا يسمحون هنا بمزاوله الطب إلا لمن نال الشهاده وستجر علينا المتاعب، فإذا لم تكن حقًّا دكتوراً فمن الخير أن تصارحنا بذلك فوراً..

كنوك : أنا حقًّا دكتور فعلا وقانوناً، إذ أننى حين رأيت أن تجربتى قد أيدت طريقتى فى الطب لم يصبح لى من تلهف إلا على أن أرسى هذه الطريقه على دعائم ثابته وفى نطاق واسع، ولم أجهل أن

الحصول على السهاده إجراء سكلى لا مفر منه.

مدام بارباليد : ولكنك فلت لنا إنك حديث عهد بدراسه الطب..

كنوك : لم أستطع أن أنتظم فى دراسة الطب فى ذلك العهد الذى تحدثت عنه، فقد اضطررت من أجل كسب العيس أن أستغل بعض الوقت بتجارة الفول..

مدام بارباليد : ما هذا؟

كنوك : الفول السودانى.. [تبدو من مدام بارباليد حركة]، كلا يا سيدتى.. اطمئنى.. لم أكن بائعاً يجول بسله فى يده، لقد أسست مكتباً رئيسيًّا، يقصده باعة الفول السودانى لسراء حاجتهم، ولو بقيت فيه عسر سنوات لكنت أصبحت مليونيراً، ولكننى لم أجد فى هذا العمل أقل متعة، وكل مهنة فى الأعم إن طال بها العهد تبعث على الملل، وقد تبينت هذا بنفسى، أما المهنة الوحيدة التى لا تبعث الملل حقًّا هى الطب أو ربما السياسه أو البورصه، ولم أجرب هذه المهنة بعد..

مدام بارباليد : وفى نيتك أن تطبق طريقتك هنا؟

كنوك : إذا لم تكن هذه نيى لأطلف سافى للريح وهرس، وهيهات لك أن تلحمى بى، كنت أفضل بطبعه الحال أن أطبق طريفنى فى مدينة كبيره..

مدام باربالىد : [لروحها] ها أنت ذا راحل إلى مدىنه ليون فلماذا لا تلىمس بعض الإرسادات من الدكتور، فإنك لن نغرم سيئاً..

الدكتور : ولكن ىبدو أن الدكىور كنوك لا ىريد أن يفضى بطرىفته..

كنوك : [إلى الدكتور ىارباليد بعد برهه من التمكىر] أحب أن أخدمك، وها أنذا أفدم إلىك الاقىراح التالى: ىدلاً من أن أدفع لك دينى نقداً فى يوم علمه عند الله، فإنى أدفعه لك عيناً، بأن أبفىك معى ىمانيه أيام أدربك فيها على طرىفنى..

الدكتور : [ممتعصاً] أنت ىمزح يا صديقى العزيز، لعلك أنت الذى ستكتب لى بعد ىمانىة أىام ىسألنى المشورة والنصح.

كنوك : لا داعى لهذا التأجيل ففى حسابى أن أقتبس منك اليوم بعض إرسادات ىكون لى نافعة جدًّا.

الدكتور : أىا ىحت أمرك ىا زمىلى العزيز.

كنوك : هل فى مدينتكم قارع طبل؟

الدكتور : تعنى «المنادى العمومى» الذى يدق الطبل ويبلغ الناس ما عنده؟

كنوك : هو بعينه..

الدكتور : نعم لدينا هذا المنادى العمومى تكلفه البلدية بأن يذيع تعليماتها ولا يلجأ إليه من الأفراد إلا رجل ضاع منه كيس نقوده، أو صاحب متجر يصفى بضاعته القديمة من فخار أو صينى.

كنوك : فهمت! وكم يبلغ عدد سكان سان موريس؟

الدكتور : ثلاثة آلاف وخمسمائة على ما أظن، أما إذا ضممت إلى البلدة ضواحيها فالعدد ستة آلاف تقريباً..

كنوك : وعدد سكان المركز كله؟

الدكتور . ضعف هذا العدد على الأقل..

كنوك : وهل السكان فقراء؟

مدام بارباليد : لا بالعكس هم من ميسورى الحال بل من الأغنياء، فهناك ضياع واسعة، وكثير من الناس يعيشون على موارد أملاكهم.

الدكتور : وكلهم على درجة فظيعة من الشح والتقتير..

كنوك : وهناك مصانع؟

الدكتور : عدد فليل جدًّا..
كنوك : والحركة التجاريه؟
مدام بارباليد : ليست الدكاكين هى الى تنقصنا..
كنوك : وأصحابها.. هل تجارهم هى شغلهم الساغل؟
الدكتور : كلا فإن أغلبهم يستغل بالتجارة لزيادة دخلهم أو على الأخص لخلق وسيلة يسغلون بها أوفات فراغهم.
مدام بارباليد : والعادة أن الزوجة تحرس الدكان على حين يخرج الزوج يتسكع باحثاً عن تسلية..
الدكتور : أو العكس.
مدام بارباليد : أعترف بأن الزوج فى الغالب هو الذى يهجر الدكان، ذلك أولاً لأن النساء لا يعرفن أين يذهبن، على حين أن الرجال أمامهم أن يذهبوا إلى الصيد بالبندفية أو صيد السمك، وفى الشتاء يذهبون إلى المقهى.
كنوك : وهل النساء متمسكات بالتفوى؟
الدكتور : [باربالید یأخذ فی الضحك] هذا سؤال له أهميته عندى.
مدام بارباليد : كيرات منهن يذهبن للصلاة فى الكنيسة
كنوك : وهل للدين دور كبير فى مشاغلهن اليومية؟
مدام بارباليد : ياله من سؤال عجيب!

كنوك : بديع جدًّا [يفكر] أليس هناك رذائل جسيمه؟

الدكتور : ماذا تعنى؟

كنوك : أفيون.. كوكايين.. ندوات سمر وعربده، سذوذ جنسى.. تعصب سياسى..

الدكتور : إنك تخلط بين أسياء مباينه، إننى لم أسمع قط عن أفيون ولا ندوات سمر وعربده، أما السياسه فهى تسغل أهل البلد كغيرهم من الناس.

كنوك : ولكن هل فيهم من يهرى جلد أبويه لتغليب رأيه فى قانون الانتخاب مثلاً أو قانون ضريبة الإيراد؟

الدكتور : لم يصلوا إلى هذا الحد والحمد لله.

كنوك : والخيانه الزوجيه؟

الدكتور : أفندم؟

كنوك : هل تتفسى عندكم فوق الحد؟ وهل يسغل أمرها الناس شغلاً سديداً؟

الدكتور : أسئلتك عجيبه، فبلدنا مثل أى بلد آخر فيه رجال يخونهم زوجاتهم، ولكن عددهم معقول.

مدام باربااليد : أولاً إن الخيانه الزوجية غير مسوره إذ أن الناس يتفانون فى مراقبة بعضهم.

كنوك : أليس لديكما معلومات أخرى عن المذاهب

الدينية؟ عن الخرافات؟ عن الجمعات السريه؟

مدام بارباليد : بعض نساء بلدتنا الفارغات استغلن فى وقت من الأوقات بتحضير الأرواح.

كنوك : آه.. آه..

مدام باربالد : يجتمعن عند زوجة الموثق وتتكلم الروح بحركة من المنضدة.

كنوك : مصيبة.. هذا سيء كريه.

مدام باربالبد : ولكنهن فيما أظن قد أقلعن عن عادتهن

كنوك : آه أحسن.. وهل يوجد كذلك مشغلون بالسحر أو بالعلاج الروحانى؟ مثلاً فلاح تفوح منه رائحه الأغنام يزعم أنه يشفى الناس بالرقى والتعاويذ؟

[چان يشاهد بين الحين والآخر وهو يدير المانفيلا حتى تنبهر أنفاسه ثم يجفف عرقه]

الدكتور : ربما كان هذا موجوداً فيما مضى أما اليوم فلا..

كنوك : [تتجلى عليه مظاهر التحفز ويحك كفا بكف وهو يمشى] خلاصه القول أنه قد آن للعصر الطبى أن يشرق [يقترب من السياره] يا زميلى العزيز أمن القسوة على هذه السيارة أن نسألها بذل مجهود

جديد؟ إنني متلهف على بدء إقامتي في سان موريس.

مدام بارباليد : يا لها من مفاجئه!

كنوك : من فضلكم! فلنصل إلى بلدتكم المتربعة فوق قمة الطريق.

الدكتور : أي عامل قوى أصبح يجذبك إليها إذن؟

[كنوك يتمشى حيئة وذهاباً في صمت]

كنوك : يا زميلي العزيز.. يخيل إلى أنك قد فوت عليك في تلك البلدة فرصه بديعة، وإن اقتبست أسلوبك أقول: إنك حصدت الشوك بعرق الجبين بدلاً من الثمار الطيبه، كان ينبغي لك أن ترحل وأنت غارق في الذهب ومتربع على أكداس من الأوراق المالية، وأنت يا سيدتي تتحلين بعقد من اللؤلؤ من ثلاثة فروع، وكلا كما في سياره فخمه [يشير إلى السياره الرثة] لا في هذا التابوت التاريخي لأول حبو للنبوغ العصري.

مدام بارباليد : أتمزح يا دكتور؟

كنوك : لو كان مزاحاً لكان قاسياً يا سيدتي.

مدام بارباليد : إذن فهذا كلام فظيع.. هل سمعت يا ألبرت قوله؟

الدكتور : أدركت أن الدكور كنوك رجل يجرى وراء السراب وأنه فوق ذلك هوائى لا يفر له قرار.. تتلاعب به الأحاسس متباينة فى غاية الغلو، فهو يرى تارة أن العياده لا تساوى ولا صولدى، وتارة أنها من الذهب [يرفع كتفيه إلى أعلى].

مدام باربالید : وأنت أيضاً، إنك مستبد برأيك، ألم أقل لك أكثر من مرة إنك لو عرفت كيف تعالج الأمور لكانت لنا فى سان موريس حياة أفضل من التى عسناها.

الدكتور : طب.. طيب.. إننى سأعود بعد ثلاثة أسهر عند حلول القسط الأول من الدين، وسترى ماذا يكون حال الدكور كنوك..

كنوك : وهو كذلك.. ارجعوا بعد ثلاثه أسهر، وسنجد حينئذ فسحة من الوقت نتبادل فيها الحديث، أما الآن فإنى أناشدكم أن نرحل فوراً.

الدكتور : [إلى جان بتهيب] هل أنت مستعد؟

جـان : [بصوت خافت] أما عن نفسى فأنا مستعد ولكنى لا أظن أننا سنفلح هذه المرة بمجهودنا وحده أن نحرك السيارة.

الدكتور : [بنفس اللهجه] وكيف؟

حـــان : [يهز رأسه] يلزمنا رجال أسد هوة منا.

الدكور : وما فولك لو حاولنا دفعها؟

حـــان : [وهو عير واىو] ربما.

الدكتور : أنا واىو أننا نستطيع، فأمامنا عسرون متراً فى طريو منبسط، وسأتولى عجله الفياده، وتفوم أنت بدفع السيارة.

حـــان : فليكن.

الدكتور : ىم تعمد إلى الفعز إلى سلم السيارة فى اللحظة المناسبه.. فهمت؟.. [يعود الدكتور للآحرين] إذن هيا اركب يا زميلى العزيز، سأتولى، أنا فيادة السيارة إذ أن جان - لأنه عملاق - يريد من فبيل اللهو والتسلىة أن تطلع بنا السياره بغىر عون من «المانفيلا» طلعه ىمكن أن نسميها «أوتوماتيكيه» مع أن فوه العضلات تفوم بعمل السرارة الكهربائية، وكلا الفوتين فى الحق من نوع واحد تفريباً..

[چان يميل على مؤحره السيارة يدفعها]

الفصل الثانى

[فى المسكن الذى كان يقيم فيه الدكتور بارباليد من قبل، وقد أثثه الدكتور كنوك ترتيب مؤقت منصدة مقاعد. دولاب كتب شير لونج سوره . حوض للغسيل.، وعلى الجدران رسومات علم التشريح]

المشهد الأول

كنوك – المنادى العمومى

كنوك : [وهو جالس يجيل نظره فى الحجره ثم يكتب] أنت المنادى العمومى؟

المنادى : [وهو واقف] نعم يا سيدى..

كنوك : نادنى بلقب دكتور.. وتكون إجابتك: نعم يا دكتور أو لا يا دكتور..

المنادى : حاضر يا دكتور..

كنوك : وحين تتاح لك فرصة التحدث عنى مع الناس فلا يفوتك أبدًا أن تكون عبارتك هكذا: الدكتور قال.. الدكتور فعل.. هذه مسأله

تهمنى، وبأى عبارة كنتم تتحدثون عن الدكتور بارباليد إذًا جاءت سيرته؟

المنادى : كنا نقول: رجل طيب، ولكنه ليس حجة فى الطب..

كنوك : ليس هذا ما سألتك عنه، هل كنتم تقولون: الدكتور؟

المنادى : كلا.. كنا نقول مسيو بارباليد أو «أبو كسوره»!

كنوك : وما معنى «أبو كسورة»؟

المنادى : هذا وصف اشتهر به بين الناس ولكن لم أفهم قط سببه.

كنوك : وهل كان رأيكم فيه أنه ليس على درجة كبيرة من البراعة فى مهنته؟

المنادى : أما عن نفسى فاعتقادى أنه كان على درجة لا بأس بها من البراعه، وبقية الناس لا يعترفون.. بذلك.

كنوك :عجيبة!

المنادى : وكان إذا قصده إنسان لم يجد..

كنوك : لم يجد ماذا؟

المنادى : يجد عليه، ففى تسعين فى المائة من الحالات يصرف المريض بقوله: «عارض تافه»

وستكون يا صديقى من غد فى أتم صحة وعافية..

كنوك : حقًا؟

المنادى : أو لا يلقى باله إلى حديث زائره مرددًا «طيب.. طيب..» أو «نعم. نعم.» ثم ينطلق فى التحدث ساعة كاملة عن مسألة أخرى، كأن يتحدث مثلا عن سيارته..

كنوك : كأنما يقصده المريض ليسمع هذا الحديث؟

المنادى : لم يصف دواءً زهيد الثمن يكون أحيانًا شرب سائل معرِّق، وأنت مدرك أن الذى يدفع ثمانية فرنكات أجر استشارة الطبيب لا يرى له أن يصف له دواءً زهيد الثمن؟ إن أشد الناس غباءً ليس فى حاجة لاستشارة طبيب من أجل أن يصف له احتساء فنجان من البابونيك..

كنوك : يحزننى ما أسمعه منك ولكن استدعيتك لأستفسر منك عن شىء. هو الأجر الذى كنت تتقاضاه من الدكتور باربا ليد حين يكلفك بإذاعة إعلان له؟

المنادى : [ببراءة] إنه لم يكلفنى قط بإذاعة إعلان له..

كنوك : ماذا تقول؟ حتى ولا مرة واحدة فى بحر ثلاثين عامًا؟

المنادى : ولا إعلان واحد فى تلاثين سنة أقسم لك..

كنوك : لابد أنك نسيت؛ لا أستطيع أن أصدقك. وباختصار ما هى تعريفة الأجور؟ [ينهض من مقعده ممسكًا ورقة فى يده]

المنادى : ثلاثة فرنكات للجوله القصيرة.. وخمسة فرنكات للجوله الكبيره، وقد تحسب أن الأجر مرتفع، ولكنه عمل يتطلب جهدًا كبيرًا، وعلى كل حال فإنى أنصح سيدى...

كنوك : الدكتور..

المنادى : إنى أنصح الدكتور إذا هان عليه دفع زيادة فى الأجر فى حدود فرنكين اثنين أن يختار الجولة الكبيرة فهى أكثر بركة من الأخرى..

كنوك : ما هو الفرق بينهما؟

المنادى : فى الجولة الصغيره أنادى خمس مرات أمام البلدية وأمام مكتب البريد وأمام فندق المفتاح وفى الميدان الكبير، وعند مدخل السوق، أما فى الجولة الكبيره فإنى أقف وأنادى إحدى عشرة مرة سأعددها لك..

كنوك : فهمت! سأختار الجوله الكبيره، فهل أنت خال من الشغل هذا الصباح؟

المنادى : على الفور إن شئت..

كنوك : إليك إذن نص الإعلان [ساوله الورقه]

المنادى : [يتأمل النص] إننى أفك الخط، ولكنى أفضل أن تقرأه لى.. لأول مرة.

كنوك : [يقرأ النص بتمهل، والمنادى ينصت ممتحنًا إيقاع التلاوة طبقًا لأصول مهنته]: «الدكتور كنوك خليفة الدكتور بارباليد يهدى تحياته إلى أهالى مدينة ومركز سان موريس ويتشرف بإحاطتهم علمًا أنه استجابة لرغبته فى فعل الخير والقضاء على هذه الزيادة الموجبه للقلق فى تفسى مختلف الأمراض فى منطقة كانت معروفة بطيب مناخها...

المنادى : هذه حقيقة صارخة..

كنوك : ... فإنه يعلن أنه يتبرع بالكشف مجانًا على المرضى من أهل المركز كل يوم اثنين من الساعة التاسعة والنصف إلى الساعة الحادية عشرة والنصف.. أما إذا كان المريض ليس من أهل المركز فإن أجر الاستشارة سيظل كالمألوف: ثمانية فرنكات..».

المنادى : [يتناول الورقه باحترام] حقًا إنها فكرة جميلة.. فكرة ستكون موضع تقدير، فكرة فاعل خير [يغير من لهجته]، ولكنك تعلم أن اليوم هو يوم

الاثنين، فإذا أذعت هذا الإعلان هذا الصباح فلن تمضى خمس دقائق حتى يتقاطر الناس إليك..

كنوك : بهذه السرعه؟ أتظن ذلك؟

المنادى : لعلك لم تنتبه إلى أن يوم الاثنين هو يوم السوق ونصف أهل المركز مجتمعون به وسيبلغ الإعلان هذا الحشد الضخم ولن تعرف من شدة الزحام عليك رأسك من رجليك..

كنوك : سأبذل جهدى وأحسن التصرف...

المنادى : بقيت مسأله أخرى.. إن يوم السوق هو اليوم الذى يتيح لك أكبر فرصة للظفر بزبائن، وكان الدكتور بارباليد لا يجد زبونًا إلا فى هذا اليوم [ثم يقول له بألفه] فإذا كشفت عليهم مجانًا..

كنوك : لا يغيب عليك يا صديقى أن الذى أريده قبل كل شىء هو أن يألف الناس معالجة أبدانهم، وإلا لو كان المال مطمعى لكنت فتحت عيادتى فى باريس أو نيويورك..

المنادى : آه.. لقد وضعت أصبعك على العله، فإن الناس هنا لا يهتمون بالعلاج اهتمامًا كافيا..

كنوك : ألاحظ يا صديقى أن لك منطقًا حكيمًا.

المنادى : [وقد ملأه الزهو] أوه.. بالطبع إن لى منطقًا حكيمًا.

مع أننى لم أنل من التعليم ما كنت أستحقه، ولكن هناك كثيرًا من المتعلمن ينهزمون عند الجدل أمامى، وحضرة العمده – وإن كنت لا أريد ذكره – عنده عن ذلك الخبر اليقين، دعنى أقص عليك كيف حدث ذات يوم يا سيدى..

كنوك : يا دكتور.

المنادى : [بشوة] يا دكتور.. كيف حدث ذات يوم أن كان مأمور المركز بنفسه موجودًا فى البهو الكبير المخصص لعقد الزواج فى دار العمده، ويمكنك أن تستوثق من صحة الوقائع ممن حضر من كبار القوم مثل حضره نائب المأمور وإن كنت لا أريد ذكره أو مسيو ميكالون.. فإذا بى...

كنوك : فإذا بحضره المأمور قد أدرك من فوره أنه بإزاء رجل فذ، وأن منادى البلد هو مناد يحسن إقامة الحجة بما لا يحسنه أناس وإن كانوا لم يمتهنوا مهنته إلا إنهم يسمخون بأنوفهم ادعاءً بأن مقامهم يعلو فوق مقامه بكثير، ثم إن الذى انعقد لسانه وارتبك لم يكن إلا حضرة العمدة نفسه..

المنادى : [فى سعادة كبيرة] هذه هى الحقيقه بعينها، فلا حاجه إلى تغيير كلمه واحدة فيها، ويكاد المرء يقسم إنك موجودًا حينئذ بيننا، مختبئًا فى ركن صغير..

كنوك : إننى لم أكن موجودًا هناك يا صديقى..

المنادى : إذن لابد أن يكون قد روى لك القصه إنسان ذو مقام [تصدر من كنوك حركة تنم عن تحفظ دبلوماسى]، ولن تستطيع أن تنزع من رأسى أنك تحدثت فى هذا الموضوع مع حضرة المأمور..

كنوك : [يفنع بالابتسام ثم ينهض] إذن فإننى معتمد عليك يا صديقى اعتمادًا كبيرًا.. أليس كذلك؟

المنادى : [بعد تردد متوال] إننى لن أستطيع أن أملك المجىء للعيادة مبكرًا، وإذا ملكته فسيكون بعد فوات المواعيد، فهل لك أن تسدى إلىّ جميلا يدل على طيبه فلبك كسف علىَّ فورًا..؟

كنوك : هيه.. بنسرط أن تسرع فلدى موعد مع مسيو برنار المدرس، ومسيو موسكيه الصيدلى، وينبغى أن أقابلهما قبل مجىء الزبائن، مم تشكو؟

المنادى : انتظر حتى أفكر [يضحك] .. بعد أن أتناول

عسائى أحس أحيانًا بسىء يسببه الأكلان هنا [يضع يده على أسفل بطنه] شىء يسببه الدغدغة أو الخربسة..

كنوك : [وقد استغرق فى تفكير عميق] احترس، حذار من الخلط، ينبغى أن تقول لى هل هى دغدغة أم خربشة!

المنادى : إنها خربشه [يفكر] ولكنها مصحوبة بدغدغة بسيطة أيضًا..

كنوك : أرنى الموضع بالضبط.

المنادى : هنا..

كنوك : أين هنا هذه؟

المنادى : هنا.. أو قد يكون هنا.. أو قد يكون بين الموضعين..

كنوك : فى الوسط بين الاثنين تمامًا؟ أم يكون أبعد قليلا إلى اليسار؟ هنا حيث أضع أصبعى؟

المنادى : يجوز

كنوك : هل تسعر بألم حين أغرز أصبعى؟

المنادى : نعم.. يخيل إلى أننى أشعر بألم..

كنوك : آ... آه [يفكر وقد انعقد جبينه دلالة على التوجس] أفلا تسعر بهذا الأكلان يزداد عن المألوف إذا أكلت رأس عجل مطبوخ بالخل؟

المنادى : إننى لا آكل لحم الرأس أبدًا، ومع ذلك بخيل إلى أننى لو أكلته لزاد الأكلان عن المألوف

كنوك : آه.. آه هذا سيء مهم جدًّا آه.. آه.. كم عمرك ؟

المنادى : ما بين واحد وخمسن واثنين وخمسن.

كنوك : ولكن لأيهما عمرك أقرب ؟ لواحد وخمسين أم لاثنين وخمسين ؟

كنوك : [يرتبك قليلا] أقرب إلى الثانية والخمسين إذ سأتم السنة فى نوفمبر القادم..

كنوك : [يضع يده على كتفه] يا صديقى.. باشر عملك اليوم كعادتك وفى المساء ارقد فى فراشك مبكرًا وابق فيه غدًا لا تبرحه، وسأمر عليك لأفحصك ولن أتقاضى أجرًا منك أنت، ولكن لا تنقل هذا الخبر لإنسان، إنه إكرام منى لك..

المنادى : إنك طيب جدًّا يا دكتور، ولكن هل علتى خطيرة ؟

كنوك : إنها لم تصبح بعد خطيره جدًّا، ولكن قد آن أوان علاجها.. هل تدخن ؟

المنادى : [يخرج منديله] كلا.. بل أمضغ التبغ.

كنوك : ممنوع مضغ التبغ منعًا باتًّا.. هل تحب النبيذ ؟

المنادى : إننى أسربه باعتدال..

كنوك : ممنوع سرب النبيذ ولو قطره واحده.. هل أنت متزوج؟

المنادى : نعم يا دكتور [المنادى يمسح عرقه].

كنوك : ينبغى التزام منتهى التعمل فى هذه الناحية. فهمت؟

المنادى : هل أستطيع أنْ آكل؟

كنوك : اليوم ما دمت تؤدى عملك، فلك أن تشرب سيئًا من الحساء، وغدًا سنتدبر وضع قائمة صارمة بالممنوعات، وإلى ذلك الحين عليك أن تتبع ما قلته لك..

المنادى : [يمسح عرقه مره أخرى]. ألا يكون من الخير فى رأيك أن ألزم الفراش من فورى؟.. إننى حقًا لا أسعر بأن حالنى طبيعية..

كنوك : [يفتح الباب]. حذار من هذا، ففى حالتك هذه لايحسن الرقاد فى الفراس ما بين طلوع السمس وغروبها، فباسر عملك كأن لم يطرأ عليك سىء، انتظر بهدوء حتى يجىء المساء.

[المنادى يخرج والدكتور كنوك يشيعه].

المشهد الثانى

كنوك - المدرس برنار

كنوك : صباح الخير يا مسيو برنار، عسى ألا أكون قد أزعجتك كثيرًا بدعوتك للمجىء إلىّ هذه الساعه..

برنار : كلا.. كلا.. فقد ملكت دقائق قليله من وقتى إذ أن مساعدى يتولى مراقبه التلاميذ فى الفسحة.

كنوك : كنت أتوق إلى تبادل الحديث بيننا، فلدينا مهام كبيرة ينبغى أن نتشارك فى حملها، مهام عاجله، ولست أنا الذى يضحى بهذه المعاونة الجليله التى كنت تسديها إلى سلفى.

برنار : أية معاونة؟

كنوك : أحب أن أقول لك إننى لست بالرجل الذى يفرض آراءه على الغير أو يهدم من الأساس كل ما بناه الآخرون من قبل، فستكون أنت فى البدء مرشدى ودليلى..

برنار : لا أتبين مغزى كلامك..

كنوك : لنترك الآن كل شىء على ما هو عليه، ثم

نتناوله بالبحسن فيما بعد إن لزم الأمر [كنوك يجلس].

برنار : ولكن..

كنوك : فى مجال الإرشاد الصحى أو المحاضرات السعبيه أو الندوات الصغيره التى نعقدها معًا، ستكون طريقك هى طريقى ومواعيدك مواعيدى..

برنار : المسأله يا دكتور أننى أخسى ألا أكون قد أدركت الهدف الذى ترمى إليه بهذه التلميحات كلها..

كنوك : أود أن أقول بكل بساطة إننى راغب فى إبقاء الصلة بيننا كاملة لا تمس حتى خلال الفترة التى أنسغل فيها بترتيب عيادتى..

برنار : لابد أن فى كلامك معنى أنا عاجز عن فهمه..

كنوك : عجبًا.. ألم تكن على صلة دائمه بالدكتور بارباليد؟

برنار : كنت أقابله بين الحين والآخر فى مقصف فندق المفتاح أو كان يحدث أن نلعب البليارد معًا..

كنوك : هذا النوع من الصلات ليس هو موضوع كلامى..

برنار : لم تكن بيننا صلات سواها..

كنوك : عجبًا.. عجبًا.. كيف إذن كنتما تتقاسمان عبء الإرساد الصحى بىن الأهالى ونسر الدعاية الصحيه بين الأسر؟ ولغىر ذلك من الأمور؟ إننى أعنى جماع المهام التى لا يستطيع المدرس والطبيب النهوض بها إلا بعمل مسترك بينهما..

برنار : لم نتسارك أبدًا فى سىء..

كنوك : ماذا؟ هل فضل كل منكما أن يعمل مستقلا؟

برنار : المسألة أبسط من ذلك، فهذه أسباء لم نفكر فىها فط لا أنا ولا هو، وهده هى أول مرة أسمع فيها منل هدا الكلام فى سان موريس.

[تبدو على كنوك كل علامات الدهشة الممزوجة بالأسف]

كنوك : آه.. هذه أنباء أؤكد لك أننى لو لم أسمعها من فمك أنت لما صدقتها أبدًا..

[فتره صمت].

برنار : يؤسفنى ما سببته لك من خيبة الأمل.. ومن الإنصاف أن تسلم بأنه لم يكن فى وسعى أنا اقتراح وضع خطة مطابقه لرأيك حتى لو جالت فكرتها فى رأسى وحتى ولو لم يلتهم عملى فى المدرسة كل وقتى..

كنوك : بالطبع! كنت تنتظر دعوه فلم نجئك.

برنار : ما قصدنى إنسان لخدمة إلا بذلت جهدى فى أدائها.

كنوك : أعلم هذا يا مسيو برنار.. أعلم هذا [فترة صمت] ما أبأس أبناء هذا البلد نفضت منهم الأكف، فلا يبصرهم أحد بوسائل العلاج والوقايه.

برنار : هذا هو الواقع.

كنوك : أراهن أنهم يسربون الماء دون أن يسغل بالهم أن فى كل جرعة لهم بلايين البلايين من البكتريا..

برنار . آه . هذا محقق.

كنوك : ألديهم على الأقل علم بالميكروبات؟

برنار : أسك فى ذلك كثيرًا.. أن بعض الناس هنا يعلمون هذه الكلمة ولكنهم يتصورون أنها اسم لبعض أنواع الذباب..

كنوك : [وهو ينهض] هذا فظيع.. صدقنى يا عزيزى مسيو برنار إننا لن نستطيع فى ثمانيه أيام أن نصلح أنا وأنت آثار سنين عديدة من.. من عدم المبالاة ولكن ينبغى لنا مع ذلك أن نعمل شيئًا..

برنار : لا مانع عندى، إنما أحسى ألا أنفعك كثيرًا.

كنوك : يا مسيو برنار.. سبق لشخص بك جد خبير أن كشف لى عن عيب جسيم فى طبعك وهو التواضع فما يجهل إنسان غيرك أنك هنا صاحب رأى مطاع بفضل سمو مكانتك الأدبيه ونفوذك الشخصى، وأرجو أن تغفر لى مجابهتك بهذه الحقيقة، فما يتاح لعمل جدى نافع أن يتم هنا إلا بفضلك.

برنار : أنت مبالغ يا دكتور.

كنوك : إذن اتفقنا، أستطيع وحدى أن أعالج المرضى، ولكن المرض ذاته من الذى يعيننى على محاربته مطاردته، منذا الذى يبصر إخواننا المساكين هنا بالخطر الذى يهدد أبدانهم فى كل لحظة، ومنذا الذى يعلمهم، أنه لا ينبغى تأجيل طلب الطبيب إلى حين طلوع الروح؟

برنار : لا أخالف رأيك فيهم، إنهم فى غاية الإهمال..

كنوك : [بحماس يتزايد شيئًا فشيئًا] لنبدأ من البداية، لدى هنا نص محاضرات عديده مكتوبه بلغة بسيطة، وملحق بها بيانات مستوفاة وصور على زجاج وفانوس سحرى، فتتولى أنت بخبرتك تنظيم الانتفاع بهذا كله وكخطوة أولى إليك بنص كامل لمحاضرة لذيذة عن التيفويد تتحدث

عن تسترها تحت علامات خادعه لا ينتبه لها المريض وعن مصادرها التى تفوق الحصر كالماء والخبز واللبن والمحار والسلطة والخضروات والتراب وتنفس المريض.. إلخ.. إلخ.. وكيف أنها تكمن الأسابيع والسهور دون أن تفضحها علامة وكيف أنها تحدث فجأة عللا مميته وتجد وراءها مضاعفات خطيره، وهذا النص مصحوب بمناظر جميلة، صوره للباسلاص فى حجم ضخم جدًا وصورة مماثلة من براز المريض، ولغدد ملتهبة، ومصارين مثقوبة، ليست صورًا بالأبيض والأسود، بل هى صور ملونة كما تروم بالوردى والكستنائى والأصفر والأبيض المخضر..

[كنوك يقعد]

برنار : [وقد بدت عليه علامات الانتباس] المسأله أننى رجل سريع التأثر وإذا أغرقت نفسى فى هذه اللجه فلن أذوق النوم..

كنوك : هذا هو الواجب بعينه، أريد أن أقول إن صدمة الصحوة المباغتة هى التى ينبغى لنا أن تزلزل بها أحساء السامعين، أما أنت يا مسيو برنار فستتعود عليها، فدعهم هم يأرفون لها

[يميل عليه] فخطئتهم أنهم بنامون فى أمان خادع لا يوقظهم منه إلا بعد فوات الوقت مرض ينزل عليهم كالصاعقه.

برنار : [تتمشى فى جسده رعده، يده على المكتب وبطرته متهربه]
إننى لا أمتع بصحه متينه وقد لقى أبواى عنتاً شديدًا فى السهر علىّ، واعلم أن الميكروبات التى نقدمها لنا على الألواح الزجاجية ما هى إلا صورة، ولكن ألا ترى..

كنوك : [كأنه لم يسمع شيئًا] أما هؤلاء الذين يسمعون المحاضرة الأولى فلا يتحولون عن برودهم فقد أعددت لهم محاضره ثانية بعنوان يبدو بريئًا هو: «حاملو الميكروبات» فيها براهين واضحه وضوح النهار مدعمة بأمثله عن حالات كانت موضع درس ومراقبة تبين أن الشخص قد يجوس خلال الناس، وجهه مشرق، ولسانه وردى، وطعامه مأكول بشهية بديعة، ومع ذلك فهو يخفى فى تلافيف جسده ملايين الملايين من الباسلاس فى أشد درجات النشاط بحيث يكفى ما يحمله منها للوبث مقاطعة بأكملها [ينهض] فاعتمادًا على العلم والعمل، أن أشبته فى أول قادم أن يكون حاملا

لمكروبات، وها أنت ذا مثلا لا شيء يؤكد لى أنك لست واحدًا منهم..

برنار : [ينهض] أنا يا دكتور؟!

كنوك : ما أشد عجبى لو استمع إنسان لهذه المحاضرة الثانية البسيطة وبقى بعدها رائق المزاج..

برنار : هل تظن أننى يا دكتور من حاملى الميكروبات؟

كنوك : ليس بالضرورة أنت، إننى كنت أضرب مثلا، ولكنى ها أنذا أسمع صوت المسيو موسكيه، فإلى اللقاء يا عزيزى المسيو برنار، وشكرًا على انضمامك إلىّ، هذا الانضمام الذى لم أكن أشك فيه قط..

المشهد الثالث

كنوك – الصيدلى موسكيه

كنوك : تفضل اجلس يا عزيزى المسيو موسكيه، لم يسعفنى الوقت أمس إلا أن ألقى نظره عاجلة على محتويات صيدليتك، ولكن لم أكن فى حاجة إلى مزيد لأتبين أنها صيدلية ممتازة فى

ترتيبها وفى النظام المحكم الذى يسودها، وفى أخذها بأحدث الأسالب حى فى أصغر الأسياء.

موسكيه : [فى ثياب متواضعه بل مهملة] يا دكتور أنت رجل مجامل جدًّا..

كنوك : هذه مسأله أنا حريص عليها أسد الحرص، فإنى أعتقد أن الطبيب الذى لا يتاح له الاعتماد على صيدلى من الدرجة الأولى، هو بمابه قائد حيس بمضى إلى المعركه بدون مدفعيه..

موسكيه : يسعدنى أن أراك تقدر أهمنه مهنتى..

كنوك : ويسعدنى أنا أيضًا أن أفول إن مؤسسة كمؤسستك لاشك أنها تلقى جزاءها وأنك تكسب فى السنة خمسة وعسرين ألفًا على الأقل..

موسكيه : من الأرباح؟ آه.. يا إلهى لو أننى كسبب ولو نصفها..

كنوك : يا عزيزى مسيو موسكيه، إنك الآن لسب أمام مندوب مصلحه الضرائب، إنك أمام صديق بل دعنى أفول إنك أمام زميل..

موسكيه : ستكون إهانة لك لا أرضاها لو عاملتك بحذر

مستريب، وإنما الذى قلته لك هو الحصفة بعينها مع الأسف [بعد فترة تريث] إننى أكافح كفاحًا سديدًا لئلا يقتصر مكسبى على عسره آلاف..

كنوك : ألا تدرك أنها فضيحة؟ [موسكيه يرفع كتفيه بحركه تدل على الحزن] فإن مبلغ خمسة وعشرين ألفًا كان فى تقديرى هو الحد الأدنى.. ولبس لك مع ذلك منافس..؟

موسكيه : ولا واحد إلا على بعد خمسة فراسخ..

كنوك : إذن ما السبب؟ هل لك أعداء؟

موسكيه : لا أعرف أن لى أعداء.

كنوك : [يخفض صوته] هل صحيفتك بيضاء لا تسودها هفوة يؤسف لها نتيجة سهو مثلا؟ خمسون جرامًا من صبغه الأفيون بدلا من زيت الخروع، وهذا سهو مبسور وقوعه؟

موسكيه : عملت عشرين سنة فلم تقع منى هفوة واحده.. صدقنى..

كنوك : إذن.. إذن. إننى أمقت أن أتقدم بفروض أخرى ولكن سلفى.. هل كان مقصراً فى واجبه؟

موسكيه : هذه مسألة تختلف فيها الرأى.

كنوك : مرة أخرى أقول لك يا عزيزى مسيو موسكيه

إن الكلام سيبقى بيننا نحن الاثنين سرًّا..

موسكيه : الدكتور بارباليد رجل ممتاز، وكان بيني وبينه أحسن صلة شخصية..

كنوك : ولكن «روشتاته» جمعاً لا تؤلف مجلداً ضخماً ؟

موسكيه : الحقيقة نطق بها لسانك أنت..

كنوك : إنني حين أتدبر الآن جماع المعلومات التي جاءتني عنه أشتاتاً أراني مدفوعاً إلى التساؤل عما إذا كان سلفي يؤمن بالطب..

موسكيه : لقد بذلت غاية جهدي بإخلاص في مبدأ الأمر فكنت إذا جاء الناس يشكون من أوجاع، ورأيت أن حالهم يدعو إلى شيء من القلق، أرسلت بهم إليه، ثم كأن سلامهم كان سلام وداع فلا أراهم يعودون إليّ أبداً..

كنوك : إن هذه الأخبار لها تأثير عليّ أشد مما كنت أود، إن لنا نحن الاثنين يا عزيزي مسيو موسكيه مهنتين من أحسن المهن عند الناس، أليس من العار إذن العمل على الحط بها قليلا قليلا عن قمة عالية من السلطان والثراء بلغتها بفضل جهود أسلافنا، تكاد الشفتان تنطقان بعبارة تخريب مقصود..

موسكيه : بلا جدال، وإذا تركنا مسائل المال جانباً فمن

الإخلال بالواجب ترك المهنة تنحدر إلى ماهو دون مستوى السباك والبهال، أؤكد لك يا دكتور أن زوجى لا تستطيع شراء القبعات والجوارب الحريرية الى تتباهى بها زوج السباك كل أيام الأسبوع لا يوم الأحد وحده..

كنوك : اسكت يا صديقى العزيز، فإننى أتوجع لكلامك فما هو إلا كأنى أسمع من يفول إن زوجة رئيس مجلس النواب قد انحدر بها الحال حتى أصبحت تغسل ملابس بائعة الخبز من أجل أن تحصل على حاجتها من الأرغفه.

موسكيه : لو كانت مدام موسكيه هنا لأخذها الطرب لسماع كلامك.

كنوك . فى منطقة مىل منطقة مركز سان موريس ينبغى لنا نحن الاىنىن ألا نستطيع رفع رأسينا من كره العمل..

موسكيه : هذا حق..

كنوك : إننى أعتبر من حيث المبدأ أن جميع أهالى المركز هم بحكم وجودهم وحده زبائن يعتمد عليهم.

موسكىه : جميع أهالى المركز؟ أنت تطلب الكثىر..

كنوك : أقول أهالى المركز..

موسكيه : الواقع أن كل واحد منهم لا بد قاصدنا فى يوم من الأيام فى مناسبه من المناسبات.

كنوك : زبون مناسبة؟ أبداً.. أبداً.. نريد زبائن منتظمين.. زبائن مخلصين..

موسكيه : ولكنْ ينبغى أولا أن يفترسهم المرض..

كنوك : يفترسهم المرض؟ هذا فهم عتيق انهزم أمام مقررات العلم الحديث، وما الصحة إلا كلمة لا ضير مطلقًا من حذفها من قاموسنا، أما عن نفسى فإنى لا أعرف إلا أناسًا مصابين بدرجات متفاوته، بأمراض تتكاثر عليهم بدرجات متفاوتة، وتشتد علتها بدرجات متفاوته، وبطبيعه الحال إذا مضيت تقول لهم إنهم يتمتعون بكامل الصحه فإن تصديقك عندهم هو منى القلب، ولكنك تخدعهم، والاعتذار الوحيد المعقول هو التعلل بكثرة العمل عند رفض قبول زبائن جدد..

موسكيه : هذه مبادىء جميله على كل حال.

كنوك : مبادىء تطابق كل المطابقة مبتكرات العصر الحديث، أمنحها فكرك يامسيو موسكيه

فستجدها وبقة الصله بمبدأ الأمه المسلحة النى هى عماد فوة الأمم.

موسكبه : أنب رجل فكر يا دكىور كنوك، ومهما فال أصحاب المذهب المادى، فإن الفكر هو الذى يفود العالم.

كنوك : [يهص] انصب إلىّ [الاثناں وافقاں وكىوك يتناول يد موسكيه] لعلى أكون رجلا مغرورًا لعل الزمن يخبئ لى خيبة أمل مريرة، ولكن بعد سنة فى منل يومنا هذا لافبل ولا بعد، إذا لم تكن قد كسبب دخلا صافياً فدره خمسة وعسرون ألفاً، وهو دخل من حفك أن تناله، وإذا لم تفز مدام موسكنه بما بتطلبه معامها من أىواب وفبعات وجوارب فلك أن تصب علىّ لعنانك وسأمنحك وجهى لتهوى على كل خد بصفعة..

موسكيه : با عزىزى الدكتور سأكون ناكرًا للجمىل إذا لم أفض فى سكرك، وسأكون وضيعًا إذا لم أعنك بكل قواى..

كنوك : حسن.. حسن. اعتمد أنب علىّ، كما أعتمد أنا عليك..

المشهد الرابع

كنوك والسيده ذات الثوب الأسود

[عمرها خمس وأربعون سنه، تنم هيئتها عن سمح أبناء الريف، وعن معاناتها لمرض الإمساك]

كنوك : آه.. ها هم الزبائن شرفوا [يرفع صوته يخاطب إنساناً من وراء الباب] إننا عشر؟! ينبغى إبلاغ القادمين الجدد، أننى بعد الساعة الحاديه عشره والنصف لن أستقبل مرضى غرضهم الكشف مجاناً، هل أنت ياسيدتى أول من قدم [تدخل السيده ذات الثوب الأسود ويقفل الباب] أنت من أهالى المركز؟

السيدة ذات الثوب الأسود: لا... إننى تابعة للبندر..

كنوك : من سان موريس ذاتها؟

السيدة : إننى أسكن فى المزرعة الكبيره الواقعة على طريق لوسير.

كنوك : والمزرعة هى ملكك؟

السيدة : نعم هى ملكنا أنا وزوجى..

كنوك : إذا كنتما تزرعانها لحسابكما، فلا شك أنكما غارفان فى العمل إلى الآذان..

السدة : وماذا تظن ياسيدى؟.. ثمانى عسرة بقره، وعجلان، وثوران، وحصان، وفرس، وست من الماعز، وضعفها من الخنازير، هذا علاوة على الدجاج والبط والحمام..

كنوك : عجباً.. أليس عندكم خادم؟

السدة : نعم بطبيعة الحال.. ثلاثة رجال وامرأة عدا عمال باليومية فى موسم الحصاد..

كنوك : فلبى معك، لا سك لم ىبق لك وقت للاعتناء بصحتك..

السيدة : نعم لا أجد الوقت..

كنوك : بالرغم من أنك مريضة؟

السيدة : لا يصدق الفول بأننى مريضه، وإنما أسعر بضعف..

كنوك : نعم أنت تفولىن إنه الضعف، [يقترب منها] أخرجى لسانك.. أرى أن سهيتك للطعام ضعيفة..

السيده : نعم.. هى كدلك..

كنوك : أنت تعانىن من الإمساك.

السده : نعم بقدر محسوس..

كنوك : [وهو يفحصها] اخفضى رأسك، تنفسى، اسعلى، ألم يحدث لك فى صباك أنك وقعت من على سلم ؟

السبدة : لا أذكر..

كنوك : [يعالج ظهرها بالجس والقرع عليه، ثم يضغط فجأة على كليتيها] ألم تشعرى هنا بألم وأنت تأوين إلى فراسك فى المساء؟

السبدة : نعم فى بعض الأحيان..

كنوك : [وهو ماض فى فحصها]حاولى التذكر، لابد أنه كان سلماً عاليًّا..

السيدة : جائز جدًّا..

كنوك : [بلهجة مؤكدة] إنه كان سلماً طوله ثلاثة أمتار ونصف مستندًا إلى الجدار، ووقعت منه على ظهرك، ومن حسن الحظ أن إليتك اليسرى هى التى أصيبت..

السيدة : أى نعم..

كنوك : هل سبق لك استشارة الدكتور بارباليد؟

السبدة : أبداً.

كنوك : لماذا؟

السبدة : لأنه كان لا يكشف على المرضى مجانًا..

[لحظة صمت]

كنوك : [يجعلها يجلس] هل تدركين ما بك؟

السدة : كلا.

كنوك : [يجلس أمامها] هذا أفضل، ولكن هل لك رغبة فى النفساء أم ليس لك رغبة؟

السدة : نعم لى رغبه فى السفاء..

كنوك : الأفضل إذن أن أنبهك فوراً إلى أن العلاج سيكون طويلا ونفقته كبيره..

السدة : آه.. يا إلهى.. ولم هذا؟

كنوك : لأنه لا يمكن فى خمس دقائق سفاء مرض عمره أربعون عاماً..

السدة : أربعون عاماً؟!

كنوك : نعم.. أى منذ أن وقعت من على السلم..

السيده : وكم سيكلفنى العلاج؟

كنوك : كم يبلغ ثمن العجل الآن؟

السدة : هذا يتوقف على السوق وعلى حجم العجل، ولكن لا يمكن سراء عجل يملأ العين بأقل من أربعمائة أو خمسمائة فرنك..

كنوك : وثمن الخنزير السمين؟

السده : يبلغ ثمن بعضها ألفاً..

كنوك : إذن سيكلفك العلاج عجلين وخنزيرين تقريباً..

السيدة : آه.. آه.. ثلاثة آلاف فرنك تقريباً؟ هذه نكبة يا إلهي!

كنوك : إذا كنت تفضلين الحج إلى مكان مقدس طلباً للشفاء فإني لا أمانع في ذلك..

السيدة : مثل هذا الحج يكلف كثيراً أيضاً، ثم يكون بلا جدوى في أغلب الأحيان.. [فترة صمت] ولكن هل بي شيء جسيم حتى يستدعي الأمر كل هذا العناء؟

كنوك : [وهو يبالغ في معاملتها بأدب ومجاملة] سأشرح لك الأمر على السبورة في دقيقة واحدة [يذهب إلى السبورة ويخط عليها رسماً تخطيطيًّا] هذا هو قطاع من نخاعك الشوكي وفي صورة إجمالية، أفاهمة أنت؟ تتبينين هنا مجمع أعصاب توركك، وهنا عمود كلارك.. هل أنت معي؟ حسناً. فحينما سقطت من على السلم تحرك توركك وكلاركك إلى اتجاه عكسي، [يرسم أسهمًا تبين الاتجاه] حركة بمقدار ١ : ١٠ من الملليمتر، ستقولين إن هذه مسافة هينة جدًّا.. طبعاً.. ولكنهما اتخذا وضعاً سيئاً، ثم عندك جذب مستمر يضغط على مجمع الأعصاب [يمسح أصابعه].

السبده : يا إلهى.. يا إلهى..

كنوك : لكن فى علمك أنك لن تموتى بين عشية وضحاها، فأمامك وقت..

السيدة : آه.. آه.. ما أسوأه من حظ أن سقطت من على هذا السلم.

كنوك : إنى أتساءل: أليس من الأفضل ترك الحالة على ما هى عليه، فإن المال كسبه عسير، أما عن سنى الشيخوخة فموفوره وإن كانت مباهجها قليلة..

السيدة : سأكون صفيقة وأسألك: هل تستطيع إذا عالجتنى بأيسر جهد أفلا أنال الشفاء بثمن أقل بشرط أن يكون العلاج بالطبع متقناً؟

كنوك : كل الذى أستطيع اقتراحه عليك هو أن تضعى نفسك تحت الملاحظه، ولن يكلفك هذا شيئاً تقريباً وبعد بضعة أيام ستتبينين بنفسك كيف يكون سير المرض ثم تصدرين قرارك..

السيدة : نعم هذا هو الرأى.

كنوك : حسن.. ستعودين إلى دارك.. هل جئت راكبة؟

السيده : كلا، وإنما سيراً على الأقدام..

كنوك : [وهو جالس على المكتب يكتب الروشته] لا مفر لك من العثور على عربة تعود بك، وبمجرد أوبتك

تأوين إلى فراشك فى حجرة لا يكون بها أحد غيرك بقدر الإمكان، وأغلقى النوافذ وأسدلى الستائر حتى لا يضايقك النور، وأمنعى أحداً من أن يكلمك. الأكل مدة أسبوع مقتصر على السوائل وحدها. تناولى كوباً من ماء فيشى كل ساعتين، وعند الضرورة نصف بسكويتة مرة فى الصباح ومرة فى المساء بعد غمسها فى قليل من اللبن ومع ذلك فإنى أفضل الاستغناء عن البسكويت، لا يتأتى لك القول بأننى وصفت لك علاجاً غاليا جدًّا، وسنرى بعد أسبوع كيف تكون حالتك، فإذا احتفظت بشجاعتك، وأمكنك استعادة قوتك وبشاشتك، فإن هذا يعنى أن المرض أقل خطراً مما يتصور، وسأكون أول من يطمئنك، أما إذا شعرت على العكس بضعف عام وثقل فى الرأس وخمول عند اليقظة، فلن يبقى محل للتردد وحينئذ نبدأ فى العلاج. هل اتفقنا؟

السيدة : [تتنهد] الرأى رأيك..

كنوك : [يشير إلى الروشته] كتبت لك على سبيل التذكر فى هذه الروشته كل التعليمات، وسأذهب لزيارتك قريباً [يسلم إليها الروشته ويشيعها وينادى لمس

وراء الباب يا مارييب ساعدى السيده على نزول درجات السلم وعلى عبورها على عربته] . [يلمح المشاهد وجوه نفر من الزبائن يستقبلون السيده وهى خارجه بخوف واحترام] .

المشهد الخامس

كنوك والسيدة ذات الثوب البنفسجى

[عمرها ستون سنه. كافه ما عليها من ثياب من لون بنفسجى، تتوكأ بكبرياء على عصا يألفها هواه تسلق الجبال]

السيدة ذات الثوب البنفسجى : [بلهجة فيها استعلاء] لابد أن يدهشك يا دكتور مجيئ إليك.

كنوك : نعم بعض الدهشة يا سيدتى..

السيدة : لك فى الواقع أن تعجب عجباً غير قليل من أن تأتى لاستشارة مجانيه سيده زوجها من أسرة بونس وأبوها من أسرة لامبوماس.

كنوك : أفضل أن أقول إن فى مجيئها تشريفاً لى..

السيدة : ربما ستقول إن هذه إحدى نتائج الفوضى السائدة هذه الأيام، فعلى حين نرى عدداً كبيراً من أوساط الناس وتجار الخنازير يتبخترون فى العربات الفاخرة ويحتسون الشمبانيا مع الممثلات، إذا بسيدة يجرى فى

عروقها دم أسرة لامبوماس، وتمتد سلالة أسرتها العريقة بلا انقطاع إلى القرن الثالث عشر، وكانت تملك في وقت ما نصف هذه البلاد وترتبط بصلات وثيقة مع كافة أسر النبلاء والأعيان في هذه المقاطعة، ينحدر بها الحال إلى حد أن تقف في الصف تنتظر دورها مع الفقراء والفقيرات من أهالي سان موريس، أعترف يا دكتور أن الحال فيما مضى كانت أحسن من ذلك.

كنوك : [وهو يجلسها] نعم مع الأسف يا سيدتي..

السيدة : لا أقول لك إن دخلي قد بقي كما كان من قبل أو أنني احتفظت بمنزل يعج بستة من الخدم وبإصطبل به أربعة خيول كما كانت تتطلب مكانة أسرتنا حتى موت عمي، بل إنني بعت في العام الماضي مزرعة ورثتها عن جدتي مساحتها مائة وستون هكتاراً هي مزرعة ميسُويل، وهذا الاسم في قول قسيسنا مشتق من كلمة يونانية وأخرى لاتينية تفيد معنى كراهية القطر، والسبب أنه لم يعثر قط على نبت واحد من هذا القطر في المزرعة كلها كما لو كان بين الأرض وبينه كراهية، والواقع

أني لم أصب منها بعد خصم الضرائب ونفقات التعمير إلا دخلا ضئيلا وبالأخص بعد وفاة زوجي فإن المزارعين عمدوا إلى استغلال الموقف وأخذوا يلاحقونني بطلب تخفيض الإيجار أو تأجيل دفعه، لقد ضقت ذرعاً، كفى.. كفى.. أفلا تعتقد إذن يا دكتور بعد استعراضي للموقف على مختلف جوانبه أنني كنت على حق في التلخص من هذه المزرعة؟

كنوك : [لم ينقطع عن الإنصات إليها بانتباه] هذا يا سيدتي هو اعتقادي وبالأخص إذا كنت تحبين نبات الفطر، وإذا كنت من ناحية أخرى قد أحسنت توظيف ثمن المزرعة..

السيده : أي.. لقد وضعت أصبعك على الجرح الدامي، فإني أسأل نفسي ليل نهار عما إذا كنت أحسنت توظيف نقودي، فإني أشك في ذلك كثيراً، فقد اتبعت نصيحة هذا الموثق الأحمق؛ وإن كان أطيب الرجال، ولكني أعتقد أنه أقل فطنة من المنضدة الصغيرة التي تستعين بها زوجته العزيزة كما تعلم في تحضير الأرواح، وقد اشتريت بالأخص أسهم شركات مناجم الفحم، فما رأيك يا دكتور في هذه الأسهم؟

كنوك : هى على العموم أوراق مالية لها قيمتها، وهى محببه بعض السىء للمضاربين لأن سعرها يتقلب بين ارتفاع غير معقول وهبوط لا تفسير له.

السيدة : آه.. يا إلهى.. إن جلدى يقسعر إذ يخيل إلى أننى استريتها فى ذروة ارتفاع أسعارها وقد وضعت فيها أكثر من خمسين ألف فرنك، وإنه لمن الحماقة لمن لا يملك ثروة طائله أن يوظف فى أسهم سركات مناجم الفحم مثل هذا المبلغ الذى دفعته.

كنوك : فى الواقع يخيل إلىّ أن مثل هذا التوظيف ينبغى ألا يستأثر بأكثر من واحد على عشرة من ثروه السخص كلها..

السيدة : آه واحد على عسره لا أكثر؟ فإذا كان التوظيف لا يزيد على هذه النسبه فأنت لا تصفه بالحماقة؟

كنوك : بالتأكيد لا..

السيدة : أنت تطمئننى يا دكتور، وقد كنت متلهفة على من يطمئننى، أنت لا تدرى أى هم ألقاه فى رعاية ما فى يدى من قرشين، وأقول لنفسى أحياناً: حبذا بهموم أخرى لتطرد هذا الهم

عنى، فإن الإنسان جبل يا دكتور على طبع يرى له، فمقدر عليه ألا يفلح فى إقصاءهم إلا بسرط أن يحل هم آخر محله، ولعلنا ننعم على الأقل بسىء من الراحة فى هذا التغيير والتبديل، فإنى أود أن أنقطع عن التفكير طول النهار فى المستأجرين والمزارعين والأسهم والأوراق المالية لأننى لا أستطيع فى العمر الذى بلغته أن أجرب المغامرات الغرامية. آه.. آه.. آه.. ولا أن أقوم برحله حول العالم، ولكنك تنتظر منى ولا ريب أن أفسر لك لماذا اتخذت مكانى فى الصف، أنتظر كشفاً مجانيًّا.

كنوك : مهما يكن السبب يا سيدتى فإنه بلاسك سبب وجيه.

السيدة : إليك إذن التفسير، أردت أن أضرب مثلا، فقد وجدت أنك استلهمت يا دكتور فكرة بديعة نبيلة ولكنى أعلم أهل بلدى، فقلت لنفسى هذا سىء لم يألفوه، فهم إذن لن يذهبوا، وسيكون الإعراض هو كل ما يجنيه هذا السيد جزاءً على كرمه، حينئذ قالت لى نفسى إنهم لو رأوا سيدة زوجها من أسرة بونس وأبوها من أسرة لامبوماس لا تتردد فى افتتاح الكشف المجانى،

فإنهم لن يخجلوا من أن يحذوا حذوها على مرأى من الناس، ذلك أن أقل تصرفاتى وحركاتى هى موضع المراقبة والتعليق، وهذا شىء طبيعى.

كنوك : إن هذا سعى محمود منك ياسيدتى وأشكرك عليه..

السيده : [تنهض وكأنها تؤذنه بأنها تنصرف] كان لى غاية السرور يا دكتور أننى تعرفت إليك وأننى ألزم دارى بعد الظهر كل يوم، ويأتى لزيارتى بعض الأصدقاء فنجتمع حول براد ساى من عهد لويس الخامس عشر ورثته عن أجدادى، فسيكون لك دائمًا فنجان معد لك ينتظرك..

كنوك : [ينحنى أمامها، على حين أنها تتقدم ثانية نحو الباب] أنت تعلم أننى حقيقة معذبة جدًّا جدًّا بسبب المستأجرين والأوراق الماليه، وقد ينقضى الليل كله دون أن أنام، ياله من إعياء فظيع.. أتعرف يادكتور حيلة تجلب النوم؟.

كنوك : تعانين الأرق منذ زمن طويل؟

السيدة : منذ زمن طويل جدًّا.. جدًّا..

كنوك : وهل تحدثت عنه إلى الدكتور باربالبد؟

السيدة : نعم.. مرارًا عديدة..

كنوك : وماذا قال لك؟

السدة : نصحنى أن أقرأ كل مساء ثلاث صفحات من القانون المدنى، إنها كانت دعابة منه، فإن الدكتور بارباليد لم ينظر إلى الأمر نظرة جديه.

كنوك : لعله كان مخطئًا لأن من الأرق حالات تنم عن خطر بليغ..

السيدة : حقًا..؟

كنوك : قد يكون سبب الأرق راجعًا إلى اضطراب أساسى فى سريان الدم فى عروق المخ وبالأخص إلى عله فى هذه العروق التى تسمى «خرطوم النرجيله» وقد تكون عروق مخك يا سيدتى على هذه الصورة..

السيدة : يا إلهى... خرطوم النرجيله؟ أيكون للتبغ يا دكتور دخل فى ذلك؟ إنى أستعمل أحيانًا السعوط..

كنوك : هذه مسألة ينبغى فحصها، وقد يأتى الأرق أيضًا من إصابة بالتهاب الأعصاب تؤثر على الماده السنجابية تأثيرًا عميقًا متواليا..

السيدة : يا لها من حالة فظيعة.. اشرحها لى يا دكتور..

كنوك : تصورى أخطبوطًا أو عنكبوتًا ضخمًا يلتهم مخك على مهل قرضًا وامتصاصًا وتمزيقًا..

السيدة : أوه [تتهاوى فى مقعد] من يسمع كلامك معذور إذا أغمى عليه من شدة الفزع. لاشك أن هذه هى حالتى فإنى أشعر بها بوضوح، أرجوك يا دكتور اقتلنى على الفور بحقنة واحدة، ولكنى أراجع نفسى وأقول: لا تتخل عنى يا دكتور فقد هويت إلى أعمق درجات الفزع... [صمت] لابد أنها علة لاشفاء لها أبدًا علة مميتة..

كنوك : كلا..

السيدة : هل هناك أمل فى الشفاء؟

كنوك : نعم.. على مدى الزمن..

السيدة : لا تخدعنى يا دكتور.. أريد أن عرف الحقيقة..

كنوك : المسألة كلها تتوقف على انتظام العلاج ومدته..

السيدة : علاج ماذا؟ أهذه الأشياء التى تشبه خرطوم النرجيلة أو العنكبوت؟ إذ أشعر بوضوح أنه العنكبوت..

كنوك : الشفاء ميسور من هذا وذاك، وما كنت لأجرؤ على أن أمد فى هذا الأمل لمريض من عامة الناس لايتيح له وقته ولا موارده أن يعالج نفسه بأحدث الوسائل العملية، أما بالنسبة إليك فالأمر مختلف..

السيده : [تنهض] سأكون بين يديك مبالا للطاعه خاضعه كالجرو الصغير، وسأتحمل كل علاج تقرره وبخاصه إذا لم يؤلمنى ألمًا سديدًا..

كنوك : لن تشعرين بأقل ألم إذ أن الأشعة هى التى سنلجأ إليها كوسيله للعلاج، والصعوبه الوحيدة هى أن يكون لك صبر على متابعة العلاج بأناة لمده سنتين أو ثلاث، وأن يكون بجانبك طبيب يلزم نفسه ألا ينقطع عن مراقبة تقدمك نحو الشفاء وأن يضبط زمن جلسات الأشعه ضبطًا دقيقًا وألا يتوانى عن زيارتك كل يوم تقريبًا..

السيده : آه.. أما عن نفسى فإن فضيله الصبر لا تنقصنى، ولكنك يا دكتور أنت الذى قد لا تريد أن تواظب على علاجى طوال المدة اللازمه لى..

كنوك : لاأريد.. لاأريد.. أنا لاأريد غير ذلك، المهم. أن أقدر على ذلك، هل تسكنين بعيدًا عن هنا؟

السيدة : أبدًا، بل على بعد خطوتين، فمنزلى أمام المبانى العمومى..

كنوك : سأحاول أن أخطف رجلى لأذهب إليك كل صباح فيما عدا يوم الأحد وفيما عدا يوم

الاننن بسبب مواعد عادنى.

السيدة : ألا يكون يومان متتالىان فتره انقطاع أطول مما ننبغى، وهكذا أبقى بدون علاج من السبت إلى النلاثاء؟

كنوك : سأترك لك نعلىمات تفصيلية دقيمه، ومع ذلك إذا وجدت فى متسع وقنى دقيقه فإنى أمر عليك بوم الأحد صباحًا أو يوم الاننن بعد الظهر..

السدة : الحمد لله.. الحمد لله.. [تنهض] وما الذى ينبغى لى أن أفعله فورًا؟

كنوك : عودى إلى دارك والزمى حجرة نومك، وسأذهب إلىك غدًا صباحًا، وأتولى فحصك فحصًا ساملا..

السدة : ألىس لى دواء أتناوله البوم؟

كنوك : هبه.. نعم [يكتب الروشته بسرعه] مرى على مسيو مو سكيه واسأله أن يعد لك فورًا هذه الروشته الصغيره الأولى..

المشهد السادس

كنوك – وفتيان من أهل الريف

كنوك : [ينادى لمن وراء الباب] مارييت.. يا مارييت، ما هذا الحشد الغفير [ينظر إلى ساعته] ألم تعلنى أن العيادة المجانية تنتهى عند الساعة الحادية عشرة والنصف؟

صوت مارييت : نعم أعلنتهم، ولكنهم يريدون البقاء..

كنوك : من هو صاحب الدور الأول؟ [يتقدم إليه الفتيان وهما يكتمان الضحكات ويتبادلان اللكمات بالكوعين والغمزات بالأعين ثم ينفجران فى ضحكة يكتمانها بوضع اليد على الفم ومن ورائهما يشاهد الأهالى وهم يجدون فى تصرفاتهما منظراً ظريفاً مسليًا، فتثور بينهم ضجة والدكتور كنوك يزعم أنه لا يرى شيئاً] من منكما صاحب الدور؟

الفتى الأول : [ينظر جاساً ويخفى ضحكة متهيبة] هئ.. هئ.. هئ.. [نحو الاثنين] هئ.. هئ.. هئ!

كنوك : ما أحسبكما متقدمين معاً؟

الفتى الأول : نعم.. هئ هئ! نعم.. نعم [صوت ضحك من وراء الباب].

كنوك : لا أسطيع قبولكما معاً، فلنقع اختياركما على واحد منكما، ثم تخيل إلىّ أننى لم أركما من قبل، فهناك أناس قدموا قبلكما..

الفتى الأول : لقد تخلوا لنا عن دورهم، لك أن تسألهم. هئ.. هئ.. هئ! [ضحكات مسموعة ومكتومة].

الفتى الثانى : [وقد تملك جرأته] نحن الاثنين متلازمان دائمًا.. نحن ثنائى لا ننفصل. هئ هئ هئ! [ضحكات تنبعث من الأهالى].

كنوك : [يضغط على شفتيه ويقول بلهجة فى غاية البرود] ادخلا [يقفل الباب ثم يقول للأول اخلع ثيابك، ويشير إلى الثانى. وأنت اجلس هنا] [الفتيان يتبادلان الإشارات والضحكات المكتومة بشيء من الافتعال].

الفتى الأول : [وقد خلع ملابسه إلا السروال والقميص] أينبغى أن أخلع بقية ثيابى وأصبح عاريا؟

كنوك : اخلع أيضاً قميصك [الفتى يلبس تحت القميص فانلة بغير أكمام] هذا يكفى [كنوك يقترب منه ويدور حوله يجس جسده ويدق عليه ويضع أذنه هنا وهناك ويجذب جلده ويقلب جفنه وشفتيه، ثم يتناول جهاز فحص الحلق ذا المرآة ويلبسه على رأسه متمهلا ثم يضيء فجأة فى وجه الفتى نوراً يعمى الأبصار ويسلطه إلى داخل حلقه وعلى عينيه، ولما تبين من الفتى استسلامه يشير كنوك له إلى المقعد الطويل]:

ارقد هنا.. هيا ضم ركبتيك [يجس البطن ويضع السماعة هنا وهناك] مد ذراعك.. [يفحص النبض ويقيس ضغط الدم] حسن.. ارتد ملابسك [لحظة صمت والفتى يرتدى ثيابه] هل أبوك حى؟

الفتى الأول : كلا.. إنه قد مات..

كنوك : موتاً مفاجئاً؟

الفتى الأول : نعم.

كنوك : هذا هو تقديرى.. لاسيما أنه لم يكن متقدمًا فى العمر.

الفتى الأول : كلا.. إنه وصل إلى التاسعة والأربعين.

كنوك : أعاش إلى هذا الحد؟ [صمت طويل لم يبق لدى الفتيين أقل رغبة للضحك، ثم يذهب كنوك ينقب فى ركن من الحجرة بين أشياء مستندة إلى قطع من الأثاث، ثم يستخرج منها لوحًا من الكرتون تبين بالصورة الأحشاء الداخلية عند الرجل السليم وعند الرجل السكير المدمن، ثم يقول للفتى الأول بلهجة مؤدبة] سأوضح لك كيف أصبحت أحشاؤك الداخلية الرئيسية: هاتان هما الكليتان عند الرجل السليم، وهذه هى صورة كليتك أنت [بين كل جملة وأخرى فترة تريث] هذا هو كبدك.. هذا هو قلبك.. ولكن القلب عندك

أشد عطباً مم تبينه الصورة [ثم يمضى كنوك بهدوء ليعيد اللوحات إلى مكانها].

الفتى الأول : [بتخاذل شديد] إذن ينبغى أن أنقطع عن شرب الخمر..

كنوك : هذا شأنك.. افعل ما تراه.

[لحظة صمت]

الفتى الأول : هل هناك دواء أتناوله؟

كنوك : لا فائدة فى ذلك أبداً [إلى الفتى الثانى]: جاء دورك الآن..

الفتى الأول : إن شئت يا حضرة الدكتور عدت للكشف أدفع أجره..

كنوك : لا فائدة من ذلك أبداً..

الفتى الثانى : [وهو منكمش متضائل] إننى يا حضرة الدكتور لا أشكو من أى مرض..

كنوك : وكيف تعرف ذلك؟

الفتى الثانى : [يتراجع وهو يرتعد] صحتى على ما يرام يا حضرة الدكتور.

كنوك : إذن لماذا جئت؟

الفتى الثانى : [دون أن تتغير حالته] لأصحب رفيقى..

كنوك : أليس هو بالرجل الرشيد يملك زمام نفسه فأتى وحده؟ هيا اخلع ملابسك.

الفتى الثاني : [يتجه للباب] كلا.. كلا ياحضرة الدكتور، ليس اليوم، سأعود ياحضرة الدكتور، [صمت].

كنوك : [يفتح الباب، تسمع ضجة الأهالي وهم يضحكون من سابق ويترك كنوك المقعد يمران فيخرجان وعلى وجهيهما علامات متباينة تنم عن الإعياء والهلع ثم يسمعان الزحام وقد هبط عليه فجأة صمت جنائزي].

الفصل الثالث

[الردهه الكبيره فى فندق المفتاح، بها كل علامات تحول فندق مدينه فى الريف إلى فندق مخصص للاستشفاء، لا يزال باقيًا على الجدران «نتائج تبين تاريخ اليوم» وعليها أسماء مهديها من شركات بيع الخمور، إلا أن العين تقع على مقابض وحوافى الأثاث مكسوه بالنيكل والجدران مطليه بدهان أبيض، ومناشف بيض معقمه]

المشهد الأول

مِدام ريمى – سبيون

مدام ريمى : هل وصلت العربة يا سبيون؟

سبيون : نعم يا سيدتى.

مدام ريمى : قيل إن الطريق سدته الثلوج..

سبيون : المسألة بسيطة لا تزيد التأخر عن ربع ساعه.

مدام ريمى : لمن هذا المتاع؟

سبيون : لسيده من ليفرون. جاءت للكشف عليها..

مدام ريمى : ولكننا حسبناها لا تصل إلا هذا المساء..

سبيون : هذا خطأ فإن السيده القادمة هذا المساء هى من سان مارسيلين.

مدام ريمى : وهذه الحقيبة؟

سيبيون : هى حقيبة «أبو كسورة»..

مدام ريمى : كيف؟ مسيو يارباليد هنا؟

سيبون : هو قادم خلفى بمسافة خمسين مترا..

مدام ريمى : ما هو غرضه من المجيء؟ لستعيد عبادته بالطبع..

سيبيون : ربما جاء يطلب الكسف عليه.

مدام ريمى : ولكن لم يبق عندنا من حجر خاليه إلا الحجرة رقم ٩ ورقم ١٤، وقد حجزت رقم ٩ للسدة القادمة من سان مارسيلين، وستكون الحجرة رقم ١٤ للسيدة القادمه من ليمرون، فلماذا لم تقل «لأبو كسورة» إنه لن يجد له حجرة خالية؟

سبيون : لأنى كنت أعلم أن الحجرة رقم ١٤ الخالية أصبحت محجوز للسدة القادمة من ليفرون.. وما كان لى بغير تعليمات أن أفاضل بينها وبين «أبو كسورة..».

مدام ريمى : هذا سيء يضايقنى جدًّا.

سبيون : دبرى أنت حلا للإشكال أما أنا فينبغى أن أنصرف لخدمة المرضى..

مدام ريمى : لا لزوم لذلك يا سيبيون انتظر مسيو باربالد

	واشرح له أن جميع الحجرات مشغولة، فإننى لا أستطيع أن أقول له ذلك بنفسى..
سيبيون	: آسف يا سيدى، أصبح وقتى لا يتسع إلا لارتداء معطفى فإن الدكتور كنوك على وشك الوصول وعلىّ أن أجمع البول من الحجرة رقم ٥ و٨ والبصاق من الحجرة رقم ٢ وأن أقيس حرارة شاغلى الحجرات رقم ١، ٣، ٤، ١٢، ١٧، ١٨ وبقيه الحجرات أيضًا، ولا أود أن يفتح حلقه علىّ..
مدام ريمى	: أفلا تحمل على الأقل متاع هذه السيدة إلى الدور الأعلى؟..
سيبيون	: والخادمه.. ماذا تفعل؟ هل «تلضم» اللؤلؤ؟.

[يخرج سيبيون من المسرح وتحدو مدام ريمى حذوه حين ترى بارباليد قادماً].

المشهد الثانى

باربالید وحده ثم تأتى إليه الخادم

باربالبد	: ألا يوجد أحد هنا؟ مدام ريمى! سيبيون! هذا شيء محير، ها هى حقيبتى وجدتها على الأقل.. سيبيون..

الخادمة : [تدخل وهى فى ثياب الممرضات] سيدى ماهو طلبك؟

باربالبد : أريد أن أرى صاحبة الفندق..

الخادمه : لماذا يا سيدى؟

الدكتور : لتعطينى حجره..

الخادمة : أنا لا خبر عندى، هل أنت من المرضى الدين طلبوا حجز حجرة لهم!..

الدكنور : إننى لسب من بين المرضى يا آنسه.. إننى طبيب!..

الخادمة : آه.. جئت تعمل مساعداً للدكور؟ الوافع أنه فى حاجه إلى من يساعده..

الدكور : ولكن.. ألا تعرفيننى يا آنسة؟

الخادمة : كلا.. أبداً..

الدكنور : الدكنور باربالبد! كنت للانه أسهر خلب طبب سان موريس، لاسك أنك لسب من أهالى البلد..

الخادمة : كلا بل إننى من أهالى البلد، ولكن ما كنت أعلم أنه كان بها طبيب قبل الدكور كنوك [لحطه صمت] عن إذنك يا سدى، السبدة صاحبة الفندق سيأتى إلبك ولا ريب، فإنه أمامى أن أعقم أكباس الوسائد.

الدكور : هذا الفندق أصبح له وجه عجيب..

المشهد الثالث

باربالید – ثم مدام ریمی

مدام ریمی : [تسترق النظر] إنه لا يزال باقيا [ثم تقرر قرارها] صباح الخير يا مسيو باربالید، أرجو ألّا تكون قد أتيت تطلب سكناً عندنا.

الدكتور : أى نعم، كيف حالك يا مدام ریمی..

مدام ریمی : على أحسن حال.. ليست لدينا حجرة واحدة خالية..

الدكتور : هل اليوم هو يوم السوق؟

مدام ریمی : كلا.. إنه ليس يوم السوق..

الدكتور : وكل الحجرات عندك مشغولة فى يوم هو ليس يوم السوق؟ ولم كل هؤلاء، هؤلاء الناس إذن؟

مدام ریمی : مرضى..

الدكتور : مرضى؟

مدام ریمی : نعم أناس تحت العلاج..

الدكتور : ولماذا يقيمون عندك؟

مدام ریمی : لأن سان موريس ليس بها فندق غير هذا

الفندق، ومع ذلك فلا أحسبهم سيئى البخت أن نزلوا عندنا انتظاراً لإقامة المبنى الجديد، فإن علاجهم يتم هنا، ونحن نتبع بدقة كل التعليمات الطبية الحديثة..

الدكتور : ولكن من أين جاءوا؟

مدام ريمى : المرضى؟ إنهم منذ وقت يأتون من كل حدب وصوب ومن قبل كانوا أناساً غرباء على سفر.

الدكتور : لا أفهم شيئاً..

مدام ريمى : نعم مسافرون نزلوا سان موريس لعمل لهم وبلغ أسماعهم اسم الدكتور كنوك من أهالى البلد كلهم، فحدثوا أنفسهم أن ينتهزوا الفرصة ويطلبوا استشارته، وبالطبع كانوا يجهلون حالتهم من الوجهة الصحية وإن خامرهم شك، بأنهم ربما يعانون مرضاً من الأمراض، وإذا لم يكن حسن حظهم قد قادهم إلى سان موريس لكان نفر منهم قد أهيل عليه التراب اليوم..

الدكتور : ولماذا كانوا سيموتون؟

مدام ريمى : لأنهم فى غفلتهم عن حالتهم الصحية كانوا سيداومون على شرب الخمر والتهام الطعام وارتكاب مئات من الحماقات الأخرى.

الدكنور : وكل هؤلاء المسافرين بفوا هنا؟

مدام ريمى : نعم، فإنهم كانوا إذا عادوا من زيارة الدكتور كنوك سارعوا إلى الرفاد فى فراسهم وبدءوا العلاج، أما اليوم فالحال لم يعد كذلك، فإن النازلىن عندىا قد هاموا بالرحله إلينا خصىصاً، ومما يكربنى أن الحجراب لا تكفيهم وسنسبد مبنى آخر..

الدكتور : هذا سىء عجيب جدًّا..

مدام ريمى : [يعد تمكير] حقًّا إن ما تراه يبدو ولا ريب سيئاً عجيباً لك أنب، ولو كانت لك حياه منل حياه الدكتور كنوك لدعوب الله أن ينقذك..

الدكتور . هيه.. وكىف حياته هو إذن؟

مدام ريمى . حياة رجل محكوم عليه بالأشغال الساقه، فما يكاد ينهض من فراشه حنى يجرى يؤدى زياراته، وفى الساعه العاسرة يأبى للفندق وستراه بعد خمس دفائق، ىم يثوب إلى عبادته فيستقبل المرضى، ىم يخرج من جديد يؤدى زياراته، من أول المركز إلى آخره، لا أنفى أن لديه سيارة: سيارة جديدة فخمة يقودها بسرعه كبيرة، ولكنى وانفة أنه ىمر عليه أحيان كثيرة تقتصر فيها وجبة الغـذاء على

«ساندويتش» واحد..

الدكتور : يحدث لى أيضاً فى اليوم أن أكتفى «بساندويتش»..

مدام ريمى : آه كان فى إمكانك هنا أن تنعم بحياة محتسمة هادئة [تميل لمداعبته] أتذكر لعبك «للبلياردو» فى مقصف الفندق؟

الدكتور : لا مفر من الاعتقاد أن الناس كانوا فى زمانى يتمتعون بصحة أحسن..

مدام ريمى : لا تقل هذا يا مسيو بارباليد، إن الناس هنا كانوا لا يبالون بعلاج أنفسهم، هذا هو الفرق، هناك ظن بأننا أهل الريف أناس أجلاف لم يتمدنوا، وأننا لا نبالى أقل مبالاة بسلامة الأبدان، وأننا ننتظر حتى تأذن ساعتنا فننفق كما ينفق الحيوان، وأن الدواء والعلاج والأجهزة الطبية وكل مبتكرات المدنية الحديثة هى جديرة بسكان المدن، هذا خطأ يا مسيو بارباليد، فإننا لا نقل فى تقدير أنفسنا عن بقية الناس، وإذا كان الواحد منا لا يحب أن يبذر نقوده، فإنه لا يتردد أن يدفع ثمن ما لا غنى عنه، أما أنت يا مسيو بارباليد فلا تتصور الفلاحين إلا كما كانوا فى الماضى

يتعاملون بالملم لا بالفرس ويفضلون فمد عين أو ساق على سراء دواء بيلانه فرنكاب، لمد تغيرب الأحوال والحمد لله .

باربالید : ليكن الأمر كذلك، فإذا كان الناس أصبحوا يضيقون ذرعاً بحسن صحتهم ويريدون التمتع بفخفخة عد أنفسهم من المرضى، فهم مخطئون إذا لم يحققوا غرضهم دون أن يبالوا بأى شيء آخر، ىم إن هدا كله مكسب للطبيب.

مدام ريمى : [وهى تحتد] على كل حال لن يسمح لك أحد أن تصف الدكتور كنوك بأنه رحل يجرى وراء مصلحته السخصيه، فإنه هو الذى بدأ لأول مرة العاده المجانيه الى لم نكن نعرفها هنا، أما عن ذهابه لزياره مريض، فإنه لا يطلب أجراً إلا ممن هو فادر على دفعه، ولو فعل غير ذلك لكان فعله مدعاه للأسف، ولكنه لا يقبل سيئا فط من الفمراء، إن الناس ساهده يفطع المركز بطوله ينفق عسره فرنكاب نمناً للبنزين تم يفف بسياريه الفخمه أمام كوخ عجوز ففير لا يمتلك حتى فطعة جبن من لبن الماعز لتعطيها إليه، ولا ينبغى كذلك التلميح بأنه يقنع الأصحاء بأنهم مرضى، فأنا أول من

أسهد على نفسى بأننى جعلته يكسف علىّ ربما
عسر مراب مند أن أصبح يأنى للفندق كل يوم
وفى كل مرة يكسف على بنفس الصبر والأناه
من الرأس إلى الفدم مستعيناً بكل أدواته
وأجهزبه وبكرس لى ربع ساعه على الأقل
وكان يعول لى فى كل مره إننى غىر مصابه
بمرض وأنه لا داعى للقلق، وما علىّ إلّا أن
أنعم بمأكلى ومسربى وحاولب جهدى أن أدفع
له أجراً ولو مبلغاً فلىلاً، فكان بأبى، وإنه يخص
مسو برنار المدرس بنفس المعاملهبعد أن
استحوذب عليه فكرة أنه من حاملى
المكروبات، واسودب الحياة فى عينيه، فمن
أجل بطمنه لم يتراجع الدكنور كنوك عن
تحليل برازه بلاب مراب ولكن ها هو
ذا مسو موسكيه فادم بعد أن أخذ فى حصور
الدكتور عينه من دم ساغل الحجرة رقم ١٥،
ويمكنك التحدب إليه [بعد فتره تفكير] بم اعطنى
على كل حال حصيبك وسأدبر لك مسكناً..

المشهد الرابع

باربالد – موسكيه

موسكيه : [أصبح يرتدى حله من آخر طراز]الدكتور غير موجود هنا؟ آه.. الدكتور باربالد؟ كأنني أرى شبحاً وأيم الحق، لقد رحلت عنا منذ أمد بعيد.

باربالد : بهذا القدر بدا رحيلي بعيداً؟ كلا.. فما رحلت إلا منذ ثلاثة أسهر.

موسكيه : هذا حق، ثلاثة أسهر، سيء مدهش [يقول بلهجه عطف] أنت مسرور في ليون؟

الدكتور : مسرور جدًّا..

موسكيه : آه.. الحمد لله.. لعلك وجدت بها عيادة لها زبائنها المخلصون.

الدكتور : هيه.. وزدتهم بنسبة الثلث، صحه مدام موسكيه طيبة؟

موسكيه : أحسن من الأول بكثير..

الدكتور : هل كانت مريضة؟

موسكيه : ألا تذكر هذا الصداع الذى كانت تسكو منه فى أكبر الأيام؟ لعلك لا تذكره لأنه لم يكن فى اعتبارك سيئاً مهمًّا، ولكن ما كاد الدكتور كنوك يفحصها حتى اكتسف أنها تعانى من نقص فى إفرازات المبايض ووصف لها علاجًا بالهرمونات كان مفعوله مدهشاً.

الدكتور : هل انقطع ألمها؟

موسكيه : لم يبق أثر لهذا الصداع القديم، أما ثقل الرأس الذى لا يزال ينتابها فغير ناتج إلا من الإجهاد وهو ظاهرة طبيعية، ذلك أننا أصبحنا مرهقين بالعمل وسأستعين بمساعد صيدلى، فهل تعرف واحداً يعتمد عليه توصينى به؟

الدكتور : كلا، ولكن سأجعل طلبك فى بالى..

موسكيه : آه، لقد انقضت تلك المعيسه الهادئه التى كنا نعيسها فى الماضى، وما قولك أننى حتى وأنا آوى إلى فراسى فى الساعه الحاديه عسره والنصف مساءً لا أكون قد أنجزت تحضير كل الروستاب؟

الدكتور : باختصار قد وقعت على منجم من الذهب..

موسكيه : أوه، من المؤكد أننى ضاعفت دخلى خمس

مرات، وحاسا لى أن أسكو من ذلك، ولكن لى أسبابًا تحملنى على الرضا لأنى يا عزيزى الدكتور باربالبد أحب مهننى وأحب أن أسعر أننى رجل مفند وكره العمل تسرنى أكبر من فراغ يسلمنى إلى النفكبر فى همومى، مسأله مزاج، ولكن ها هو دا الدكتور قادم..

المشهد الخامس

باربالبد – موسكبه – كنوك

كنوك : سلام علبكما، صباح الخبر يا دكتور باربالبد، كنت أفكر فبك، هل كانت رحلتك طيبه؟

الدكتور : طيبه جدًّا.

كنوك : هل جئت بسيارتك؟

الدكتور : كلا، بل بالقطار..

كنوك : حسن، جئت لقبض القسط.. ألبس كذلك؟

الدكتور : المسأله أننى جئت، ولا بأس أن أنتهز الفرصه..

موسكبه : أتركُكما يا سادة [إلى كنوك] سأصعد إلى الحجره رقم ١٥..

المشهد السادس

باربالند – كنوك

الدكور : لن تتهمنى الآن أننى ضحكت عليك..

كنوك : على الأقل كانت هذه نيتك يا زميلى العزيز..

الدكتور : أنت لا تنكر أننى تخليت لك عن عيادتى وأنها عياده تساوى الكثير..

كنوك : أوه.. كان فى مقدورك أن تبقى عليها، إذن لما ضايق أحدنا الآخر.. هل أنبأك مسيو موسكيه بالنتائج الأولى؟

الدكتور : نعم.. حدثونى عنها..

كنوك : [يبحث فى محفظه النقود] سأطلعك بصفه سرية بيننا على بعض الرسوم البيانية التى أعددتها، وستجد لها بسهولة علاقة بالحديث الذى دار بيننا منذ ثلاثة أسهر.. لنتكلم عن العيادة، أولا: هذا الخط البيانى يمثل عدد المترددين على العيادة أسبوعيًّا، ويبدأ الخط من نقطة تمثل هذا العدد أيامك، وكنت لا أعرف هذا العدد وقدرته بخمسة أشخاص.

باربالید : خمسة أشخاص فى الأسبوع؟ ليست مبالغه منك إذا قلت إنهم كانوا ضعف هذا العدد على الأقل يا زميلى العزيز.

كنوك : فليكن.. ها هى أرقامى أنا، وهى بطبيعه الحال لا تسمل الكسف المجانى يوم الاننن: منتصف أكتوبر: ٣٧، آخر أكتوبر: ٩٠ آخر نوفمبر ١٢٨، آخر ديسمبر: لم أجمع العدد بعد، ولكن الرقم سيزيد عن ١٥٠، وعلى كل حال فإننى سأعدل تضييق الوقت عن الاهتمام بنمو عدد الاستشارات ولن أعنى إلا بالمنتفعين بعلاج طويل، فإن الكسف فى العياده لا يستحوذ إلا على نصف اهتمامى، فهذا فن ساذج يشبه الصيد بالشبكه، أما العلاج الطويل فيسبه زرع صغار السمك فى مياه الصيد.

الدكتور : عفواً يا زميلى العزيز.. هل أرقامك دقيقه غاية الدقة؟

كنوك : نعم.. غاية الدقة..

الدكتور : معنى هذا أنه تأتَّى فى أسبوع واحد أن قبل ١٥٠ شخصاً من أهالى مركز سان موريس تكبد مسقه الانتقال من منازلهم للوقوف فى صف أمام باب العياده وفى يدهم أجر الكشف،

لم بؤت بهم بالقوة أو بأسر ضغط ما..

كنوك : لم نكن فى حاجه للاسنعانة لا بقوه البولس ولا بقوة الجبس..

الدكنور : سسعصى علىّ أن أجد لذلك نفسراً.

كنوك : لنمض فى متابعه الخط البيانى الذى عمل عدد المرضى تحت العلاج، أول أكتوبر: كانت الحاله كما تركتها لى: عدد المرضى الذين بداومون على العلاج فى منازلهم، العدد: صفر أليس كذلك؟ [يبدى الدكتور بارباليد حركه تنم عن تبرمه بعبر حماس بالموافقه] - آخر أكتوبر: العدد ٣٢، آخر نوفمبر: العدد ١٢١، آخر دبسمبر: سيتراوح العدد بين ٢٤٥، ٢٥٠..

الدكنور : يخيل إلىّ أنك تحسبنى ساذجاً..

كنوك : أما أنا فلا أجد أنها أرقام عاليه جدًّا، فلا تنس أنه بوجد بمركز سان موريس ٢٨٥٣ منزلا، من قاطنيها ١٥٠٢ أسرة يزيد دخل كل واحد منها على ١٢,٠٠٠ فرنك.

الدكنور · وما شأن دخل الأسر فى الأمر؟

كنوك : [يتجه إلى حوض الغسل] لا مجال أن تفرض عبء مرض مزمن على أسرة لا يبلغ دخلها اثنى عشر ألف فرنك، فهذا جور غشوم، أما عن

الأسر التى لها هذا الدخل، فكذلك لا مجال للتفكير فى تطبيق خطة واحده عليها، فجعلتها من أربع درجات، فالخطة المرسومه لأدنى الدرجات هى للأسر التى يتراوح دخلها بين ١٢,٠٠٠، ٢٠,٠٠٠، ولا تتضمن إلا زياده واحدة كل أسبوع وخمسين فرنكاً تقريباً فى كل شهر لثمن الأدويه، والدرجه العليا – درجه «اللوكس» – هى للأسر التى يعلو دخلها على ٥٠,٠٠٠ فرنك، فهى تتضمن أربع زيارات فى الأسبوع على الأقل، وثلاث مائه فرنك شهريًّا للمصاريف المختلفه: أشعه إكس، علاج بالراديو تدليك كهربائى.. تحليل.. إلخ.. إلخ.

الدكتور : ولكن كيف تعرف دخل زبائنك؟

كنوك : [يبدأ غسل يديه بعناية فائقة] بل أننى لا ألجأ لمأمور الضرائب وحسناً أفعل، فعلى حين أننى أحصيت ١٥٠٢ دخلا يزيد على ١٢,٠٠٠ فرنك، فإن عددها المقيد عند مأمور الضرائب لا يزيد على ١٧ فقط، وأكبر دخل مبين فى إقرار مقدم له لا يزيد على ٢٠,٠٠٠ فرنك، وحقيقة هذا الرقم عندى هى ١٢٠,٠٠٠

		فلا نطابق قط بين إحصائياتى وإحصائياتك، وماذا يهم مأمور الضرائب؟ لا تنس أنه موظف حكومة..
الدكتور	:	ولكن من أين ستفى معلوماتك؟
كنوك	:	[يبتسم] من مصادر عديدة، إنه عمل ليس بالهين شغلنى طوال شهر أكتوبر بأكمله، وأننى أصحح الأرقام باستمرار، انظر إلى هذه — حلوة.. أليس كذلك؟
الدكتور	:	كأنها خريطة للمركز، ولكن ما معنى هذه العلامات الحمر؟
كنوك	:	إنها خريطة التغلغل الطبى، فكل علامة حمراء تدل على مكان مريض غير منقطع، ولو اطلعت على هذه الخريطة قبل شهر واحد لكنت رأيت هنا بقعة ملونة بلون رمادى هى بقعة سابرير.
الدكتور	:	ماذا؟
كنوك	:	نعم هذا هو اسم القرية التى تقع وسط هذه البقعة، وهى التى وجهت إليها أول عنايتى فى الأسابيع الماضية، أما اليوم فإن البقعة لم تختف بعد، ولكنها قسمت أجزاء، أليس كذلك؟

ونظرتك لا تتبين هذه البقعه إلا بعد تدفىق
[فتره صمت]

الدكتور : حتى لو أردت أن أخفى عنك دهستى يا زميلى العزيز لما استطعت، ومحال لى أن أسك فى نتائجك، فقد سمعت بأبدًا لها من كل جانب، أس رجل مدهس، وقد ينكص غيرى من الأطباء عن أن يصارحك بمثل هذا الرأى وهم ببطنونه وإلا لما كانوا أهلا لحمل لقب دكتور، ولكن أتسمح لى أن أفصح وأوجه إلبك سؤالا واحدًا ؟

كنوك : تفضل..

الدكتور : إن ابتكرت خطه مثل خطتك وأصبحت فى قبضة يدى كما هى فى قبضة يدك وإن أصبح كل ما يبقى على بعد ذلك هو تطبيقها.

كنوك : نعم..

الدكمور : ألا يساورنى سىء من تقريع الضمير ؟ [صمت] إنى أنتظر إجابتك..

كنوك : يخيل إلىّ أن الجواب مرده إلبك أنت..

الدكتور : لاحظ أننى لا أصلح بسىء، إما أثرت مسأله بسيطة جدًا أو سهلا..

كنوك : سهلا او أفصحت عن غرضك بوضوح أكبر.

الدكتور : ستقول إننى رجل متشدد معقد، ولكن ألا تكون مصلحة المريض طبقًا لخطتك هى فى المحل الثانى بعد مصلحة الطبيب؟

كنوك : يا دكتور بارباليد، أنت تنسى أن هناك مصلحة أسمى من هاتين المصلحتين..

الدكتور : وما هى؟

كنوك : مصلحة الطب ذاته، فهى المصلحة الأولى التى أهتم بها [صمت، بارباليد مستغرق فى التفكير].

بارباليد : نعم.. نعم.. نعم.

[وابتداءً من تلك اللحظة إلى نهاية المسرحية تتحول إضاءة المسرح شيئًا فشيئًا إلى إضاءة العيادات والمستشفيات، ويغلب عليها كالعهد بها الأنوار الخضر والبنفسجية بدرجة تفوق أنوار دور بقية خلق الله].

كنوك : أنت سلمتنى مركزًا يسكنه عدة آلاف يقفون من الطب على الحياد لا قرار له، فمهمتى هى أن أدفعهم إلى اتخاذ القرار، أن أحملهم إلى أن يكون وجودهم فى الحياة وجودًا طبيًّا، فأجعلهم يلزمون الفراش وأنتظر ما ينجم عن هذا الرقاد من سفور مريض بالسل أو مرض بالاضطراب العصبى أو بتصلب الشرايين: إنسان مريض أيًّا كان، ولكن إنسانًا مريضًا

على كل حال، ولا سىء يضايقنى أكبر من هذا الذى لا هو طالع ولا نازل، أى الرجل الذى لا يسكو من مرض كما يفال.

الدكتور : ولكنك لا تستطيع أن نجعل المركز كله يرقد فى الفراش..

كنوك : [وهو يشف يديه] هذه مسأله عكن مناقستها، فإنى أعرف خمسة أفراد من أسره واحده مرضوا جميعًا ولزموا الفراش فى وفت واحد، ومع ذلك لم ترتبك حياتهم، واعىراضك هذا يذكرنى بهؤلاء الأساتذه فى علم الافتصاد الذين يزعمون أن الحرب الحديثة لا عكن أن تطول أكبر من ستة أسابيع، والحقيفة أننا جميعًا تنقصنا الشجاعه، ولا يجرؤ إنسان حتى ولا أنا على المضى إلى أفصى المدى فيجعل كل الأهالى يلزمون الفراس لانتظار سفور المرض فليكن، إنى أوافقك على أنه ينبغى أن يظل هناك أناس أصحاء ليعنوا على الأفل بالآخرين، أو لئؤلفوا فوه احتياطيه وراء جيش المرضى المسغولين بأمراضهم، ولكن الذى لا أحبه أن تتم الصحة عن التحدى فإن هذا كما ينبغى أن تعترف أنت سىء لا يطاق،

لذلك نحن نغمض العين على بعض الحالات، ونترك على وجوه بعض الناس قناع الصحه، أما إذا جاءوا فيما بعد يتبخترون أمامنا ويهزءون بنا، فإنى محق أن أغضب، وهذا ما حدث هنا لمسيو رافالنس..

الدكتور : آه هذا العملاق؟ هذا الذى يفاخر بأنه يستطيع حمل حمانه على ذراعيه الممدودتين؟

كنوك : نعم، إنه ظل يتحدانى ثلاثة أشهر ثم وقع فى يدى..

الدكتور : ماذا؟

كنوك : والآن راقد فى الفراش لأن جعجعته بدأت تضعف عند الأهالى ذهنهم الطبى.

الدكتور : ولكن تبقى بعد ذلك مشكلة عويصة..

كنوك : ما هى؟

الدكتور : أنت لا تفكر إلا فى مهنة الطب ولكن ماذا عسى أن تكون عليه حالة بقية المهن؟ ألا نخشى أن يؤدى تعميم تطبيق خطتك إلى تراخ بين فى مختلف أوجه النشاط الاجتماعى مع أن بعضها له قيمة؟

كنوك : ليس هذا من شأنى، فأنا لا أشتغل إلا بالطب..

الدكتور : صحيح أن المهندس وهو ينسىء سكك حديديه لا يسأل نفسه عما عساه يكون رأى طبيب القريه..

كنوك : لافض فوك [سحه إلى مؤخره المسرح ويقترب من النافده] تعال يا دكتور بارباليد، ألق نظره من هنا، أنت تعرف المسهد الذى يطالع من يطل من هذه النافده ولا سك أنه لم يفتك أن تتملى من هذا المنظر بين دوربين من أدوار لعب البلياردو الذى كنت مغرمًا به، فأمامك على بعد، ربوة أليجر التى ينتهى إليها حدود المركز، وعلى اليسار قريه مسكلا وتريبور؛ وفى هذه الناصيه، لو لم تكن مساكن سان موريس قد تضخمت كالورم، لكنا أبصرنا كل دساكر الوادى متتاليه واحده بعد أخرى. لا سك أنه لم يستأثر بنظرك إلا جمال المنظر الطبيعى الذى أنت به مسغوف، كنت تراه كصعيد ريف غليظ الطبع لا تكاد الحياة تدب فيه، وهأنذا اليوم أقدمه لك، وقد تغلغل الطب في أرجائه، وهبت النيران التحسبه لمهنتنا تفلمله وسرى فى جنباته، وفى أول يوم ركزت نفسى هنا – أى فى صبيسا يوم وصولى – كنت أبعد من أن

يتملكنى الزهو إذ سعرت أن وجودى هنا لن يؤبه له كسرًا، فستعف فى الأرض الساسعه نعرض عنى وعن أمالى بوفاحة. أما اليوم فإنى مطمئن مستريح لمكانى بها كما يطمئن العازف المحنك لآلته، وأمامك مائه وخمسون منزلًا قد لا تراها كلها بسبب البعد وستور الأسجار، إن بها مائتين وخمسين حجرة، فى كل واحده منها سخص يؤمن بالطب، أو بعبارة أخرى بها مائتان وخمسون فراشًا يتمدد فوق كل منها جسد يسهد بأن الحياة لها معنى هو بفضلى أنا معنى طبى، ويزداد المنظر بهاء بالليل حين تضاء الأنوار والفضل فى أغلب هذه الأنوار راجع إلىّ، أما غير المرضى فيرقدون فى الظلمات وقد أسقطت حسابهم، ولكن المرضى قد استبقوا نور مصباح أو سمعة. وكل ما بقى على هامس الطب فقد خلصنى الليل منه ومن مضايقته وتحديه. وينقلب المركز كله بالليل إلى فلك أنا خالقه الدائم وهأنذا لم أحدثك بعد عن نواقيس الكنائس، أعلم أن وظيفتها الأولى لهذا الخلق كله أصبحت أنها تذكرهم بمواعيد تناول الدواء، وفرعها هو نداء،

تعليمالى، تصور أنه بعد بضع لحظات ستدق الأجراس معلنة حلول الساعة العاشرة، والساعة العاشرة عند جميع مرضاى هو موعد قياس الحرارة للمرة الثانية من السرج، أى بعد بضع لحظات ستتخذ مائتان وخمسون ترمومترا أماكنها فى وقت واحد..

الدكتور : [وقد غلب عليه التأثر يمسك ذراع كنوك] يا زميلى العزيز لى اقتراح أريد أن أقدمه إليك..

كنوك : ما هو؟

الدكتور : إن رجلا مثلك لا يجد مكانه الجدير به فى مركز بالريف بل تلزمك مدينة كبيرة..

كنوك : سأفوز بها عاجلا أو آجلا..

الدكتور : ولكن حذار، أنت الآن فى ذروة قواك، لن تمضى بضع سنوات حتى تكون قد وهنت، هذه هى تجربتى فثق بها.

كنوك : إذن؟

الدكتور : إذن ينبغى لك ألا تنتظر..

كنوك : هل تعلم مكانًا كالذى تعنيه تدلنى عليه؟

االدكتور : مكانى أنا؟ أنا أعطيه لك، وما بعد ذلك برهان على إعجابى بك.

كنوك : نعم، وأنت ما هو مآلك؟

الدكتور : أنا؟ أنا سأقنع بالعمل من جديد فى سان موريس..

كنوك : نعم..

الدكتور : بل سأذهب إلى أبعد من ذلك.. فقد بقى عليك عدة آلاف من الفرنكات دبنا لى فى ذمتك سأتنازل عنها هدية منى إليك..

كنوك : نعم.. فى الحقيقة أنك لست غرًّا كما فد يظن بك..

الدكتور : وكيف؟

كنوك : أنت لا تحسن الإنتاج، ولكنك تجيد البيع والشراء، وهذه هى صفة التاجر..

الدكتور : أؤكد لك.

كنوك : بل إنك فى هذه المسألة بالذات تثبت أنك تجيد أيضًا فهم النفوس، فقد حسبت أن هيامى بالمال سينفضى لحظة تدفعه علىّ، وأن تطبيق خطتى فى التغلغل الطبى على حى واحد أو اثنين من أحياء لبون، كفيل أن ينسينى رسومى البيانية عن سان موربس، آه، نعم، ليس فى نيتى أن أبقى هنا حتى تركبنى الشيخوخة ولكن شتان بين هذا وبين أن أرتمى على أول عرض يقدم إلىّ..

المشهد السابع

كنوك - باربالد - موسكيه

[موسكيه يخترق الصاله متسللا ليخرج، يستوقفه كنوك]

كنوك : اقترب يا صديقى، أتعرف ماذا يفترح علىّ الدكتور باربايد؟ أن نبادل ببننا العيادتين فأذهب أنا إلى ليون ويعود هو إلى هنا.

موسكيه : هذه دعابه..

كنوك : أبدًا، بل هو عرض جدى جدًّا..

موسكبه : كأننى سقطت من شاهق، ورفضت العرض بطبيعة الحال..

الدكتور : ولماذا يرفضه الدكتور كنوك؟

موسكيه : [موجهًا الحديث إلى الدكتور باربايد] حين يكون البدل هو النزول عن بندقية ثمنها ألفان من الفرنكات نظير مسدس قديم فإن من عادة العقلاء غير المغفلين أن يرفضوا مثل هذا البدل، فكان فى إمكانك أن تقترح على الدكتور كنوك تبادل السيارات..

الدكتور : أرجو أن تثق بأنى أملك فى ليون عيادة من

الدرجة الأولى، فقد خلفت فيها الدكتور مارلو، وكانت له فيها سهرة مستفيضة..

موسكيه : هذا كلام كان يصح لو قيل منذ ثلاثة أسهر، ففى ثلاثة أسهر، يقطع السائر شوطاً فى الطريق هو للنازل أطول منه للصاعد [إلى كنوك]: ثم إن أهالى سان موريس يا عزيزى الدكتور لن يقبلوا أبدًا..

الدكتور : وما دخلهم فى هذه المسألة؟ نحن لن نسألهم رأيهم..

موسكيه : ولكنهم سيصارحونك به، ولا أزعم لك أنهم سيعمدون إلى إقامة المتاريس فى وجهك، فإنها ليست من عادة أهل هذا البلد، وشوارعهم غير مبلطة ولكن أهالى البلد يستطيعون تنسييعك إليها [يشاهد مدام ريمى] وعلى كل حال فستحكم أنت بنفسك..

[تدخل مدام ريمى تحمل صفًا من الأطباق]

المشهد الثامن

جمع من سبق ومدام ريمى

موسكبه : يا مدام ريمى إليك بخبر سار، إن الدكتور كنوك سيفارقنا، الدكتور بارباليد سيعود إلينا.

مدام ريمى : [تترك الأطباق تكاد تهوى من يدها، ولكنها تلحقها قبل السقوط إلى الأرض وتحصنها كرهرة على صدرها] آه.. كلا.. كلا... أقول لكم إن هذا لن يحدث أبداً [إلى كنوك] اللهم إلا إذا خطفك ليلا بطائرة، وإلا فإنى سأبلغ النبأ إلى أهل البلد ولن يتركوك ترحل، وما أسهل عليهم أن يخرقوا إطار سيارتك، أما فيما يتعلق بك أنت يا مسيو بارباليد فإن كان هذا هو الغرض الذى جئت من أجله فيؤسفنى أن أبلغك أننى لا أجد لك حجره خالية عندى، وبالرغم من أننا فى عز الشتاء فلا مفر لك من النوم فى العراء [تتجه إلى منضدة لتضع أطباقها عليها]

الدكتور : [وهو فى شدة التأثر] طيب.. طيب.. إنها فضيحة مخجلة أن يكون هذا هو شعور هؤلاء الناس

نحو رجل كرس لهم خمساً وعسرين سنه من حياته، ما دام لم يبق فى سان موريس محال إلا للدجالين فإنى أفضل كسب قوتى بشرف فى لبون، أكسبه بسرف وبوفرة أيضاً، وإذا كنت قد فكرت لحظة فى أن أسترجع عيادتى القديمه فلأن صحة زوجتى وأقولها بلا خفاء لم يوافقها هواء المدن الكبيره، يا دكتور كنوك دعنا نصفى الحساب فى أقرب وقت لأنى سأرحل هذا المساء..

كنوك : حاشا أن ترضى إهانتنا، إن مدام ريمى فى دهشتها لسماع خبر هو فى الحقيقة غير صحيح وبسبب ما لحقها من ذعر أن تسقط أطباقها، لم تستطع ضبط لسانها، إن كلامها لم يحسن التعبير عن فكرها، وها أنت ذا ترى بنفسك أن مدام ريمى بعد أن اطمأنت على سلامه أطباقها قد استعادت سماحتها وأصبحت عيناها لا تنطقان إلا بما تكنه لك هى وأهل سان موريس جميعاً من عرفان بالجميل لهذه الخدمة الصامتة التى كرست لها حياتك بينهم طوال خمسة وعشرين عاماً..

مدام ريمى : هذا أكيد، وعهدنا به دائماً أنه رجل طيب جدًّا،

وكان يؤدى واجبه بيننا كأى طبيب آخر لو كان مكانه طالما كنا نحن قادرين على أن نعبس فى غفلة عن مزايا الطب، ولم يكن فى ذلك ضير إلا حين عم الوباء، فلن تزعم لى أن طبيباً جديراً بهذا الاسم كانيترك هذا العدد الوفير من الناس يموت فى وباء الحمى الإسبانية.

الدكتور : طبيب جدير بهذا الاسم؟ أى كلام أصبحنا نسمعه؟ أتظنين يا مدام ريمى أن يقدر طبيب جدير بهذا الاسم على مقاومة وباء عالمى، سأنك فى هذا تقريباً سأن من يطلب إلى قوة غفر البلد مقاومة زلزال، فصبرًا يا مدام ريمى إلى الوباء القادم، لنرى إذا كان الدكتور كنوك سيكون أكثر نجاحاً منى..

مدام ريمى : الدكتور كنوك: استمع إلىّ يا مسيو بارباليد إنى لا أعمد إلى مجادلتك فى مسألة تتعلق بالسيارات لأنى لا أفهم فى السيارات سيئاً ولكنى بدأت أفهم ما هو المريض إذن أستطيع أن أقول إن أناساً نجد الضعفاء منهم لائذين بالفراس هم أقدر من غيرهم على أن يواجهوا بقدم ثابتة وباءك العالمى القادم، وكما قال

مسيو برنار منذ أيام فى محاضرته: المصيبة هى التعرض لمفاجأة تدهمنا كالرعد فى سماء صافية..

موسكيه : يا عزيزى الدكتور إنى أنصحك ألا تنثر هنا خلافات من هذا النوع. فإن مقام الطب والصيدلة قد توطد واستتب بيننا وساع إدراكه بين الناس، واسأل من شئت تجده خصمًا عنيداً لآرائك.

كنوك : ينبغى ألا تتوه فى جدل مذهبى. قد تختلف مدام ريمى والدكتور بارباليد فى الرأى ومع ذلك تظل بينهما رابطة طيبة [إلى مدام ريمى] ألديك حجرة للدكتور بارباليد؟

مدام ريمى : لا توجد حجرة. فكما تعلم لا يأتى لنا أن نجد مكانًا لكل المرضى، فإذا جاء مريض فلعلنى أنجح فى تدبير مكان وأفعل المستحيل فإن هذا من واجبى..

كنوك : ولكن إذا قلت لك إن الدكتور بارباليد ليس فى حالة تمكنه من السفر اليوم بعد الظهر، ولابد له من الوجهة الطبيه أن يستريح يوماً كاملا..

مدام ريمى : إذن الأمر يختلف، ولكن الدكتور بارباليد لم

يأت لطلب الكسف عليه..

كنوك : حتى ولو كان هذا غرضه، فإن واجب الكتمان في مهنتنا يقتضيني ألّا أصرح بدلك علنا..

الدكتور : ما الذى ترمى إليه؟ إننى سأرحل اليوم بعد الظهر وهذا كل ما فى الأمر..

كنوك : [يبطر إليه] يا زميلى العزيز، إننى جاد فى قولى لك كل الجد لا غنى لك عن أن تستريح لمده ٢٤ ساعة، إننى لا أنصحك بالسفر اليوم، وعند اللزوم سأمنعك من الرحيل..

مدام ريمى : حسن.. حسن يا دكتور، إننى كنت لا أعلم ذلك، وسنجد لمسيو بارباليد فراشًا فاطمئن، هل ينبغى قياس حرارته؟

كنوك : سنتحدث عن ذلك وسيكًا [تنسحب مدام ريمى].

موسكيه : أترككما برهة يا سادتى [إلى كنوك]: قد كسرت إبرة وسأذهب إلى الصيدلة لآخذ أخرى..

المشهد التاسع

كنوك – بارباليد

الدكتور : قل لى.. هل هو مزاح [صمت قصير] على كل حال إنى شاكر لك إذ ليس مما ترتاح إليه نفسى أن أستأنف السفر هذا المساء لمدة ثمانى ساعات [فترة صمت] فقد ولّى الشباب وأنا أعلم بحالى [صمت] إن طريقتك فى الاحتفاظ بهيئة الجد لمما يدعو للإعجاب، فمنذ قليل كانت هيئتك تنم عن مكاشفتك لى بهذه الحقيقة [ينهض] نعم فما نفعنى علمى، إنك تمزح، ولا بصرى بخفايا أساليب الطبيب مع مريضه، نعم كانت لك هيئة ونظرة وشعرت كأنك نفذت بهما تتفحص أعمق أحشائى، آه هذه مقدرة خارقة..

كنوك : وماذا أفعل؟ إن هذا يحدث لى رغماً منى بعض السيء، فما أكاد أجتمع بإنسان إلا وجدتنى لا أتمالك نفسى من أن تتحرك لتشخيص علته تشخيصاً مبدئيًّا، حتى لو كان عملى هذا لغوا

خالصاً وجهداً ضائعاً كله ولا مسوغ له.. [يسير إليه وكأنه يكاشفه بسر] حتى بلغ بى الحال أننى أصبحت منذ زمن أتحاشى النظر فى المرآه..

الدكتور : ولكن هذا التشخيص ما تعنى به؟ هل هو تشخيص عابث أم...؟

كنوك : ما معنى وصفه بأنه تشخيص عابث؟ لقد قلت لك إننى إذا طالعت وجه إنسان، فإن نظرتى ترمى رغماً عنى وبدون تفكير منى على علامات، قد تخفى على العين حالة الجلد والشعر وإنسان العين وسرعة التنفس وعلامات أخرى من هذا القبيل، وعندئذ أجد جهاز استخلاص التشخيص المستقر فى أعماقى يعمل من تلقاء ذاته، وينبغى لى أن أضبط نفسى وإ أصبح طبعى هذا سخيفاً..

الدكتور : ولكن.. المسألة.. اسمح لى.. إننى أصر بطريقة بلهاء قليلا، ولكن لى دوافعى.. حينما قلت لى إننى فى حاجة إلى راحة يوم كامل، هل كان قولك من قبيل المعابثة أم...؟ ومرة أخرى أقول إننى إذا كنت أصر على هذا السؤال فإن مسلكى هذا يرجع إلى هموم قد تكون تساورنى، فأنا لم يفتنى منذ زمن أن ألحظ أشياءً

فى نفسى، فإنى متلهف جدًّا ولو من الوجهة النظرية البحتة أن أعرف هل جاءت ملاحظاتى مطابقة لنتائج هذا التشخيص غير الإرادى الذى ذكرت أنه أصبح من طبعك..

كنوك : يا زميلى العزيز فلنؤجل هذا البحث الآن [قرع أجراس]الساعة تدق العاشرة، ينبغى لى أن أقوم بجولتى، وسنتناول طعام الغداء معاً إن أردت أن تبرهن لى على صداقتك أما عن حالتك الصحيه، وما ينبغى اتخاذه بشأنها فسنتحدث عنه بعد الظهر على مهل فى عيادتى..

[يبتعد كنوك – تنتهى الساعة من دق العاشره – بارباليد غارق فى التفكير وقد تهاوى على مقعد – يدخل سيبيون والخادمه ومدام ريمى، يحملون أدوات طبيه مألوفة ويسيرون متتابعين فى صف واحد تغمرهم أضواء عالم الطب]

[ستار]

الطَّائِرُ الأَزْرَق

أُحْدُوثة مِنْ عَالَمِ السِّحْر

فى ستة فصول

تأليف : موريس ميترلينك

مقدمة

موريس ميترلنك.. والمسرح الرمزى
١٨٦٢ - ١٩٤٩

بقلم: عبدالرحمن صدقى

موريس ميترلنك - البلجيكى موطناً، الفلامنكى محتداً ونسباً، الفرنسى مقاماً وقلماً وأدباً - شاعر من أبدع السعراء فى معانيه وبيانه، وحكيم من أكبر الحكماء فى زمانه، وهو غزير الإنتاج متنوعه، نجمع مؤلفاته بىن ما يستولى على عفول الخاصة من المفكرين، وما يؤىر فى فلوب السواد من جمهور القارئىن.

وتأييداً لهذه الصفة المميزة النى أوردناها فى مستهل هذه التقدمة، نجد لزاماً علينا إيراد النسواهد، وتكفينا منها هنا لضيق المفام الإسارة إلى هذين المىالىن من مؤلفاب ميترلنك، وهما من جهة الموضوع جِدّ مختلفىن.

الأول مبحث فى التاريخ الطبيعى، وهو كتابه عن «حياة النحل» الذى ترجم إلى جميع اللغات وتكرر طبعه مئات المرات،

والكتاب صغير فى حجمه، ولكنه لا حدّ لسحره، سواء عند المتخصصين من العلماء، أو من ليس لهم فى هذا الخصوص ادعاء. والعجيب فى أمره أنه حوى بين دفتيه من صميم حياة النحل أكثر مما تضمنته كتب البحث العلمي، من غير أن يحمل مثلها طابع البحث العلمى. ولا خفاء فى أن السر فى ذلك أن صاحب الكتاب حكيم وشاعر، وقد صاحب النحل زهاء نصف قرن من الزمان لأنه من هواة تربيته، فهو قد اعتمد فى كتابه على طول المشاهدة والدرس، ولكنه فوق ذلك كان فى خلوصه إلى الحقائق يتلقاها بقلب العاشق، ويتعمقها بعقل الحكيم، ويرويها بلسان الشاعر. فلا غرو أن يسحر القراء كافة بما يقوله كأنه نفث ساحر. وهو فى ذلك ما تعدّى قول الحقيقة وإنما أفاض عليها من حماسته وشاعريته، وعمق فهمه وسعة أفقه وصدق تشبيهاته، ما جعل الحقيقة تبدو كالخيال عجيبة بديعة.

أما المثال الآخر فهو – كما سنرى – أبعد ما يكون عن البحث فى التاريخ الطبيعى، لأنه مسرحية من بدائع الفن الرمزى، وهى بعينها التى بين أيدينا: مسرحية «الطائر الأزرق». وهذه المسرحية التى تعمّد المؤلف أن تكون على أسلوب قصص الجنيّات وهى المفروض أنها للأطفال، تتضمن خلاصة فلسفته.

ولما كانت هذه الفلسفة للشاعر والكاتب والمؤلف المسرحى «موريس ميترلنك»، هى ثمرة تجاريبه النفسية ومطالعاته وتأملاته

الفلسفية حتى كتابة هذه المسرحية عام ١٩٠٨ وقد تجاوز وقتئذ الخامسة والأربعين، فلا غنى عن لمحة خاطفة ولوكطرفة العين لمراجعة ما كان من أمره قبل أن يبلغ إلى هذه المرحلة من عمره.

كان الساب «موريس ميترلنك» فى نحو الخامسة والعشرين من عمره، حين أخرجت المطبعة بواكير مؤلفاته عام ١٨٨٩، وأولاها مجموعة أشعار بعنوان «الأكنان الدافئة Serres Chaudes» طبعت منها مائة وخمساً وخمسين نسخة إحدى دورالنشر فى باريس. وهذه الأكنان تضم رقائق من الأزهار السحرية لا تمت إلى واقع الطبيعة، بل هى نظائر لها يبلغ من لطفها وشفوفها أنها تبدو وكأنها أطياف فى المنام من نسج الأحلام، ومثل هذه الأشعار كثيراً ما تشغل الخاطر وتثير الشجون بما تنطوى عليه من الشعور الغامض والروح الحزين. وأمام هذا النزوع للخفاء والغموض، والهروب من الواقع المبتذل المحدود، مع غرابة التعبير من حيث التراكيب، والترديد بالذات لبعض الجمل أو المفردات، وتعمد الإيقاع الجديد، لا يمكن أن يخفى على القارئ تعرّف سمات ذلك الفريق من الشعراء الذى منه «جوستاف كاهن Gustave Kahn و«شارل موريس Charles Morice و«لافورج Jules Laforge» وغيرهم من شباب الفنانين المنتمين إلى مدرسة الشعر الجديد، مدرسة الرمزيين التى رفع لواءها «بودلير» و«مالارييه» و«رامبو» من متقدمى الأعلام المشهورين.

كذلك طبع الشاعر البلجبكى الساب بعد أشْهُر من طَبْع مجموعة أسعاره فى باريس، مسرحية بعنوان «الأميره مالبن» «Le Princesse Maleine»، وقد تولى مع صديق له طبعها فى وطنه بلجيكا بمطبعة تدار باليد قام هو بإدارة عجلتها فى حجرة مربعة صغيره فى مكان كالإسطبل ببلدته «غنت Ghent»، وكانت هذه الطبعة خاصة لا يكاد يتجاوز عددها الثلاثين نسخة. ولكنه لم يلبث بعدها أن طبعها فى المطبعة الصغيرة نفسها فى حدود المائة والخمس والخمسين نسخة وهى الحد الأقصى الذى لم يكن يتعداه شباب الكتاب فى هذه المدينه القديمه تظاهراً بالدلال وتحديا لقلة الإقبال. وكان هذا العدد المحدود يدخل فى عداده ما يرسل عادة لنقاد الصحف والمجلات.

وكان المؤلف الساب مقيماً فى بيته الريفى فى ناحية (أوستاكر Austacker) بالقرب من «غنت»، فاتفق – فى الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٨٩٥ وهو جالس إلى المائدة يتناول فطوره – أن جاءته جريدة الفيجارو الباريسية، فإذا صفحتها الأولى مخصصة كلها لمقال بقلم ناقد الجريدة المسرحى الكاتب المعروف «أوكتاف ميربو Octave Mirbeau»، استهله بما يلى:

(إنى لا أعرف شيئاً عن «موريس ميترلنك»، لا أعرف من أين هو، ولا كيف هو. لاأعرف إن كان شيخاً كبير السنّ أو فتى فى ربيع العمر، غنيًّا وافر المال أو فقيراً رقيق الحال، لا أعرف.

كل ما أعرف أنه ما من إنسان يجهله الناسُ أكبر من جهلهم إياه، كما أعرف فى الوقت نفسه أن هذا الإنسان نفسه أتى بآية رائعة من الآيات، آية ليست من قبيل هذا النوع الذى تعد له البطاقة مقدماً باسم المعجزة من قبل ظهورها، كتلك المعجزات التى يطالعنا بها كل آن أساتذتنا من السبان، فتتغنّى باسمهم وتلهج بذكرهم وتسبّح بحمدهم على كل نغم من الأنغام، وبكل لحن من الألحان تلك القيثارة الحديثة الضخمة، أو - بعبارة أصح - ذلك المزمارُ الصاخب الجبار: الصحافة. كلا، إنها معجزة من نوع آخر، آية رائعة خالصة خالدة، آية تكفى وحدها لتخليد اسم صاحبها، وتقديس ذكره، عند جميع المنهومين المتعطشين إلى ما هو رائع وعظيم،: آية كالتى حلم فى بعض الأحايين بتحقيقها الفنانون الشرفاء المعذبون فى لحظات الحماسة لفنهم، ولكنهم لم يحققوها إلى اليوم وأخيراً طلع علينا السيد «موريس ميترلنك» بعمل من الأعمال الأدبية هو أعظم ما عرفه هذا العصر أصالةً وعبقرية، عمل يجمع بين أبدع الغرابة وأعذب البساطة، حتى ليضارع بل أكاد أقول - إذا أسعفتنى الجرأة - إنه ليفوق فى روعة جماله أجمل ما فى سكسبير. هذا العمل الأدبى مسرحية اسمها «الأميرة مالين».

قرأ الشاب البلجيكى مؤلف مسرحية «الأميرة مالين» هذا المقال فى الصحيفة الفرنسية، فلم يكد يتمه حتى أحس انفجار شىء فى نفسه، انفجر سد من القلق كان لا محالة يضيق به صدره

حين يساوره فيكاد يعترض انطلاق طبعه، ويعوق دون انفساح مجراه، وتدفق المحتبس من فيضه إلى مداه، والاطمئنان إلى جدواه. إن ما قيل عنه فى صحف بلاده فى ذلك الحين قليل ولا يكاد عند حسن التقدير يعدو هذا القبيل: «ذاك البصيص الصغير الذى يتألق فى الأفق، لا يدرى أحدٌ بعدُ أهو بصيص مصباح صغير أو نجم بعيد». أكان هذا القول وأمثاله فى صحف بلاده من شأنه أن يبعث الثقة فى نفس كاتب مجدّد يريد أن يستقيم على طريقه ويطمئنّ إلى حاله؟ أين هذا من فورة الإعجاب فى مقال الناقد الفرنسى الذى لم يكن ليفوقه مقالٌ فى حماسة الاستقبال حتى لقد خيل إلى والد المؤلف فى دهسته من كل هذه المبالغه فى الاحتفاء أنها مقصودٌ بها السخرية والاستهزاء بولده. ولكن المؤلف فى واقع الأمر كان جديراً بالثناء، وإنما المبالغه وحدها هى التى كادت تفوت على القراء مدلولها وتفسد أثرها.

وفى اعتقادنا أنه على الرغم من ذهاب الناقد الفرنسى فى حماسته للمؤلف الشاب البلجيكى إلى حدّ المقارنة بينه وبين سكسبير أعظم شعراء العالم، وتفضيله عليه مع الفارق الذى لا يُحدّ بين الاثنين، فإننا نحمد على الأقل لذلك الناقد المتحمس أنه فى ذكره شكسبير فى معرض كلامه عن الباكورة الأولى لمسرح «ميترلنك»، قد أسلمنا طرفاً من الخيط الذى يؤدى إلى استكشاف جانب هام فى تكوين ميترلنك نفسه ونشأة مسرحه.

ولقد كان مولد «موريس ميترلنك» فى التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٨٦٢ فى مدينة «غنت Ghent» الواقعه فى ملتقى النهرين (ليس – و – إسكو) بإقليم الفلمنك Flandres^ وفيها كانت نسأته حى نجاوز الخامسه والعسرين، وهى مدينه قديمة من أجمع المدن لخصائص الإفليم، تتحدث جدرانها المسودة من قدمها بالماضى الحافل بالحياة، المزدحم بالذكريات، كما تُستمّ رائحه الموت والإنحلال من الرطوبة المنبعثه من ذلك العدد العديد من القنوات. ىم هى أعمر ما تكون بالأديرة والمصانع فى وقت معاً، فهى مدينه أهل الصناعة العاملين وأهل الله المتصوفه الزاهدين. فلا غرو أن يكون لهذا الإقليم بجوه المعتم القاتم وبيئته الحسية الصافيه، ما لابد منه من الأىر الذى يتفاوت بحسب الملابسات فى حساسه الأجيال المتعاقبة.

ولا بأس من أن نستسهد هنًا بما يعرفه الجميع عن حياة كبر من أشهر مساهير التاريخ من مواليد مدينة «غنت» نفسها، وهو الإمبراطور سارلكان الدى اجتمع له فى العالمين القديم والجديد عظمه الملك الواسع الذى لا تغرب عنه السمس، وجبروت الحاكم المطلق الذى لا معفب عليه، ومظاهر السلطان الذى ليس كمىله سلطان، فنزل فى عام ١٥٥٦ عن هذا جميعه إينارًا لحياة النسك فى دير «يوسب Yuste» غربى أسبانيا، وفى هذا الدير طلب فبل وفاته أن تُقام سعائر جنازته أمام عينيه فى حياته.

هذا المزاج بعينه هو المزاج الغالب على إحساس «موريس

ميترلنك» وتفكيره، في سعره وفي مسرحه وسائر مصنفاته على تعدد مباحثه واختلاف موضوعاته. ولما كان مدار الحديث هنا على مسرحه، فلا مندوحه من قصر الكلام على مسرحياته. وحسبنا لكي نبلغ الغاية أن نراجع مسرحياته الأولى، الطوال منها والقصار، كلها أو بعضها، لنرى هل الحياة فيها ما برحت على تكرارها هي الحكاية نفسها، حكاية يحكيها أبله معتوه، كلها ضجيج وصخب، ولا طائل من ورائها غير العذاب والتعب، ثم يطوي الردى أبطالها دون أن يعرفوا سرها أو يجدوا معنى لها؟ وهؤلاء الأبطال الفنانون أتراهم أجيالاً بعد أجيال، حين يسلكون مرحلة الحياة قصيرة كانت أو طويلة يسلكونها أجمعون عمياناً كانوا أو مبصرين، كالساري الذي طال في الليل سراه يردد هذا القول أو ما في معناه، «أنا الإنسان التائه لا يدري أين هو ذاهب»؟

أجل إنها جميعاً نفس المأساة، مأساة القدر المتحكم في الحياة كلها، في سائر أمورها صغيرها وكبيرها، ليسلم الحياة - كل حياة - آخر الأمر إلى الموت الراصد منذ الصغر لها، المتربص بها، وهي أبداً شاعرة به وهو يحوم حولها، متوجسة منه، متجنبه له. وقد تحاول الحياة تناسي الموت والتغلغل عنه، ولكنه لاينساها ولايغفل عنها لحظة، حتى تحين الساعة فيخمد أنفاسها وينتزع روحها، سيان كانت على انفراد وحدها، أو بين أهلها وأحبائها أو وسط الألوف المؤلفة المحتاجة إليها المتعلقة بها.

فهذه «الأميرة مالين» - فى أولى مسرحيات «ميترلنك» - صبيه كالزهرة الجنبة فى رفتها وحسنها وبراءها، وهى وحدها بالليل فى حجرتها، ولكنها مسهدة فلقة، نحس أن خطراً تجهله يهددها، وفى الواقع كان هنالك فتله لا تعرفهم أئتمروا لسبب لاتعرفه على فتل الأميرة الصغيرة، أنهم على السلم السرى المؤدى إلى باب خفى فى جدار من جدران حجراتها. إنها تجهل كل شىء عن هذا الممر الخفى، وتجهل أمر الفتلة كل الجهل، ولكنها تعرف أنها الليلة هالكه، بحس أن الموت فريب منها. أهى تلك الخطوة البعيده التى خيل إليها أنها سمعتها؟ لكم سمعت مبلها كل ليله فى نواحى القصر. ولكنها فى هذه الليله رهيبةٌ مخيفةٌ مروعة كأنما تؤذن بالسر. إن هذا السر آت لا محالة. إنها لتسعر بوجود غير منظور، غبر منظور، ولكنه حقيقى إلى حد فظيع إنه يرعبها فيجمد الدم فى عروقها. ويطول موقف الأميرة على هذه الحال، فإذا بنا نعيس فى عالم الخوف معها، لا إسفاقاً عليها من القتلة المؤتمرين على قتلها، بل على أنفسنا من الأقدار، من الفوى المجهوله التى تنصرف بنا وتسوفنا كما ساءت، وإلى حيب ساءت دون إرادتنا ومن غير علمنا.

هذه المسرحبة «مالين» من الناحية الزمنية أولى مسرحيات «ميترلنك»، وقد كان تأليفه لها تحت سماء بلدته قبل النزوح إلى باريس، وهى - على ما فيها من التردد الطبيعى - بمثابة النموذج الأول لما سيأتى فى أعقابها من عمل مسرحى، فنحن واجدون

فيها ذلك الإطار من المناظر التى تخلع عليها المؤلف مسحة خيالية لا تخلو من الغرابة والغموض، بحيث يبدو المكان كأنه فى بلاد أسطورية مع شعورنا بحقيقته الواقعية. وهنا تطالعنا البحيرات هادئة ساكنة تكتنفها الغابات ذوات الأشجار العاليه الساهمة، وعلى مسافة منها القصور القديمة، دهاليزها وأسرابها لا آخر لها، وأقباؤها الضخام الثقيلة كأنها على النفس جاثمة، ومقاصيرها كثيرة الشقوق متآكلة من فرط الرطوبة، وحدائقها المهملة ملتفة الشجر كثيفة الورق مظلمة. والصروح المحصنة بأبهائها الفاخرة المتهدمة، العامرة الموحشة تعيد إلى الذاكرة ذكريات ما شهدته فى الأجيال المتعاقبة من ضروب التعذيب وفظائع الجرائم، مما أوقع الروع لا محالة فى نفوس ساكنيها صغارهم وكبارهم، فهم نهب الهواجس والمخاوف يشتركون فيها، على الرغم من قلة التفاهم بينهم للفارق الكبير بين أعمارهم.. وإلى هذا كثير من أمثاله، وجميعه مما استوحاه المؤلف من مشاهد بلدته القديمة، وما أفاده من خلال مطالعاته وزاد عليه من تخيلاته.

فى هذه المسرحية التى لم يفكر مسرح فى تمثيلها، تظهر محاكاة «ميترلنك» لشكسبير فى كثرة المناظر وتعدّدها فى كل فصل من فصولها، وفى ازدحامها بالشخصيات الملكية، وذلك المزاج بين العناصر الفاجعة والعناصر المضحكة، وفى الغراميات المتعارضة، وكل هذه التنبؤات والنُّذر قبل المقتلة الختامية.

ولكن هذه المحاكاة للوقائع تقف عند حد الظاهر، لأن «ميترلنك» فى عرضه سخوص المسرحية وأحداثها لا يقصد إلى واقعيتها، فقد كان غير مؤمن بالفن الواقعى، بل هو راسخ العقيدة بأن الواقعية فى عصره قد أخفقت، ويرجع إخفاقها إلى أنها اتجهت سطر صغار الحقائق - تلك الحقائق اليومية الغثة الهزيلة التى لا كنه لها، ولا كبير طائل وراءها - بدلاً من أن تحاول الاتصال بالحقيقه الكبرى، تلك الحقيقة الكامنة المستكنة وراء الأسياء كلها، أو بعبارة أخرى «تلك القوى الخفية»، وبأوجز لفظ «ذلك المجهول» فهو وحده الذى يعنى الفنان الرمزى بحيث لا يمل ذكره، ولا يستهويه غيره، ولا تشغله الظواهر عن أمره ومحاوله استكناه سره.

من أجل ذلك لا يكون من المستغرب أن ميترلنك - أو سكسبير البلجيكى على حد ما سماه «ميربو» فى مقاله الحماسى - لم يلبث أن أدرك أنه فى غير حاجة إلى أصحاب العروس ذوى الهامات المتوجة، ومن حولهم الأمراء والحاشية، وكل ما هنالك - فى مسرحية مالبن - من تلك العناصر الكثيرة المتنوعة، فضلاً عن ذلك التفنن فى ابتداع الموضوعات الفاجعة. نعم أدرك ميتر لنك أنه فى غير حاجة إلى جميع هذا، إذ أن أبسط الحوادث العادية فى الحياة اليومية يغنى عنه، وقد يكون أعمق أثراً منه بل أوفى بالغرض لبلوغ المؤلف ما يريده فى مسرحه الرمزى من إسعار الجمهور بما وراء الأسياء والأحداث من القوى الخفية

أو سلطان القدر، أو بالاختصار ما ينطوى تحت لفظ «المجهول».

وعلى هذا جرى المؤلف فى مسرحياته التالية، وهى قصار فى الغالب الأعم.

ونذكر من تلك المسرحيات القصار مسرحية «الدخيل» من فصل واحد ومن منظر واحد وهو غرفة مظلمة فى قصر قديم، حيث يجتمع أشخاص المسرحية وهم الجد الضرير، والأب والعم والبنات الثلاث، ولا يُضىء الغرفة غير مصباح واحد ضوءُه خافت، والكل فيها يتهامسون بصوت خافت كذلك، وهم جميعًا واجمون مسهدون. وفى غرفة مجاورة ترقد تلك التى يفكرون فيها وعنها يتهامسون، المريضة التى يتهدد الخطر حياتها، ومن أجلها كان اجتماع هؤلاء ومحاولتهم أن يطمئن بعضهم بعضاً، ومن هذا القبيل ما كان يدور من المقال بين العم والأب: «إن طلعتها تبدو منذ العصر على أحسن ما يرام، وهى تنام نومًا عميقًا الآن، فهل ترانا ننغص على أنفسنا أول ليلة طيبة أتاحها الحظ لنا. من رأيى أنه يحق لنا أن نستريح، بل أن نضحك هذا المساء ولا نخشى شيئًا».

ولكن الجد الضرير كان يستبد به القلق، فلم يكن ليهدّئ من روعه سىء. لم يكن يعنيه ما يقوله الآخرون. ذلك أنهم مبصرون، والواقعُ الذى يبصرونه يحول بينهم ورؤية الحق. أما هو فقد حجب العمى عن عينيه عالم الظواهر، فأصبح اتصاله بالعالم عن

طريق الحواس الباطنة. إنه الوحيد الذى كسف العمى عن بصيرته، فهو يرى قبل سواه كل سيء على حفيفنه. أنه يحس بالخطر يزداد، والأجل يدنو من المريضة سريع الخطوات... ومنذ هذه اللحظة تتركز المأساة كلها فى النسيخ العجوز، فى تباريح لوعته التى تنعكس فى ازدياد واستداد على طلعته، ويضاعف الأثر ما بشيع فى جو الغرفة من دواعى الفزع متوافداً من خارجها متصاعدًا من أرضها، فنمة عصفة من الريح نهب ىم تسكن، وشدو البلابل بنقطع ويسكت، ووقع خطوات خاطفه مرقت فى الحديقة، ولمحة من البستانى وهو يشحذ تحت جنح الليل منجلَه، وعسرات من التفاصيل لو سنحت متفرقة لما كان يؤبه لها، ولكن تكرارها منلاحقه تألف منه وعيد وتهديد بالخطر. عندئذ لم يستطع الجد الضرير إلا إظهار الفزع، حتى إذا جاءت لحظة أحس فيها الجد الضرير بين المجتمعبن بوجود لم بسعروا هم بوجوده، ندّت منه الصرخة المخنوقه. وفجأه ينفتح الباب ويغمر الغرفة فيض مباغت من ضياء. وتدخل ممرضة من الراهبات وترسم على صدرها إسارة الصليب التى يستدل منها أن المريض مات.

ومع هذه المسرحيه نسر المؤلف فى سنة ١٨٩٠ مسرحية أخرى مىلها عدد سخوصها اننا عسر، ستة رجال وست نساء وكلهم عميان، ومن هنا سميت «العميان». وهؤلاء الخلق العميان نراهم فى الظلام وحدهم فى غابه من غابات السمال تبدو عريقة فى القدم كأنها كانت هنا منذ الأزل، ومن فوفهم سماء غائرة النجوم، وهم

ينتظرون، ينتظرون من غير أمل، ولكنهم مع ذلك ينتظرون. إنهم فى انتظار قس، رجل الله ومبعوث العناية، إنه نورهم الهادى ودليلهم المرشد، لقد كان يتقدمهم ويقودهم، ثم غاب عنهم وطال غيابه. وإنهم ليتحسسون طريقهم فى الغابه بحثا عنه، وفجأه يقع فى روعهم شعور مبهم تقشعر فيه أبدانهم، شعور بوجود شىء غريبٍ عنهم لا يبصرونه ولكنه قريب. ولم يكذبهم حدسهم. إنه الموت، فهنالك عند جذع الشجرة أسند القس ظهره جثة هامدة.

والمؤلف مع هذه الصدمة القاصمة يشعرك بأن مقصده الأخير ليس هو الدعوة إلى اليأس، يأس الإنسانية من جدوى السعى والأمل فى الهداية إلى سواء السبيل، فإنه برغم ذلك الاخفاق والفشل، يسير إلى استمرار الإنسانية فى الأمل، فإن الستار ينزل على أبطال مسرحيته «العميان» وهم لا يزالون ينتظرون.

هذا بعينه هو الذى مكن لمسرحيات «ميترلنك» على ما فى حتمية واقعها الموحش المظلم اليائس المؤلم من رهبةٍ وقسوة، أن تستهوينا بما لا ينفك يغمرها من فيض الحيوية وبهجة النضارة الفتيه لفرط إيمان المؤلف بالحياه، وعمق شعوره بتلك الغريزة الكونية، غريزة الحياة الغلابة القوية التى أورثت سائر الأحياء ما فيهم من قوة الجلد والعناد، كالذى نشهده فى النملة الصاعدة على العود وهى تسقط مائة مرة، وفى كل مره تعاود الصعود... أو مثل ذلك الإنسان الذى حكمت عليه الآلهة أن يدفع الحجر

الكبير إلى أعلى الجبل، فلا يزال الحجر كلما بلغ به إلى قمة الجبل يتدحرج إلى أسفل، وهو ماض مع ذلك فى تأدية العمل الموكول إليه. ذلك أن الحياة لم تكن منذ كانت إلا كذلك بطبيعتها، وهذه إرادتها. ولا يكون الحى حيًّا فى حياته إلا إذا استجاب - طائعًا أو كارهًا - لغريزتها، وعمل بإرادتها وإن جهل غايتها.

ولكن هذا كله لم يكن ليحجب عن «ميترلنك» خاطر الموت، فقد كان هذا الخاطر يلازمه منذ حداثته فلم يكف عن التحدث عن الموت فى سعره وفى مسرحياته وسائر كتاباته، بصريح الإسم تارة، وتارات أخرى بمختلف الكفايات، وجملة ما يقال آخر الأمر أن الموت كان عند «ميترلنك» موضوع تفكيره طوال العمر، وأنه قضى السبعة والنمانين عامًا من حياته وهو فى انتظار لقائه، لقاء ذلك الصاحب المجهول وجهًا لوجه.

ومع ذلك فقد وقعت فى حياة «ميترلنك» بعض تغييرات مادية وأخرى وجدانية يمكن أن يُردَ إليها ما يلاحظ على مسرحياته التالية من تسربّ نوع من الرجاء، كالشعشاع من الضياء فى الليل الحالك.

ونذكر من تلك التغيرات المادية فى ظروف حياته انتقاله من جو السمال البلجيكى الغائم القاتم، إلى الجنوب الفرنسى المشرق الباسم فى مدينة نيس أو على مقربه منها حيث كان يقضى معظم العام على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

ولكن هذا التأثير المادى لا يذكر إلى جانب التأثير الوجدانى، ونعني به تأثير المرأة، وبعبارة أدق وألطف: الحب.

كان ميترلنك لا يزال مقيمًا فى إقليمه الفلمنكى فى بلجيكا حين التقى فى العاصمة البلجيكية فى إحدى الليالى بالمرأة التى أصبحت رفيقة حياته ونجية نفسه وموضع سره نحواً من العشرين عامًا، وهى السيدة الفنانة «جورجيت لبلان Georgette Leblanc» وكانت فى ذلك الحين تغنى «تاييس» و «كارمن» وغيرهما من الأوبرات فى التياترو الملكى فى ميدان لامونای Place de la Monnaie الذى تحف به المقاهى والمطاعم على مختلف أنواعها ويعتبر مركز الملاهى فى العاصمة. وقد اتفق هذا اللقاء فى دار محام من المحامين الكبار مشهورٍ بدعوته إلى التجديد فى الأدب البلجيكى، وكان الشاب ميتر لنك يزاول فى مكتبه المران على المحاماة على كره منه نزولاً على إرادة والديه، وكان صاحب الدار قد أعدّ مأدبة عشاء عنده تقام بعد الحفلة التمثيلية التى قدم فيها مسرح دى بارك Theatre du Parc مسرحيةَ «الأب» للأديب السويدى اسرنبرج Strindberg وكان ميتر لنك من المدعوين إلى هذه المأدبة، فترك النحل فى بلدته تلبية للدعوة، فهو كعادته، سيماء الجد على سحنته، يلزم الصمت ويبدو كالحالم، مع شىء من الشعور بالقلق وعدم الارتياح كشأنه فى المدينة. ولم يكن هذا الصوب الوقور المستغرق فى التفكير ليخطر فى باله أنه فى هذه الليلة سيلقى فى شخص امرأة ممتازة مرموقة هى الفنانة

جورجيت لبلان ما أعده له المقدور. وكانت القاعة على حين بغتة قد ساد عليها لحظة صمت عميق، فإذا بها قد طلعت على الحضور، وهى تمشى الهوينى مبخطِّرة متهادية، وعلى جبينها حلية من الذهب كأنها شارة السلطنة، ومن ورائها ينسحب ثوبُها المجرور الذى يشنّف الأسماع بحفيف الحرير، وقد قام صاحب الدار بينهما بواجب التعريف، فبدرت منها عند تقديمه لها صيحةٌ مقتضبة خفيفة، أما هو فقد رفع كالقروى بصره إليها مرتبكًا، وأحنى لها صَعْدتَه فى غير لباقة، على حين ردت له التحية بانحناءة من تلك الانحناءات العميقة التقليديه، بدت فيها وكأنها الملكة السابقة البيزنطية من لطف تأديتها المراسم الملكيه، متعمدة أن تضع فى هذه الحركة كلَّ براعتها التمثيليه، لتكون منها بمثابة تحية الفن للفن.

وفى أثناء العشاء كان ميتر لنك يطيل النظر إليها دون أن يخوض فى الحديث معها.

وكان ميترلنك حين تم التعارف بينه وبين جورجيت لبلان مؤلفًا موفور الشهرة، عامر البدن بالعافية والصحة: ميسور الحال لا يعوزه المال، ومع ذلك فإن هذا الرجل الذى أنعم عليه بكل هذه الخيرات كان فى دخيلة نفسه يعيش طول وقته مع الموت والخوف والملل. ولقد دعا الفنانة الحسناء إلى بلدته «غنت» حيث أولم لها وليمة فاخرة على الطريقة الفلمنكية، ثم خرجا للنزهة فى الشوارع الغائمة القاتمة المكتئبة، وكان ميتر لنك قليل الكلام،

ولكنه أفضى مع ذلك بجوهر الكلام ولبابه، قال: «إنى غير مؤمن لا بالسعادة ولا بالحب». فاحتفظت المرأة بهذا التصريح فى سويداء قلبها، وآلت على نفسها لتعلّمَنّه ذلك الفن الشاق، فن التسليم للحياة والاطمئنان إليها والتعويل عليها. فما انقضى القليل حتى كانَ قد كتب مسرحية تختلف عما سبقها كل الاختلاف، مسرحية لم يَعُدْ يعصف فيها عاصفُ الجزع والخوف، بل يسرى فيها نسيم الأمل والرجاء.

لقد كان ميترلنك لا همّ له فى مسرحياته إلا تمثيل القدر المحتوم على البشر فى صُورَ الشقاء والعذابِ والموت وهى مقبلة علينا الواحد بعد الآخر فى خُطًى ثابتةٍ يثنيها ويفتّ فى عزيمتها أو يعتاق سيرتها أو يقف فى مواجهتها فيسدّ طريقها ويحول بينها وبين فريستها، كانت هذه الفكرة مستبدة به مسيطرة عليه فى المرحلة الأولى من تفكيره الفلسفى، فإذا به فى المرحلة الثانية ينفض عنه هذا التسليم للقدر، ويتحدث عن الصراع غير مكتفٍ فيه بما كان من ذلك التخبّط السلبى، تخبّط العاجز، الشاعر بعجزه فى قبضة القدر. بل الصراع الحقيقى على مستوى البشر بين بعضهم البعض، والصراع الإيجابى بينهم وبين القدر على الرغم من علمهم بأن القوى غير متعادلة. ولا عليهم من ألا يكون لهم النصر فى آخر الأمر. ويظهر هذا الصراع واضحاً فى مسرحية «أجلافين وسليزيت» Aglavine et Sélysette عام ١٨٩٦ حيث يقوم الصراع بين المرأتين على رجل هو ملياندر

Méleandre وهو صراع كأسد ما يكون الصراع الحفيمى، ولكن كفة إحداهما لا تلبث أن ترجح على كفة الأخرى لأن العلائق التى تربط بين «سلزين» وهذا الرجل لست نسبيًّا إلا علائق سطحية على المستوى البسرى، فى حين يزداد ما يربط المرأة الأخرى «أجلافين» بهذا الرجل توثقاً واستداداً فى قوة الارتباط، وتأبلاً وإيغالا فى الأعماق. وذلك أن انجذاب كل من الاثنين – هذا الرجل وهذه المرأة بالذات – إلى الآخر غير مقصور على رغبتهما البسرية، بل من ورائها قوة خفية أقوى منها: هى تلك الجاذبية الميتافيزيقية التى لا نعرف كنهها ولا نملك ردّها، ولا نستطيع غير الانقياد لها والنزول على أمرها.

ولا نحسبنا مخطئين إذا رأينا فى سخصية «أجلافين» سخص الفنانة «جورجيت لبلان»، فقد كان لقاؤهما على النحو الذى جاء وصفه فى المسرحية تمامًا فهما – كما جاء فى المسرحية – سواء فى المقابلة الأولى على غير موعد، أو فى الموعد الأول – لم يتبادلا إلا أبسط الكلمات وأكثرها تداولاً بين عموم الناس، فإذا بهما – مع ذلك – يسعران بأنهما لا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا حياة له بغير صاحبه، وقد بلغت قمة الجذب بينهما أن دامت صحبتهُما نحواً من العشرين سنة. ولقد حرص المؤلف فى إثر تأليفه لهذه المسرحية على الكتابة إلى الفنانة يحدّثها عن بطلته الجديدة، فيقول هذا الذى قال فى أول حديث بينهما: «إنى غير مؤمن لا بالسعادة ولا بالحب».. يقول اليوم (لقد حملت إلىّ «أجلافين»

ما لا عهد لى به. جوّ جديد وإرادة للسعادة وقوة على الرجاء).

ومنذ ذلك الحين دخل التغيير على مؤلفات ميتر لنك المسرحية وغير المسرحية، حتى ليشعر القارئ لهذه المؤلفات بالنقلة المفاجئة من الجو القاتم المتلبد بالضباب إلى جو آخر تمزق ضبابَهُ فعرف الإشراق ودخل إليه النور مُشعشِعاً هنا وهناك فى الآفاق، وكشفت الأرض لنا عن بدائع ودائعها وأنفس كنوزها، فاكتست بالزهر والريحان من مختلف الألوان، وأخرجت لنا الأيام أبطالاً وبطلات أقل خوفًا من الحياة وأكثر شجاعة وهمة.

ولا نقصد بهذا القول إلى أن ميترلنك قد تخلى عن فلسفته وعن تفكيره الدائم فى القدر والموت. كلا، فإن الشيء الذى تغير لم يكن هو القدر والموت، وإنما هو نظرة ميترلنك إليهما وطابعِ شعوره بهما ولون تفكيره فيهما، حتى لنرى مؤلفنا المسرحى أميل إلى جعل الشقاء والعذاب والموت فى خلفية المسرح، وعرض إرادة الحياة ونشدان السعادة فى مقدمته.

وحسبنا للتحقق من ذلك جميعه أن نقابل بين المسرحيات التى طلع بها علينا المؤلف فى السنوات العشر الأخيرة فى القرن الغابر وهى مسرحيات المرحلة الأولى التى قدمنا للقراء عرضًا موجزًا لموضوعها، وبين أشهر وأبدع مسرحياته فى أوائل القرن الحاضر، وهى «الطائر الأزرق» التى نستأذن القراء فى أن نعفيهم من إيراد خلاصتها فهى لا تغنى عن الاستمتاع الكامل بقراءتها فى الترجمة التى بين أيدينا.

وهذه المسرحية النى ضمنها ميتر لنك ما بلغه وهو فى طور النضج من تطور فى النظر والسعور والفلسفه، قد ساء له هذه المرة فنه - كما أسرنا فى مستهل كلامنا - أن يصبها فى قالب قصة من قصص الجنيات. وفد يبدو هذا من عجيب الأمر. ولكن الأعجب هو أن المؤلف الفنان، بما حفق فى هذه المسرحية من نجاح لم يتحقق له فى غيرها، أقام الدليل على أن هذا الأسلوب - أسلوبها - هو الأسلوب الذى يناسب ما أراد عرضه على المسرح من بحث عن السعادة، تلك الضالة المنشودة التى افتقدها فى الطبيعة أبناء الأرض، وهؤلاء هم - فى المسرحية - يبحثون عنها فيما وراء الطبيعه على نحو رمزى بديع شاعرى لا يثقل على النفس، بل يسر الخيال ويسكر الحس، وعن طريق الجمال والخيال يوقظ الذهن والتفكير.

ومسرحيه الطائر الأزرق من خمسه فصول فى عشر لوحات وقد كان أول عرض لها على المسرح فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٨ بالمسرح الفنى فى موسكو، ثم صدرت طبعتها الأولى فى باريس عام ١٩٠٩، نم منلت فى ترجمتها الانجليزية على مسرح هايماركت Haymarket فى لندن فى ٨ ديسمبر عام ١٩١٠ ولفد شجع نجاح تمثيلها فى الخارج على استقبال المسارح الفرنسية لها فكان أول المسارح النى فتحت لها أبوابها مسرح ريجان (وهو اليوم مسرح باريس) فى النانى من مارس سنة ١٩١١ وهى السنة التى حصل فيه على جائزة نوبل.

وبعد ما قدمناه من التعريف الوافى بهذا المؤلف من أعلام المسرح الرمزى «موريس مينرلنك»، وتحليل مسرحياته الرمزية فى المرحلة الأولى ثم فى المرحلة التالية، مع عرض سريع للفكرة التى قامت عليها أسهر وأبدع مسرحياته الأخيرة؛ وهى «الطائر الأزرق» نرى لزامًا علينا أن نحيى الكاتب الروائى العربى الأستاذ يحيى حقى على ما اضطلع به من هذا التعريب الدقيق البليغ للمسرحية التى بين أيدينا، مع الحفاظ على خصائصها الجامعة بين الفلسفة والتصوف وروح الطفولة، حتى جاء تعريبه للنصوص من واقع أصلها، من حيث الأمانة فى نقلها وحسن المطابقة لها، كصورة الحسناء فى مرآتها فإليه نزف تحيات الشكر والتقدير على لسان قرائها.

عبد الرحمن صدقى

الفصل الأول

الطائر الأزرق

المنظر الأول: كوخ الحطاب

[المسرح على هيئة كوخ حطاب من الداخل، بسيط المظهر، ريفى البناء والمتاع ولكنه لا ينم بحال عن تعاسة العوز والفاقة، مدفأة مستورة لأنها محفورة داخل الجدار، بها حطب نعست ناره، آنية مطبخ، صوان، صندوق لحفظ الخبز، ساعة طويلة موروثة عن الأجداد، تعمل بثقالين، عجلة مغزل، حوض للغسيل إلخ إلخ، مصباح مضىء على منضده، أمام الصوان كلب فى جانب وهرة فى الجانب الآخر، كلاهما يرقد وقد تقمص جسده وجمع أنفه إلى ذيله، وبين الاثنين قمع سكر كبير ملون بالتناوب بالأبيض والأزرق، قفص مستدير مثبت على الجدار، به عصفور، فى غيابة الكوخ نافذتان، خصاصهما مغلق، تحت إحدى النافذتين دكة من الخشب، على اليسار الباب الأمامى للكوخ، عليه مزلاج كبير، باب آخر على اليمين، سلم يدوى من الخشب، يؤدى إلى المخزن، على اليمين أيضا مهدان من الخشب، على رأسيهما كرسيان فوقهما ثياب مطبقة بعناية.

عند رفع الستار نرى الولد «تلتيل» والبنت «ميتيل» يغطان فى سبات عميق فى مهديهما، «ماما تيل» تحبك الغطاء حولهما وتنحنى عليهما تتأملهما لحظة وهما نائمان، ثم تشير إلى «بابا تيل» وقد أبرز رأسه من الباب الموارب، فتضع «ماما تيل» سبابتها على فمها لتفرض عليه بالإشارة التزام الصمت، ثم تخرج إلى اليمين وهى تمشى على أطراف أصابعها، وكانت قد أطفأت المصباح أولاً؛ يغرق المسرح فى الظلام برهة وجيزة، ثم

يتسلل من خصاص النافذتين نور يزداد توهجه، يضاء المصباح ثانيه من تلقاء ذاته، ولكن بنور يختلف عن نوره حين أطفأته «ماما تيل» – ثم إذا بالطفلين كأنهما قد استيقظا وجلسا فى مهديهما]

تيلتيل : ميتيل ! (١)

ميتيل : تيلتيل ! (١)

هــو : أنائمة أنت ؟

هــى : وأنت ؟

هــو : كلا وها أنذا أكلمك فكيف أكون نائماً.

هــى : قل لى، هل اليوم هو يوم يجىء عيد الميلاد ؟

هــو : لم يحن ميجيئه بعد، إن موعده غداً، ولكن عمنا العيد لن يأتى لنا بشىء هذه السنة.

هــى : ولمــاذا ؟

هــو : سمعت أمى تقول إنها لم تستطع الذهاب للمدينة لتلفت نظره إلينا، ولكنه سيأتى فى السنة القادمة.

هــى : أبعيد موعده فى السنة القادمة ؟

هــو : لا أقول إنه جدّ قريب، ولكن عمّنا العيد سيأتى الليلة إلى الأطفال الأغنياء.

هــى : حقّا ؟

(١) اختصار للأسماء المتشابهة رأينا الإشاره إلى تيلتيل فيما بعد بكلمه (هو) وإلى ميتيل بكلمه (هى).

هـو : أنظرى، فد نسيت أمنا أن تطفئ المصباح، عندى فكرة...

هـى : ما هى؟

هـو : هبًّا بنا نقوم من فراشنا.

هـى : هذا مُحرّم علينا.

هـو : لا ضير، فما من أحد يرقبنا، أترين خصاص نوافذنا؟

هـى : ما أبهى النور الذى يتخلَّله.

هـو : إنه نور الحفل.

هـى : أىّ حفل هو؟

هـو : أمامنا، عند الأطفال الأغنياء، إنها سجره عيد الميلاد، سنفتح النافذه.

هـى : أمباحٌ لنا أن نفعل هذا؟

هـو : أىْ نعم،ما دمنا وحدنا. أتسمعين الموسيقى؟ فلننهض!

[ينهضان ويجريان إلى إحدى النافدتين ويصعدان فوق الدكه، ويدفعان مصراعى النافذة فيعم الحجرة نور ساطع، يتطلع الاثنان بشغف للخارج].

نيلتيل : ملكنا رؤية كل سيء.

ميتيل : [وقدمها لا يعوز إلا بوقفة غير مطمئنة على حافة الدكة] أمّا أنا فلا أرى شيئًا.

هو : الثلج ينهمر، أرى عربتين تجرّ كُلًّا منهما ستة جياد.

هي : وينزل منها اثنا عشر صبيًّا.

هو : يا لك من مغفّلة! إنهن بنات.

هي : لا أرى إلا سراويل تلفّ السفان.

هو : نعم الخبيرة أنت بلبس البنات والصبيان! لا تدفعيني هكذا.

هي : لم ألمسك.

هو : [وهو يحتكر الدكّة لنفسه] أنت تحتلين الدكة كلها بمفردك.

هي : كيف وأنا لا أجد فوقها موضعًا لقدمي.

هو : الزمي الصمت إذن، إني أرى الشجرة.

هي : أيّ شجرة تعني؟

هو : شجرة عيد الميلاد، أنت لا ترينها لأنّ نظرتك مصوبّة للجدار.

هي : هو كذلك، لأنه لم يبق لي مكان فوق الدكة.

هو : [وهو يتخلّى لها بشحّ عن طرف من الدكة] الآن هل اطمأنت وقفتك وفزت عليّ؟ يا لها من أنوار فوق أنوار.

هي : ماذا يفعل هؤلاء القوم الذين ينيرون كل هذه الضجه؟

هــو : إنهم يعزفون الموسيقى.
هــى : أهم فى حدّة من الغضب؟
هــو : كلا، وإنما عملهم مرهف.
هــى : ها هى ذى عربة أخرى بجرّها جياد بيض.
هــو : الزمى الصمت واكتفى بالنظر.
هــى : ما هذه الحلية المذهّبة المعلقه بالغصون؟
هــو : إنها لُعب ولا ريب، سيوف وبنادق، وجند ومدافع.
هــى : والعرائس؟ هل هناك عرائس معلقة أيضًا؟
هــو : عرائس! إنها لُعب سخيفه لا تروقهم.
هــى : ما كل هذا الذى نُثر من فوق المائدة؟
هــو : كعك وفاكهة وفطيرة محشوة بالقشدة.
هــى : أكلت من أمثالها مرة فى صغرى.
هــو : وأنا كذلك، إنه طعام ألذّ من الخبز ولكن هذه الحلوى لا يُبذل لنا منها إلا بقدر ضئيل.
هــى : وليس هذا هو حالهم، إنها مبذولة لهم تغصّ بها المائدة. أسيأكلون كل هذه الحلوى؟
هــو : نعم ولا ريب، فماذا عساهم يفعلون بها؟
هــى : ولماذ لا يأكلونها من فورهم؟
هــو : لأنهم غير جياع.
هــى : [وقد غلبتها الدهشه] غير جياع؟ ولماذ؟

هــو : لأنهم يأكلون منها متى أرادوا.

هــى : [وهى غير مصدقة] كل يوم؟

هــو : هكذا يقال.

هــى : هل يأكلونها كلها ولا يجودون منها بسىء؟

هــو : على مَنْ؟

هــى : علينا.

هــو : إنهم لا يعرفوننا.

هــى : فلو سألناهم.

هــو : هذا غير جائز.

هــى : ولماذا؟

هــو : لأنه عيب.

هــى : [وهى تصفّق فرحًا] أوه، ما أجملهم!

هــو : [فى حماس] إنهم غارقون فى الضحك.

هــى : وهؤلاء الصغار الذين يرقصون؟

هــو : نعم نعم، فلنرقص نحن أيضًا.

[يتواثبان من الفرح فوق الدكة].

هــى : يا لها من بهجة.

هــو : الكعك يُقدّم لهم، إن أرادوا لمسة بأصابعهم فعلوا، إنهم يأكلون ويأكلون ويأكلون..

هــى : حتى الصغار منهم، أكلوا من الكعك منى وثلاث ورباع.

هـو : [وقد أسكره الطرب] يا لها من لذه، يا لها من لذة.

هـى : [وهى تزعم فى الوهم أنها تعد قطعًا من الكعك] قد فزت أنا بائنتى عشرة كعكة.

هـو : أما أنا فقد نلت أربعة أمثال نصيبك، على أننى سأعطيك منها.

[«يدق باب الكوخ» تيلتيل وقد جمد وبملكه الخوف، مخاطبًا أخته].

هـو : تُرى من يكون الطارق؟

هـى : [فى رعب] إنه بابا..

[وإذ يتوانيان عن فتح الباب يشاهد مزلاجه الغليظ يرتفع من تلقاء ذاته، ويسمع له صرير، ثم ينشق الباب عن امرأة عجوز ضئيله تلبس ثوبًا أخضر وصدارًا أحمر، هى حدباء عرجاء عوراء، أنفها تقوس حتى لامس ذقنها، تمشى محنية الظهر تتوكأ على عصا، لا سبيل للعين أن تخطئ أنها جنية].

الجنية : هل عندكم العشب الذى يدندن والطائر الذى لونه أزرق؟

هـو : لدينا عشب ولكنه لا يدندن.

هـى : تيلتيل عنده الطائر.

هـو : ولكنى لا أفرط فيه.

الجنيه : ولماذا؟

هـو : لأنه ملكى.

الجنية : هذا سبب وجيه ولا ريب، وأين هو هذا الطائر؟

هــو : [مشيرًا إلى القفص] إنه فى هذا القفص.

الجنية : «تلبس نظّارتها لتتفحص الطائر» إنه ليس مطلبى، ينبغى أن تذهبا لتبحثا لى عن الطائر الذى أريده.

هــو : ولكنى لا أدرى أين هو.

الجنيه : ولا أنا، من أجل هذا ينبغى البحث عنه، إننى أستطيع إذا يئست أن أتنازل عن العسب الذى يدندن ولكنى لابُدّ لى من أن أجد الطائر الأزرق، إنه لازم لابنى الصغيره، هى فى شدة المرض.

هــو : وما مرضها؟

الجنية . لا أحد يدرى حقيقته، إنها تريد أن تكون سعيده.

هــو : حقًّا؟

الجنية : أتعرفان من أنا؟

هــو : إنك تسبهين قليلًا جارتنا الست غُريبه.

الجنية : [وقد تملكها الغضب فجأة] لا شبه مطلقًا، ستان ما بيننا، هذه إهانه بليغة، إننى الجنيه غرباويه.

هــو : آه، صدّقنا كلامك.

الجننة : ينبغى المضىّ فورًا.

هــو : ألست آتية معنا؟

الجنية : هذا مستحيل، بسبب الحساء الذى أفمته هذا الصباح على النار فإنه يهدد بالفوران والاندلاق إذا ما غبت عنه أكثر من ساعه، [تشير بالتوالى إلى السقف والمدفأه والنافدة] من أين تريدان الخروج؟ من هنا أو من هنا أو من هناك؟

هـو : [وهو يشير متهيّب إلى الباب] الأفضل أن أخرج من هناك.

الجنية : [وقد عاودها العصب المفاجئ] هذا مستحيل كل الاستحالة، ثم إن الخروج من الأبواب ليس إلا عادة سخيفه، [تشير إلى النافذة] سنخرج من هناك، وبعد، ففيم انتظاركما؟ ارتديا ثيابكما على الفور [يطيعها الاثنان، ويرتديان ثيابهما على عجل وتمضى الجنية قائلة] سأساعد ميتيل.

هـو : ليس لدينا أحذية.

الجنيه : ليس هذا بالمُهم، سأهبكما قلنسوه صغيرة مدهشة، أين والداكما؟

هـو : [مشيرًا إلى الباب الأيمن] إنهما هناك، نائمين..

الجنيه : وأين جدّكما وأين جدتكما؟

هـو : مات الاثنان.

الجنية : وإخوتكما وأخواتكما الصغار، أليس لكما أخوة وأخوات؟

هــو : نعم نعم، لنا ثلاثة أخوة صغار وأربع أخوات صغيرات.

الجنية : وأين هم؟

هــو : ماتوا هم أيضًا.

الجنية : أتريدان رؤيتهم من جديد؟

هــو : نعم نعم، على الفور، الآن، دعينا نراهم.

الجنية : إنهم ليسوا فى جيبى، ولكن بختكما حسن، فسيتاح لكما رؤيتهم وأنتما تعبران «أرض الذكريات» فى طريقكما إلى الطائر الأزرق، على اليد اليسرى فور اجتياز ثلاثة مفارق، ماذا كنتما تفعلان حين دققت الباب؟

هــو : كنا نلعب زاعمين أننا نأكل الكعك.

الجنية : وأين هو؟

هــو : فى قصر الأولاد الأغنياء، تعالىْ أنظرى، ما أبهاه من مشهد [يجرّان الجنية إلى النافذة].

الجنية : [وهى بالنافذة] ولكن أفواها غير أفواهكما هى التى تأكله.

هو : نعم ولكن يكفينا أن نرى أكلهم من هنا.

الجنية : أفى قلبكما موجدة عليهم؟

هــو : ولمــاذا؟

الجنية : لأنهم يأكلون الكعك كله، إنه لخطأ كبير منهم أن لايبذلوا لكما شيئًا مما يأكلون.

هـو : لا يبذلون لأنهم أغنياء، ما رأيك فى بيتهم؟ كم هو جميل.

الجنية : إنه ليس أجمل من بيتكما.

هـو : هيهات! بيتنا أقل ضوءًا ورحابه.. وليس به كعك.

الجنية : ليس هناك أقلّ فرق بين بيتهم وبيتكما، إنما أنت لا ترى.

هـو : بالعكس، إننى أحسن الرؤيه، وعيناى لا تنقصهما حدّة البصر، إننى على خلاف أبى أتبيّن من بعيد عقارب الساعه فى قمة برج الكنيسة.

الجنية : [تغتص فجأة] أقول لك إنك لا ترى، قلْ لى إذن كيف ترانى؟ ما هو شكلى فى نظرك؟ [تيلتيل يلوذ بصمت المتحرّج] هيّا، أجبنى حتى أعرف إن كنت ترى، أأنا جميلة أم دميمة؟ [يمتد الصمت ويزداد الحرج] ألا تريد أن تجيبنى؟ أأنا صبية أم عجوز؟ وبشرتى؟ أفى لون الورد أم هى مصفرّة كالحة؟ ولعلْ لى أيضًا حدبة فوق ظهرى..

هـو : [وهو يسترضيها] لا، لا، إن حدبتك ليست كبيرة.

الجنية : نعم، لى حدبه، ولكن دهسة نظرتك إليها تنبىء أنك تراها آية فى الضخامه. ألى أنف معقوصه وعين مفموءة ؟

هـو : لا، لا، إنى أتبيّن ذلك، ولكنْ مَنْ الذى ففأها ؟

الجنبة : [وقد راد عململها] ولكنها ليست مفموءة يا وقح، يا لعين، إنها أجمل من أختها، هى أوسع وأصفى، إن لونها فى زرفه السماء، وسعرى هل تراه ؟ إنه أسمر كسنابل الفمح بل قد يُظن أنه من العسجد الخالص، ولى من هذا السعر بروه تثفل رأسى وتفض من كل جانب، ها هو ذا على يدىّ، ألا تراه [تعرض عليه حديلتىن نحيلتين من شعر أشهب].

هـو : نعم، إنى أرى جديلة من سعرك.

هـى : تفول جديلة ؟ إنها حزمة ملء الذراعين كالنبت الملتف، هى ذوب عسجد، إنى عالمه أنّ بين الناس نفر يزعم أنه لا يرى منه سيئاً، ولكنك – فيما أؤمل – لست من هذا النفر الأعمى الخبيث ؟

هـو : كلا كلا، إننى أرى كل ما تكشّف للعين منه.

الجنبه : ولكن ينبغى أن ترى بقبته بسطارتك المعهوده، ما أعجب بنى الإنسان ! منذ أن انقضى عالم

السحر قد طمست أبصارهم وخبتْ مداركهم، ومن حسن الحظ أننى مزودة دائماً بكل ما يبعث النور فى العيون المنطفئة. فما هذا الذى أُخرجه من كيسى؟

هـو : أوه، ما أجملها من قلنسوة صغيرة خضراء، وما هذا الذى يبرق فى زرّها؟

الجنيه : إنها الماسة الكبرى التى نورها هو جلاء العيون.

هـو : حقاً؟

الجنية : نعم، حين تضع القلنسوة على رأسك تدير الماسة قليلاً من اليمين إلى اليسار، مثلاً هكذا، أرأيت؟ إنها حينئذ تضغط على عظم نافر فى الرأس لا يعرفه أحد وهو الذى يفتح العينن.

هـو : وهل سأحس بألم؟

الجنيه : على العكس، وانه سحر ستحسّ بلطفه، وفى اللحظة ذاتها تتجلّى لك سريرة الأسياء! سريرة الخبز والنبيذ والفلفل.

هـو : وتتجلّى لى أيضا سريرة السكر؟

الجنية : طبعاً، إنى لا أحب الأسئلة الفارغة، إن سريرة السكر لا تفضل سريرة الفلفل، والآن ها أنذا أمنحكما كل ما تحتاجان إليه من أجل البحث عن الطائر الأزرق ، إنى لا أجهل أن «خاتم

المُلك» الذى يحجب لا بسه عن الأنظار، وأن البساط الطائر أنفع لكما، ولكنى أضعت مفتاح الخزانه التى كنت خبأتها فيها، آه! كدت أنسى، [تشير إلى الماسه] حين تضع يدك عليها وتديرها مرة أخرى قليلاً هكذا فسيتكسف لك الماضى، ثم تديرها أيضا قليلاً فيتكشف لك المستقبل، إنها سىء عجيب نافع يعمل فى صمت.

هـو : إن بابا سيأخذها منى.

الجنية : إنه لن يراها، لن يقدر أحد أن يراها ما دامت على رأسك. أتريد أن تجرّب [تضع الملسوة الصغيرة الخضراء على رأس تيلتيل] والآن، أدر الماسة وانظر..

[ما يكاد تيلتيل يدير الماسه حى يحدث تغر عجيب يشمل كل الأشياء بغته،وتنقلب الجنية العجوز فجأه إلى أمرة جميله رائعه البهاء وتضىء حجارة الصوان المبنية بها الجدران بلمعان الياقوت الأزرق، وتصبح شفافه براقه تخطف الأبصار سأن الأحجار الكريمة، الأثاث الفقير تدب فيه حياه داب بهاء، المنضده المصنوعه من الخشب الأبيض تصبح تنطق بالوقار والمجد مثل منضدة من المرمر، ووجه الساعه يغمز بعينه، ويبتسم بشاشة، على حين ينفتح غطاء دولابها الذى يتأرجح رقاصها من ورائه يميناً ويساراً ثم تنطلق منه الساعات وهى مشبكه الأيدى مجلجلة الضحكات، وتأخذ فى الرقص على نغم حلو، وحتى لتيلتيل أن يدهش].

هـو : هاته الآنسات الجميلات، من هنّ؟

الجنية : لا تخف، إنهن ساعات عمرك، هنّ فى غمرة من الحبور إذ ملكن الحرية والانكساف للأعين مدى برهة ولو وجيزة.

هـو : ولماذا تتلألأ الجدران؟ أهى من السكر أم من الأحجار الكريمة؟

الجنية : كل الأحجار سواء، كل الأحجار كريمة، ولكن الناس لا ترى إلا قِلّة منها.

[وإد يدور هداالحوار بيىها تتوالى لمسات السحر حتى تبلع كمال غايتها، وتبرز سرائر الأرعفه على شكل أقزام فى سراويل بلون قشرة الخبر الحاف، سكارى من الدهشة، تناثر قوقهم الدقيق، ويخرحون فى صندوق الخبر فيدورون حول المنصده فى حطى مرحة عابثه فتعترضهم سريرة «النار» التى قفرت من المدفأه وهى فى سروال أصفر وقرمزى وتتلوى من الصحك وهى تطارد سرائر الأرغفه]

هـو : وهؤلاء الأقزام الأمساخ، من هم؟

الجنيه : ليس أمرهم بالجلل، أنهم سرائر الأرغفه ينتفعون بسفور عالم الحقيقة ليخرجوا من سجنهم فى الصندوق الضيّق.

هـو : وهذا العفريت الأحمر كريه الرائحة؟

الجنية : اسكت، لا ترفع صوتك، إنها النار، وهى شرسة الخُلق.

[لا يقطع هذا الحوار توالى لمسات السحر، فإدا بالكلب والهره

وهما نائمان مكوران إلى جانب الصوان يطلقان معاً فجأة صرخة عالية ثم ينشق تحتهما غطاء سرداب ويبلعهما فيختفيان ويبرز بدلهما قزمان أحدهما يتلثم بقناع على هيئة وجه كلب من فصيلة «البولدوج» وقناع الآخر على هيئة وجه هرة، فإذا بالقزم الذي يلبس قناع البولدوج (وسنكتفي فيما يلي بكلمة «الكلب» لتسميته) يرتمي على تيلتيل يعانقه ويرشقه بقبلات هوج، ويغرقه حتى يشل حركته بتمسحات رائطة متأججة، على حين أن الفتاة القزم الملثمة بقناع الهرة (وسنكتفي فيما يلي بكلمة «الهرة» لتسميتها) تشرع تتمشط وتلعق يديها وتسوي شاربها من قبل أن تقترب من ميتيل].

الكلب : [وهو ينبح ويقفز وينفلت عياره فيحطم كل شيء في طريقه بتهور لا يطاق] مولاى الصغير أهلاً، أهلاً بمولاى الصغير، وأخيراً، أخيراً، استطعت أن أتكلم، إن لدىّ أشياء كثيرة أود أن أقولها لك فلم يُسعفنى ويفصح عنى نباح ولا هزّ ذيل، وكنت لا تفهم عنّى، أما الآن، أما الآن فمرحباً بمولاى، إنى أحبك، أحبّك، أتريد أن أريك بعض ألعابى المدهشة؟ أن أقف وقفة المستجدى؟ أن أسير على يدىّ وحدهما؟ أن أرقص على قدمىّ وحدهما؟

هـو : [للحية] من هذا السيد الذى له وجه كلب؟

الجنيه : ألا تدرك؟ إنها سريرة كلبك «تيلو» وقد استنقذتها أنت من الأسْر.

الهرة : [تمد إلى ميتيل يدا موقرة متهيبة] تحيه يا سنى، ما أجملك هذا الصباح.

هــى : تحيه سيّدتى [إلى الحية] من تكون؟

الجنيه : من السهل أن ترى بنفسك أنها سريره هرّتك «تيليب» التى تمد إليك يدها فامنحيها قبله منك.

الكلب . [وهو يرحرح الهرّه] وأنا أيضاً أريد أن أقبل مولاى الصغير، وأقبل سيّ الصغيره، إنى أريد تقبيل الجميع هنا، ما أسعدنى! سيطيب لنا لهو كبير. سأبدأ بأن أخيف تيليت، هاو، هاو، هاو [يسحها].

الهرة : [للكلب] سيدى، إنى لا أعرفك.

الجنبة : [هى ترجر الكلب بعصاها السحرية] أما أنت فالزم الهدوء وإلا رددناك إلى عالم الصمت إلى يوم القيامة.

[وفى عين الوقت تكون لمسات السحر ماضيه فى عملها، تنطلق فى ركن الحجره عجله «المغزل»، وتدور بسرعه هوجاء، وتنسج أشعه من ضياء ذات بهاء، يبدأ الصنبور فى ركن آخر يصفر بصوت عال وتنبعث منه نافورة مضيئه تملأ الحوض بجدائل من اللؤلؤ والياقوت، تنفلت منها سريره الماء على هيئه فتاه سابحه تتساقط منها القطرات، شعرها مشعث ونشيجها مرتفع وتبدأ من فورها عراكها مع سريره النار].

تيلتيل : ومن تكون هذه السيده المبلّله؟

الجنيه : لا تخف، إنها سريرة الماء قد انفلتت من الصنبور.

[يفلب إبريق اللبن ويقع من على المنصده ويتحطم على الأرض وينبعث من اللبن المراق شخص أبيض خجول كأنه يتهيب كل شيء حوله]

هـو : ومن تكون هذه السيدة الخائفة التى طلعت لنا بقميص النوم؟

الجنية : إنه اللبن وقد كسر إناءه.

[نرى قمع السكر أمام الصوان يأخذ فى النمو ويزداد حجمه ويمزق ورق غلافه وينبعث منه شخص يصطنع الرقه وهو بادى النفاق، يرتدى معطفا ملوناً على التوالى بالأبيض والأزرق ويتقدم إلى ميتيل وعلى شفتيه ابتسامه ترعم التقى والورع].

ميتيل : [فى قلق] ماذا يريد؟

الجنية : انه سريرة السكّر.

هـى : [وقد اطمأنت] هل عنده حلوى «نبوت الخفير».

الجنية : ليس فى جيوبه شىء سواها، وكل أصبع فى يده «نبوت خفير».

[يسقط المصباح من على المنضده وما يكاد يفعل حتى يتصاعد وهجه على هيئه فتاة عذراء وضاءه فائقه الجمال، تجللها غلالات شفافه براقه وتجمد فى مكانها كأنها فى وجد]

هـو : إنها الملكة!

هـى : إنها العذراء البتول.

الجنيه : كلا يا أولادى، إنها بسمة النور.

[وإذ تحدث هذا نرى الطواحن النحاسية على الرف وهى تدور على محاورها كلعبة النحله، وينفتح باب الصوان على مصراعيه بدوى، ويلفظ سيلاً رائعاً من أقمشه بعضها فى لون أشعة القمر وبعضها فى لون أشعه الشمس تختلط بها سيل لا يقل روعة من الخرق والمزق يهبط على السلم من المخزن، ثم يقرع الباب الأيمن فجأه بدقات ثلاث عنيفة نوعاً ما]

هـو : [فى خوف] إنه بابا، قد سمعنا.

الجنية : أدر الماسة من الشمال إلى اليمين [تيلتيل يدير الماسه بعنف] لا تعفرتها هكذا، يا إلـهى! لقد تأخرنا فضاعت الفرصة من أيدينا، أنت أدرتها بعجلة شديدة، لن يبقى لمن حولنا وقت للعودة إلى أماكنهم المألوفة، وسنلقى متاعب كثيرة.

[ترتد الجنيه إلى امرأه عجوز، تطفئ جدران الكوخ ضياءها، وتؤوب الساعات إلى مثواها، وتكف عجله المغزل عن الدوران، الخ الخ ويعم المكان هرج ومرج، وربكة، تجوب النار أرجاء الحجره فى حركة هوجاء لتبحث عن المدفأه، وإذ تفعل ذلك نرى رغيفاً يعجز عن الاندساس فى صندوق الخبز فينفجر بكاؤه وتدوى صرخات فزعة]

الجنيه : ماذا حدث ؟

الرغيف : لم يبق لى مكان فى الصندوق.

الجنيه : [تنحنى فوق الصندوق] بل فيه مكان، فيه مكان لك، [تدفع الأرغفة التى سمنت فاحتلّت مكانها القديم فى الصندوق]

هيّا، هنّا، اسرعوا، انتظموا، أفسحوا بينكم مكاناً.

[يدوى الباب من حديد].

الرغيف : [وهو مرتعب مضُيّع يجاهد عبثاً للدخول إلى الصندوق] لا وسيلة للدخول، سأكون أوّل ما يأكله.

الكلب : [وهو يتواثب حول تيلتيل] مولاى الصغير! إننى لا أزال هنا، لا أزال أستطيع الكلام، لا أزال أستطيع تقبيلك مرة، ومرتين، وثلاثة.

الجنية : ماذا؟ أنت أيضاً لم تنصرف بعد؟

الكلب : إننى محظوظ إذ لم ألحق العودة إلى عالم الصمت فإن غطاء السرداب كان أسرع منى فانقفل وبقيت.

الهرة : كذلك كان شأنى، ماذا سيحدث؟ هل ستواجهنا أخطار؟

الجنية : يا إلـهى! ينبغى أن أصارحكم بالحقيقة، كل من سيصحب الصبيين فى رحلتهما سيموت عند نهايتها.

الهرة : ومن لا يصحبهما، ما مصيره؟

الجنية : يمتد أجله قليلاً.

الهرة : [للكلب] تعال نأوى إلى السرداب.

الكلب : كلا، كلا، لا أطاوعك فإنى أحبّ أن أصحب مولاى الصغير وألا أكفّ عن مناجاته.

الهرة : يا لك من غِرّ أبله!

[الباب يدق مره أخرى]

الرغيف : [وهو يذرف دموعا ساخنة] لا أريد أن أموت عند نهاية الرحلة، أريد أن أدخل فوراً إلى الصندوق.

النار : [وهى لا تنفك تدور فى الحجرة بحركة هوجاء وترسل أزيزا ينم عن كرهها] لم أعد أجد المدفأه.

الماء : [وهى تحاول عبثا الرجوع إلى الصنبور] لم أعد أملك العودة إلى الصنبور.

قمع السكر : [وهو يطوف باضطراب حول مزق غلافه] فقد مزقت غلافى.

اللبن : [فى سكينه وخجل] وقد كسرت إبريقى الصغير.

الجنبة : يا لهم من أغبياء، أغبياء جبناء، إن بقاءكم فى صندوقكم الكريه وفى سراديبكم وصنبوركم أفضل عندكم من مصاحبة الصبيين للبحث عن الطائر الأزرق.

الجميع : [فيما عدا الكلب ونسمة النور] نعم، نفضل العوده فوراً، إلى صنبورى، إلى صندوقى، إلى مدفأتى، إلى سردابى.

الجنبة : [إلى بسمة النور وهى تصوّب نظرة حالمه إلى حطام مصاحها]
وأنت يا بسمة النور ما قولك؟

بسمة النور : سأصحب الصبيين.

الكلب : [وهو يهتف بفرح] وأنا أيضاً، أنا أيضاً.

الجنية : هذه شيمة أفضل، على كل حال قد فات أوان النكوص، لم يبق لكم خيار، ستخرجون كلكم معنا. ولكن أنت يا نار، لا تقربى من أحد، وأنت يا كلب، لا تشاكس الهرّة، وأنت يا ماء اصلبى عودك وحذار أن تندلقى أينما حللتِ.

[لا يزال الباب الأيمن يدق بعنف].

تبلتبل : [وهو يتسمّع] هذا الدق مذ بدأ: هو دقّ بابا، إنه نهض من فراشه وأنا أسمع خطوه.

الجنية : لنخرج من النافذة. ستأتون جميعاً إلى بيتى لأتخير لكل حيوان ولكل شىء ما يليق به من الثياب، وأنت يا رغيف، خذ معك القفص لنضع فيه الطائر الأزرق، ستكون حارسه المسئول عنه، هيا هيا، لانُضع الوقت.

[تتسع النافذة فجأة وتصبح بمثابة باب فيخرجون منها جميعاً ثم تعود إلى وضعها الأول وتقفل مصراعيها وهى تزعم الرداءه، تعود الحجرة للظلام ويختفى المهدان فى العتمه، ينفتح الباب الأيمن إلى آخره ويظهر فى إطاره بابا وماما تيل].

بابا تيل : لا سيء مريب، لم يكن إلّا صرير الجنادب.
ماما تيل : هل نملك تبيّن أولادنا؟
بابا تيل : نعم ولا ريب، إنهما نائمان في هدوء.
ماما تيل : إني أسمع أنفاسهما.

[ينقفل الباب].

[ستار]

الفصل الثانى

المنظر الثانى: بيت الجنية

[بهو فخم فى قصر الجنية غرباوية، أعمدة من المرمر لها تيجان من الذهب والفضة، سلالم ومقاصير وشرفات إلخ إلخ. يدخل إلى عيانة المسرح من اليمين كل من الهره وقمع السكر والنار وهم فى ثياب بديعة، إنهم خرجوا من حجرة ترسل فيضاً من الأضواء، هى خزانة ثياب الجنية، تلفعت الهره بغلالة بيضاء شفافة فوق قميص لها من حرير أسود، وارتدى قمع السكر ثوباً من الحرير مزدوج اللون. أبيض وأزرق حائل، ولبست النار معطفاً طويلاً قرمزى اللون، مبطناً بالذهب، ووضعت فوق رأسها ريشة متعددة الألوان، يخترقون البهو كله طولاً حتى يبلغوا مقدمة المسرح فتجمعهم الهرة فى مقصورة].

الهرة : من هنا، إننى خبيرة بكل مسالك هذا القصر
الذى ورثته الجنيّة غرباوية عن صاحب اللحية
الزرقاء، لقد ذهبت هى والصبيان لزيارة ابنتها،
فلنغتنم فى غيبتهم آخر دقيقة ننعم فيها بحريتنا،
جمعتكم هنا من أجل أن نبحث معاً هذا الموقف
الذى وجدنا أنفسنا فيه، فهل ينقصنا أحد؟

قمع السكر : ها هو ذا الكلب يخرج من خزانة الملابس.

النار : عجبى! أىّ ثوب هذا الذى يرتديه!

الهره : إنه اصطفى لنفسه رداء الخادم الذى يحرس عربة ساندريللا، لعمرى لقد اختار ما يليق به، لأن له طبع الخدم، فلنختبئ فى هذه الشرفة فإنى لتأخذنى من الكلب ريبة أعجب لها. والأفضل أن لا يسمع ما سأقوله لكم.

قمع السكر : جهد ضائع فقد دلته حاسة السم علينا، انظروا ها هى ذى سريرة الماء تخرج أيضاً من خزانة الملابس، ما أبهى جمالها.

[يلتحق بهم الكلب والماء]

الكلب : [وهو يتواثب] انظروا انظروا إلى جمالنا وبهائنا، إلى هذه الدنتلا وهذه الزركشة، إن خيوطها من ذهب خالص، لا ريب فيه.

الهره : [إلى الماء] يخيل إلى أن ثوبك ليس بغريب علىّ، لقد سمعت وصفه فى أحدوثة للأطفال.

المـاء : نعم نعم، إنى وجدته فوق ذلك أليق الأثواب لى. وجهلت أن لابسة هذا الثوب ينبغى أن تحمل مظلة لا تفارقها.

المـاء : لا أفهم، ماذا تعنين؟

النار : لا سىء، لا شىء.

الماء : [تهزأ بالنار وتعرّض بأنفها] ظننتك تتحدثين عن أنف حمراء متورّمة رأيتها أخيراً..

الهرة : هيا هيّا، كفوا عن النقار والسجار، فأمامنا سيء أفضل نفعله، أصبح لا ينقصنا إلا الرغيف. أين هو؟

الكلب : هو يقيم الدنيا ويقعدها من أجل أن يختار ثوبه.

الهرة : حقّ لمن بدت بلاهته وبرز كرشه أن ينصب ويتخيّر..

الكلب : وأخيراً اصطفى له طيلساناً من لباس الأتراك محلّى بالفصوص وله خنجر وعمامة.

الهرة : ها هو ذا قادم إلينا، إنه اختار أجمل رداء لصاحب اللحية الزرقاء.

[يدخل الرغيف مرتديا الثوب الذى وصفناه هو طيلسان من الحرير قد ضاق بكرشه البارز فلم تنعقد أزراره فوق بطنه إلا بمشقة، للرغيف يد على مقبض الخنجر المثبت على حزامه، واليدالأخرى ممسكة بالقفص المعد للطائر الأزرق].

الرغيف : [وهو يرقص أمامهم فى خيلاء وغرور] والآن، كيف ترونى فى هذا الطيلسان؟

الكلب : [وهو يتواثب حوله] ما أجمله! ما أسخفه. ما أجمله.. ما أسخفه.

الهرة : [للرغيف] وهل ظفر الصبيان بثوبين لهما؟

الرغيف : كان من نصيب السيّد تيلتيل ثوب «عملة الأصبع» سترة زرقاء وسروال أحمر، ومن نصيب الآنسة ميتيل توب ست الحسن والجمال وحذاء ساندريللا. ولكن المشكلة كانت فى اختيار ثوب يليق ببسمة النور.

الهرة : ولماذا؟

الرغيف : لأن الجنيّة أبت من فرط جمال بسمة النور أن تسترها بغطاء، فاحتججت أنا باسم كرامتنا نحن سرائر العناصر الأولى وباسم شرفنا الرفيع وأعلنت فى النهاية أننى أرفض فى هذه الأحوال أن أخرج فى صحبه بسمة النور وهى عارية.

النار : كان ينبغى أن نسترى لبسمة النور ظليلة (أباجور).

الهرة : وبماذا أجابت الجنيّة؟

الرغيف : كانت إجابتها ضربات من عصاها على رأسى وبطنى.

الهرة : ثم ماذا حدث؟

الرغيف : آمنت بحُكْمها صاغراً على الفور ولكن بسمة النور قررت فى آخر لحظة أن تختار ثوباً لونه من ضياء القمر.

الهرة : كفى ترترة، الوقت يتعجلنا، إن المسأله تتعلق بمستقبلنا. قد سمعتم ما قالته الجنيّه من أن نهاية الرحله هى فى الوقت ذاته نهايه عمرنا، فينبغى إذن أن نطيل ما أمكن من أمد هذه الرحلة، بكل حيلة نملكها، ثم هناك مسأله أخرى، ينبغى أن نعنى بمصير أجناسنا ومستقبل ذريتنا.

الرغيف : كلام جميل، الهرة على حق.

الهرة : انصتوا لى: نحن جميع الحاضرين هنا من حيوان وجماد وعنصر لنا سريرة لم يتبيّنها الإنسان بعد، ولذلك بقينا نتمتع بفضلة من الاستقلال ولكن لو عثر الإنسان على الطائر الأزرق فإنه سيعرف كل شىء ويرى كل شىء، ونصبح جميعاً فى قبضته، أسرى رحمته، هذا ما قالته لى صديقة قديمة هى فحمة الليل، إنها أيضاً حارسة أسرار الحياة. فمن مصلحتنا جميعاً أن نمنع - مهما كان الثمن - عثور الإنسان على الطائر الأزرق حتى لو اقتضانا الأمر أن نعرّض حياة الصبيين للأخطار.

الكلب : [فى حق] ماذا تقول هذه البنت؟ أعيدى قولك لو تكرمت لأتبين جليته.

الرغيف : سكوت! لم أعطك حق الكلام، وأنا رئيس هذا الاجتماع.

النار : ومن الذى أسند إليك الرياسه.

الماء : [للنار] سكوت. ما دخلك فى هذا؟

النار : أنا أتدخّل حين أشاء، وليس لملى أن يعترض عليه مسلك.

قمع السكر : [محاولاً المصالحة] من فضلكم، من فضلكم، ينبغى أن نكفّ عن العراك، فالساعه عصيبة، أمامنا قبل كل شيء أن نتفق على خطة نتبعها.

الرغيف : إن رأيى مطابق كل المطابقة لرأى قمع السكر.

الكلب : هذا سخف، لا تنسوا وجود الإنسان، هذه هى المسأله كلها، لا مفر لنا من طاعته والانصياع لرغباته، هذه هى الحقيقة التى ليس غيرها حقيقة أخرى، إننى لا اعترف إلا بالإنسان، فليحيا الإنسان! حياتنا ومماتنا ملك يديه، وفى خدمته، فالإنسان هو مولانا جميعاً.

الرغيف : إن رأيى مطابق كل المطابقة لرأى الكلب.

الهرة : ولكن جُدْ علينا بذكر مبررات قولك هذا.

الكلب : ليس هناك مبررات إنى أحب الإنسان، وفى حبّى كفايه، فإذا تآمرتم عليه فإنى سأخنقكم أولاً ثم أذهب إليه وأفضحكم عنده.

قمع السكر : [يتدخل بلهجه حلوة] من فضلكم، لا داعى لهذا النقاش المرّ، هناك وجهه نظر تسوّغ الفول بأن كلًّا منكما على حق، ولكل رأىٍ ما له وما عليه.

الرغيف : إن رأبى مطابق كل المطابقة لرأى قمع السكر.

الهرة : ألسنا نحن الموجودين هنا جميعاً، الماء والنار، حنى أنت أيها الرغيف وأنت أيها الكلب، ألسنا ضحايا اسبداد غاشم؟ اذكروا العهد الذى كنا قبل مجىء الطغاة ننعم فيه بالحرية ونروح ونغدو كما يحلو لنا على سطح الأرض؟ لم يكن للدنيا من سيد إلا النار والماء، فانظروا كيف كان مصيرهما. أما نحن فلم نصبح على يد الإنسان إلا سلالة هزيلة ممسوخه لأجدادنا العظام: وحوش الغابات. اسكتوا. انتبهوا. تصنّعوا البراءة كأنما لم نجتمع لأمر، فإنى أرى الجنيّة وبسمة النور قادمين نحونا، لقد انحازت بسمة النور إلى صفّ الإنسان، إن بسمة النور ألدّ أعدائنا، ها هما قد أقبلا.

[تدخل الجنيّه من اليمين ومعها بسمه النور وفى أثرهما تيلتيل وميتيل].

الجنية : وَىْ وَىْ، ماذا أرى؟ فيم اجتماعكم فى هذا الركن المنعزل؟ حالكم ينبئ بأنكم تتآمرون، قد

آن أوان البدء فى الرحلة، وقد قررت أن تكون بسمة النور فائدكم تطيعونها جميعاً طاعتكم لى وسأستودعها عصاى السحريه، وسيزور الصبيان هذا المساء أجدادهما الموتى ولا داعى لمرافقتكم لهما، حياءً من الفضول.. سيقضيان هذه الليله بين أحضان الراحلين من أسرتهما فاغتنموا وفت غيابهما وأعدّوا العدة لرحله الغد إنها ستكون مرحلة طويلة، هيّا، انهضوا، وابدأوا العمل، كل واحد منكم فى وظيفته.

الهرة : [سماق] هذا هو عين ما كنت أقوله لهم يا سيّدتى، كنت أحثهم على أداء واجبهم بحرص وحماس ولكن الكلب كان مع الأسف لا ينفك يقاطعنى.

الكلب : ماذا تقول؟ مهلاً، مهلاً، (ويوسك أن يهجم على الهرة ولكن تيلتيل يحدس نيّته فيصده بإشاره مهدّدة)

تيلتيل : ارقد يا تيلو، إذا عدت لهذه الفعله مره أخرى فإنى..

الكلب : يا مولاى الصغير، أنت لا تدرى، إنها هى التى..

هـو : [وهو يرحره] اسكت.

الجنيه : كفى كفى، هيّا نفرغ من ترتيباتنا، على الرغيف

أن يترك الففص هذه الليله لتيلتيل فمن الجائز أن يكون الطائر الأزرق مختبئاً فى طيّات الماضى عند الراحلين من أسرته، إنها فرصه على كل حال لا يحسن إغفالها، وأنت يا رغيف، هات القفص.

الرغيف : [بلهجة مراسيمية] دقيقة واحدة من فضلك، يا سيّدتى، [يتحوّل إلى لهجة خطابية] إننى أتخذ منكم جميعاً شهداء على أن القفص الفضىّ الذى كان فى عهدتى..

الجنيه : [مقاطعة] كفى، كفى شقشقه، سنخرج من هناك، أما الصبيّان فسيخرجان من هنا.

هـو : [وهو شديد التوجس] سنخرج وحدنا؟

هـى : إنى جائعة.

هـو : وأنا أيضاً.

الجنية : [للرغيف] افتح طيلسانك التركىّ واقتطع لهما شريحة من أطيب لحم فى بطنك.

[يفتح الرغيف طيلسانه ويستل خنجره ويقطع به من بطنه شريحتين كبيرتين يمنحهما للصبيين]

شمع السكر : [يقترب من الصبين] اسمحا لى أن أقدم لكما أيضاً شيئاً من حلوى نبوت الخفير [يكسر من يده اليسرى أصابعها الخمس واحداً بعد آخر ويمنحها للصبيين].

هـو : مادا يفعل؟ إنه يكسّر أصابعه كلها.

قمع السكر : [وهو يحبهما بكرم] هيّا، ذوقاها، إنها حلوى بديعه، نبوت خفير بحق وحقيق...

الجنيه : حذار يا ولديّ من الإفراط فى أكل السكر ىم لا تنسيا أنكما ستتناولان العساء بعد قليل عند أجدادكما.

هـو : أهم هنا؟

الجنية : ستريانهما وسكاً.

هـو : وكيف نراهم وهم موتى؟

الجنبة : كيف تقول عنهم موتى وهم يعيسون فى ذاكرتكما، إن الناس لا يدركون هذا السرّ لأنهم لم يبلغوا من العلم إلا قليلاً، أما أنت فسترى بفضل الماسة أن الموتى الباقين فى الذاكره يعيسون فى هناء كما لو كانوا غير موتى.

هـو : وهل سيأتى بسمه النور معنا؟

بسمة النور : من الأليق أن لا نفسد على الأسره خلوتها إذا اجتمعت، وسأبقى قريباً فلا أظهر لهم حتى لا أتهم بالفضول وقله الحياء، ىم لا تنس أننى لم أتلق منهم دعوة.

هـو : من أى طريق ينبغى أن نذهب؟

الجنيه : من هناك، أنتما الآن على عتبه أرض الذكريات،

وحالما تدير الماسة سترى سجرة سامقة عليها
لافته فتفهم منها أنك فد وصلت ولكن إياكما أن
تنسيا العوده فى الساعه التاسعة إلا ربعاً، هذا
سىء فى غايه الأهمية، فاحرصا فبل كل سىء
على العوده فى الموعد المحدّد، وسضيع كل شىء
هباء إذا تأخرتما، فإلى اللقاء إذن، [تنادى الهره
والكلب وسمه النور إلخ إلخ] أنتم من هنا، والصبيّان
من هناك.

[يخرج من اليمين مع نسمه النور ورمره الحيوان إلخ إلخ
ويخرج الصبيّان من اليسار]

[ستار]

المنظر الثالث

أرض الذكريات

[ضباب كثيف، على اليمين فى مقدمة المسرح جذع شجرة بلوط ضخمة، معلق عليها لافتة، الضوء كاللبن المسكوب، غامض عبر شفاف تيلتيل وميتيل عند جذع الشجرة]

هـو : هذه هى الشجرة.

هـى : وعليها اللافتة.

هـو : عينى لا تستطيع قراءتها، انتظرى، سأصعد فوق هذه الجذور، نعم، هى المقصودة حقًا، فمكتوب عليها «أرض الذكريات».

هـى : وهل تبدأ هذه الأرض من هنا.

هـو : نعم، هناك رسم سهم يشير إليها.

هـى : ولكن أين جدّى وجدّتى؟

هـو : من خلف الضباب، فلنصبر حتى نرى.

هـى : إنى لا أرى شيئًا، بل لم أعد أرى يدىّ وقدمىّ [بلهجة متباكية شاكية] أحس بالبرد يقرصنى، ولا أريد متابعة الرحلة، أريد أن أعود للبيت.

هــو : سدّى حيلك، أهكذا دأبك، البكاء، كما تفعل صاحبتنا الماء، ألا تخجلين؟ فتاة شابة مثلك؟ انظرى، ها هو ذا الضباب ينقشع، وسنرى ماذا كان يخفيه عنّا.

[يبدأ الضباب فعلا فى التموج، فيرق ويشف، ويتبدد ويتبخر، ويحل محله ضوء يزداد سطوعه شيئًا فشيئًا، يتكشف تحت سقيفة من الأغصان بيت ريفى صغير ينطق بالبشر، تغطيه نباتات متسلقة، النوافذ مفتوحة، وكذلك الباب، ونرى تحت عريشة خلايا نحل، وأصص زهر على حافة النوافذ، وقفصا به شحرور أسود قد أغفى، وبجانب الباب دكة يجلس عليها شيخ وزوجه العجوز، كلاهما مستغرق فى نوم عميق هما الجد والجدة]

تيلتيل : [يعرفهما فجأة] هذا جدّى، وهذه جدتى.

ميتيل : [تصفق طربًا] نعم، هو جدّى، وهذه جدتى.

هــو : [وبعض الشك لا يزال يساوره] أحذرى، فلسنا ندرى هل هما قادران على الحركة فلنختبىء وراء الشجرة.

[تفتح الجدة تيل عينيها وترفع رأسها وتتمطى وتتنهد، وترمق الجد تيل وهو ينفلت من قبضة النوم قليلًا قليلًا]..

الجدة : قلبى يحدثنى أن حفيدينا سيزوراننا اليوم من عالم الأحياء، لاشك.

الجد : لاشك أننا خطرنا على بالهما بدليل خفقان قلبى وخدر ساقىّ.

الجده : أظن أن وصولهما قد اقترب لأن دموع الفرح تترافص أمام عينى.

الجد : كلا كلا، هما لا يزالان على بُعد وإلّا لدبّت الهمة فى بدنى.

الجدة : أؤكد لك أنهما أصبحا بالقرب منا، فها هى قواى تعود إلى كلها.

سلتيل : [وهما يندفعان نحوهما من وراء الشجرة]

وميتيل ها نحن قد جئنا، ها نحن قد جئنا، يا جدّى، يا جدتى. نحن حفيداكما، نحن حفيداكما.

الجد : ها هما قد وصلا. ألم أقل لك؟ كنت واثقًا أنهما سيحضران اليوم.

الجده : تيلتيل، ميتيل حفيداى [تحاول النهوض لتسبقهم فى اللقاء] لا استطيع الجرى فلم يفارقنى الروماتزم.

الجد : [يحاول الجرى وهو يعرج] وأنا أيضًا عاجز عن الجرى على ساقى الخشبية، أين هى من ساقى التى انكسرت يوم سقطت من على شجرة البلوط.

[يشترك الحفيدان والجدان فى عناق حار].

الجدة : شدّ ما قوى عودك ونما ياتيلتيل.

الجد : [وهو يربتّ على شعر ميتيل] وميتيل، انظرى إليها!

برنك ما أجمل سعرها، وما أجمل عناها، سم سذى عرفها، ما أطيبه!

الجدة : هيا نتعانق مرة أخرى، تعالا اجلسا فى حجرى. وأنا؟ ألم يبق لى نصيب؟

الجد : كلّا كلا، أنا أوَّلا، كيف حال بابا وماما.

هـو : على أحسن حال يا جدنى، كانا نائمين حين خرجنا.

الجدة : [وهى ترممهما ولا تكفّ تربّت عليهما] تالله ما أبهى جمالكما، وظرفكما ونظافتكما، وجواربكما غير ممزقة، قد كنت أنا من قبل أقوم برفوها، لماذا لا نواليان زيارتنا؟ فإن هذا سّرنا كسرًا امد نسيانكما لنا سهورًا طويلة، ولم نعد نرى أحدًا منكما.

هـو : لم نكن نقدر يا جدّتى، وإذا كنا قد جئنا اليوم فذلك بفضل الجنية.

الجدة : نحن هنا دائمًا نترقب من الأحياء زياره ولو قصيرة، إنهم لا يحضرون إلا نادرا، فآخر مرة جئتما فيها.. دعونى أتذكر، متى كانت؟ نعم كانت فى عيد جميع القديسين حين كانت أجراس الكنائس تدق أنغامها.

هـو : عبد جميع الفديسبن؟ إننا لم نخرج ذلك اليوم بسبب الزكام.

الجدة : نعم ولكن زارنا فكركما.

هـو : نعم، كنا نفكر فيكما.

الجدة : فى كل مره تفكران فبنا نستيقظ ونراكما من جديد.

هـو : كيف؟ أيكفى أن..

الجدة : بلا ريب، أنت تعلم هذا..

هـو : كلا، لا أعلم.

الجدة : [للجدّ] ما أعجب حال أهل الدنيا! إنهم لا يعرفون هذا! هل عجزوا عن الإدراك..

الجد : كنا مثلهم فى عهدنا، ما أغبى حديث الأحياء عن الراحلين.

هـو : أكنتما نائمبن طول الوقت؟

الجد : نعم، نحن نبقى نائمبن ننتظر أن يمر ذكرنا ببال أحد الأحياء فنستيقظ، ما أحلى النوم حبن تولىّ الحياه ولكن ما أحلى اليفظه أيضًا بن الحبن والحين.

هـو : فأنت لست بميت حقا، وكذلك جدتى.

الجد : [وهو يفز] ماذا تقول؟ ماذا يفول؟ ها هو ذا

ينطق بكلمات لم نعد نفهمها، أهى كلمه مستحدثة أم اختراع جديد.

هــو : تعنى كلمة «مست»؟

الجد : نعم هذه الكلمه ما معناها؟

هــو : معناها ينطبق على كل من انتهت حياته.

الجد : ما أغباهم أهل الأرض.

هــو : أأنتم فى راحة هنا؟

الجد : لا بأس، لا بأس، وحبذا أيضًا لو أتيح لنا التدخين.

هــو : أغير مسموح لك به؟

الجد : نعم، التدخين مباح ولكنى كسرت غليونى[1].

الجدة : سنكون بخير إذا أكثرتما من زيارتنا، أتذكر يا تيلتيل آخر مرة أعددت لك فيها فطيرة تفاح جميلة وكيف أفرطت فى الأكل منها حتى مرضت.

هــو : لم آكل فطيرة تفاح منذ العام الماضى وليس لدينا تفاح هذا العام.

الجد : كفى هراء، التفاح موفور هنا.

(١) نقلت هذه الفقرة من الترجمة الانجليزية لأنها فى الأصل الفرنسى واردة على صورة لاتتسق مع بقية الحوار.

هـو : الأمر يختلف.

الجد : كيف يختلف؟ لا يختلف ما دمنا نتعانق.

هـو : [وهو ينقل نظره بين الجد والجدّة] سككلك يا جدّى لم يتغير، وكذلك جدتى، بل قد زدتما وسامه وجمالا.

الجد . لا بأس بحالنا، لم نعد نتقدم فى العمر فنكبر، أما أنتما فما كان أسرع نموكما، إنه نموّ مليح. التفت إلى الباب، عليه علامه قياس طولك آخر مرة، يوم عيد جميع القديسين، فلننظر الفرق، سد قامتك [تيلتيل يستند إلى الباب ويشد قامته] الفرقه أربعة أصابع، يالها من طفرة هائله، [ميتيل تشدّ قامتها هى الأخرى] وميتيل؟ أربعه أصابع ونصف أصبع، ما أسرع نموّ النباتات الشيطانية، عجبى لطولكما، عجبى لطولكما.

هـو : [يتأمل فيما حوله بمتعة وانبهار] كل شىء هنا باقٍ كما كان، كل شىء فى موضعه، وإن ازداد جمالاً، هذه هى الساعة وعقربها الكبير الذى كنت كسرت رأسه.

الجد : وهذا هو قدر الحساء الذى كنت كسرت طرفه.

هـو : وهذا هو الخرم الذى أحدثته بالباب يوم وقع المثقاب فى يدى.

الجد : نعم، ما كان أكثر اتلافك، وهذه هى شجره

البرفوق التى كنت تحب تسلّقها حين أغيب..
إنها لا تزال تجود بثمر أحمر سهىّ.

هـو : ولكنه ازداد جمالا.

هـى : وهذا هو الشحرور الهرم.. ألا يزال يغُنى.

[يستيقظ الشحرور وينطلق فى الغناء]

الجدة : أرأيت؟ أنه يغنى على الفور حين يمر ذكره ببال.

هـو : [يلحظ بدهشة أن الشحرور لونه أزرق] ان لونه أزرق، اذن هو الطائر الأزرق الذى ينبغى أن آتى الجنيه به، كيف سكتما عن اخبارى أنه عندكما. نعم. نعم. أنه أزرق اللون، يسبه الزرقاء من الحبّات الزجاجية التى نلعب بها، [يستعطف الجدّ والجدّة] يا جدى، يا جدتى، هل لكما أن تسمحا باعطائه لى.

الجد : نعم، ربما، ربما، ما رأيك يا ستّى؟

الجدة : نعطيه ولا ريب، فما نفعه هنا. لا صنعة له إلا النوم، فلا نسمع له شدوًا.

هـو : سأضعه فى قفصى، ويّ، أين هو قفصى؟ نعم، لقد نسيته خلف الشجرة. [يجرى إليها ويعود بالقفص ويحبس فيه الشحرور] أحقا سمحتما به هديةً لا تسترد؟ ستسر به الجنية. أما عن بسمة النور فلا تسألنى عن فرحتها حين تراه.

الجد : ليكن فى علمك أننى لا أضمنه، وأخسى أن لا يألف من أهل الأرض اضطراب حياتهم فيركب أولّ ريح يهب إلينا ويعود، على كل حال سنرى ماذا يكون من أمره، أما الآن فدعه إلى حين، وتعال نلقى نظره على خلابا النحل(١).

هو : [وهو يلحظ حلايا النحل]: وكيف حال النحل.

الجد : لا بأس بحالها، لعل أهل الأرض يقولون عنها ماتت أيضًا ولكنها لا تزال هنا تعمل بنساط.

هو : [يقترب من الخلايا] نعم، أنى أسمّ رائحة العسل، لا ريب أن الخلايا عامرة، فكل الأزهار هنا جميلة، وشقيقانى اللآتى متن، أهن هنا أيضا.

هى : وأسفائى الثلاثة الذين واريناهم التراب. أين هم ؟

[ما تكاد تنطق بهذه العبارة حتى ينفلت من باب الكوخ واحدًا إثر آخر سبعه من الأولاد يختلفون طولا، يحمل كل منهم مزمار (بان) رمز الطبيعه بين أرباب الأغريق وهو لا يرسم إلا بمزماره].

الجدة : ها هم أمامكما، حالما يمرّ ذكرهم ببالكما أو ينطق

---

(١) تلقى نظرة على البقره، هكذا فى الأصل والترجمه الانجليزيه، وأظنها غلطه مطبعيه للتشابه فى الفرنسية بين كلمة «بقرة، وكلمه خلايا» إذ لم يرد للبقره ذكر فيما بعد.

باسمهم لسانكما فإنهم يظهرون، ما أعز أولادى جميعًا.

[تيلتيل وميتيل يجريان للقاء أحوتهم ويشيع التراحم والتعانق والرقص والدوران وهتافات الفرح]

هـو : تعال يا بيرو، [يشدّ كل منهما شعر أحيه] سنتعارك كما كنا نفعل فى الايّام الخوالى، وأنت يا روبير، أنعم صباحًا يا جان، أين نحلتك التى تلعب بها ؟ مادلين، بيريت، بولين، هاهى ريكيت.

هـى : ريكين، ريكيت، إنها لا تزال تحبو على اليدين والقدمين.

الجدة : نعم، لم تكبر.

هـو : [يلحظ الكلب الصغير وهو يسح حولهم] ها هو كيكى، كنت قطعت ذيله بمقص بولين. أنه لم يتغير أيضًا.

الجدة : [فى لهجة الحكيم] لا سىء يتغير هنا.

هـو : ولا يزال على أنف بولين دملها.

الجده : إنه ضيف نبيل، لا يرحل ولا نستطيع طرده..

هـو : ما أبدع صحتهم وامتلاء أبدانهم وصفاء بشرتهم وتورد خدودهم لا ريب أنهم ينعمون بطعام وفير.

الجدة : صحتهم تحسنت مذ فارقتهم الحياة فقد نجوا من معاناه الخوف والمرض والقلق.

[تدق الساعة فى الكوخ ثمانى دقات]

الجدة : [فى دهشة] ما هذا؟

الجد : لَعْمرى لست أدرى، لابد أنها الساعة.

الجدة : هذا مستحيل، إنها لم تدق قط من قبل.

الجد : نحن لم نفكرّ فى الساعة، فهل فكرّ فيها أحد منكما.

هـو : نعم، أنا، كم الساعة الآن.

الجد : لست أدرى وربى، لم نعد نبالى بالوقت، وقياسه، لقد دقت ثمانى مرات، لابد أنها الساعة الثامنة فى حساب أهل الأرض.

هـو : إن بسمه النور تنتظرنى فى الساعة التاسعة إلا ربعًا، هذا هو أمر الجنية، إنه موعد هام فلا بدّ لى من أن أنصرف.

الجده : أيرضبك أن تتركنا وقد حان موعد العشاء، فلنعدّ المائدة فورًا أمام الباب، من حسن الحظ أننى كنت أعددت من الكرنب حساءً بديعًا وكذلك فطيره برقوق.

هـو : ولم لا ما دمت قد ظفرت بالطائر الأزرق، ثم إن حساء الكرنب لم أذقه منذ عهد طويل فهذا هو حال المسافر ملى، أنه طعامٌ لا يقدم فى الفنادق.

الجدة : ها هو الحساء، فد تمّ إعداده، هيّا إلى المائده
يا أولادى، إن كنتم تستعجلون الذهاب
فلا تضيّعوا الوقت.

[أسعلوا المصباح وفد حل المساء وحلس الأحفاد مع الحدين
حول مائدة العشاء وهم يتراحمون ويلكر نعصهم نعصاً ويعالى
صحكهم وصيحات فرحهم]

هـو : [يأكل سراهة] ما الذّه من حساء، ياله من حساء
لذيذ، مزيداً منه، مزيداً منه.

الجد : يا للعيب! اهدأ فلىلاً، لا زلت كعهدى بك سيئ
الأدب، إنك ستكسر طبقك.

هـو : [يبهض بصف بهوص من على مقعده] أريد المزيد.
[يمسك بالقدر ويسحبها نحوه فيقلبها ويندلق الحساء فوق
المائده ويتساقط على ركب الأطفال ويحرقها فيصرخون من
الألم]

الجده : أرأيت؟ ألم أحذرك؟

الجد : [وهو يهوى على حد تيلتيل بصفعة رنانة] هذا جزاؤك..

هـو : [يتحادل لحظة ثم يصع يده على خدّه متلدداً] هكذا كانت
صفعاتك حين كنت تضربنا وأنت حى بيننا،
ما أبركها، وما ألذّها، ينبغى أن أقبل اليد التى
صفعتنى..

الجد : طيّب طيّب، عندى منها المزيد إذا أحببت.

[تدق الساعه النصف بعد الثامنة]

هـو : [وهو يمرّ] الثامنة والنصف، [يمدف بالملعقة] هيّا، لم يبق أمامنا إلا الوقت الذى يلزمنا.

الجدة : أبجمل بك هذا، اصبر بضع دقائق، فبيتكم لم يندلع فيه حريق، نحن لا نراكما إلا نادراً.

هـو : كلا، لا أستطيع فإن بسمة النور طيبة القلب، وقد وعدتها، هيا يا ميتيل، هيا.

الجد : عجبى للأحياء، لا يخرج من يدهم إلا إزعاج الغير، متعلّلين بأشغالهم واضطراب أيامهم.

[يأخذ تيلتيل القفص ويدور على الجميع يعانقهم بعجلة]

هـو : الوداع يا جدّى، الوداع يا جدتى، الوداع يا إخوتى وأخواتى، بيرو، روبير، بولين، مادلين، ريكيت وأنت أيضاً يا كيكى، إن مقامنا بينكم قد آذن بالانتهاء، لا تبك يا جدتى، سنأتى لزيارتكم مراراً.

الجدة : تعالَ كل يوم ومعك أختك.

هـو : نعم، نعم، سنعود ما أمكننا.

الجدة : هذا هو كل ما بقى لنا من أسباب الفرح، ويوم يمر ذكرنا ببالكما هو عندنا يوم عيد.

الجد : هذه هى تسليتنا الوحيدة.

هـو : البدار! البدار! أين القفص؟ أين الطائر؟

الجد : [يعطيه القفص] ها هو دا، ليكن مفهوماً أنى لست ضامنه ولا ضامن صدق لونه.

هـو : الوداع، الوداع.

الإخوة والأخوات: الوداع يا تيلتيل، الوداع ياميتيل، لا تنسيا أن تجيئا لنا بحلوى، عودا إلينا، عودا إلينا.

[يلوح الجميع لهما بمناديلهم على حين يبتعد الصبيان بطء ويحدث أثناء الفقرات الأخيرة من الحوار السابق أن الضباب الذى شاهدناه فى مطلع المنظر يعود فينعقد وتخفت الأصوات وتختفى المرئيات كلها إلا تيلتيل وميتيل وهما واقفان والستار يهم بالنزول عند شجرة البلوط الضخمة]

هـو : من هنا الطريق يا ميتيل.

هـى : أين بسمة النور؟

هـو : لست أدرى، [ينظر إلى الطائر فى القفص] عجبى! لم يبق له لونه الأزرق، أصبح أسود اللون.

هـى : خذ بيدى فأنا فى شدة الخوف والبرد.

[ستار]

الفصل الثالث

المنظر الرابع: قصر فحمة الليل

[بهو فسيح رائع، له فخامة تنطق بالجد والصرامة ووقار الأضرحة، واشتركت مختلف المعادن في إقامته، يخيل لرائيه إنه بإزاء معبد إغريقي أو فرعوني، أعمدته وعمودها وكذلك زينته وكساء أرضه من المرمر الأسود، والذهب والأبنوس، البهو على هيئة مستطيل ضلعاه الأقصيان متوازيان والأمامي أطول من الخلفي، وضلعاه الجانبيان غير متوازيين، درجات السلم الذي تسلمه تكاد تشغل عرضه كله، وتقسمه إلى ثلاثة مسطحات تؤدي إلى غاياته، الواحد منها يرتفع عن سابقه قليلاً، بين الأعمدة على اليمين واليسار أبواب من البرونز الداكن، وفي وسط البهو من ناحية الخلف باب ضخم من النحاس، لا يعم البهو إلا ضوء غامض كأنه مستمد في أغلبه من بريق المرمر والأبنوس، ويرى عند رفع الستار «فحمة الليل» على هيئة امرأة رائعة الجمال ترتدي ثوباً أسود طويلاً، جالسة على درج المسطح الثاني، يحف بها طفلان، أحدهما يكاد يكون عارياً شأن كوبيد رسول الحب عند الإغريق أما ثانيهما فواقف جامداً، تغطيه غلالة من رأسه إلى أخمصيه، تدخل الهرة من على اليمين في مقدمة المسرح]

فحمة الليل : من القادم؟

الهرة : [وهي تتهاوى من الإعياء على درج السُلَّم المرمري] أنا يا أمي، قد هدني التعب.

فحمة الليل : ماذا بك يا بنيتي، لقد بدا عليك الشحوب والهزال وتلطخ بالطين جسدك حتى شواربك

فهل عدت للعراك على الأسطح بين المزاريب تحت الثلج والمطر؟

الهرة : ليس الشأن شأن أسطح ومزاريب، بل شأن جلل يهدّد السرّ الذى بيننا. لقد نجحت فى الهرب لحظة لأطير إليك بالخبر، ولكن أخشى أن يكون الأمر قد خرج من يدنا.

فحمة الليل : ماذا تقولين؟ ما الذى حدث؟

الهرة : سلف لى أن حدثتك عن تيلتيل ابن الحطّاب وعن الماسة السحرية، إنه سيحضر إليك ليطلب منك الطائر الأزرق.

فحمة الليل : دعه يجرى وراءه.

الهرة : ولكنه سيظفر به عما قريب إن لم نصنع معجزة، سأقص عليك ما جرى، إن بسمة النور التى تقود خطى تيلتيل وتخوننا جميعاً قد انضمت قلباً وقالباً إلى صف الإنسان، وقد علمت بسمة النور أن الطائر الأزرق الصادق لا الزائف والوحيد الذى يقوى على العيش فى ضوء النهار مختبئ هنا بين أشباهه فى اللون من طيور الأحلام التى تستمدّ غذاءها من ضوء القمر وتموت حالما ترى الشمس، وبسمة النور على علم بأن اجتياز عتبة هذا القصر محرّم عليها ولكنها سترسل الصبيين

بدلاً منها، وإذا كنت أنت لا تستطيعين صدّ الإنسان عن فتح أبواب أسرارك فلا أدرى ما الحال. لأنه إذا حلّت النكبة وفاز الصبيان بالطائر الأزرق فلا سبيل لنا إلا أن نختفى.

فحمة الليل : يا إلهى، يا إلهى، ماذا جرى للدنيا؟ فى أى زمن أصبحنا نعيش؟ لم أعد أنعم بالراحة لحظة واحدة وعجزت فى السنوات الأخيرة عن فهم الإنسان. ما غرضه؟ أحتم له أن يعرف كل شيء؟ لقد نجح إلى اليوم فى أن يهتك من أسرارى ثُلثَها، فالمخاوف التى أطلقها أصبحت بدورها خائفة، ولا تجرؤ على الخروج للناس، والأشباح التى استخدمها قد هربت وأغلب الأمراض التى أنشرها قد أقعدتها العِلَلْ.

الهرة : أعلم هذا يا أمى فحمة الليل. وأعلم أن الزمن عصيب، إننا نكاد ننفرد وحدنا فى خوض غمار المعركة ضد الإنسان، ولكن ها أنذا أسمع خطو الصبيين يقترب، فلا أجد أمامنا إلا حلّاً واحداً ينبغى – لأنهما فى مرحلة الطفولة – أن نقذف فى قلبيهما من الرعب ما يسلبهما الشجاعة على المضىّ فى سبيلهما أو على فتح الباب الكبير فى نهاية البهو للوصول إلى طيور القمر التى تختفى

وراءه. أما أسرار بمية الكهوف فهى كفيلة بأن تزيغ بصرهما أو تزلزل من الرهبة فلبيهما.

فحمه الليل : [وهى تسترق السمع إلى صحه فى الحارج] ماذا أسمع؟ إن الفادمين أكبر من اثنين.

الهرة : لا تخش سيئاً، إنهم أصدفاؤنا، الرغيف وقمع السكر، أما الماء ففد أقعدها المرض والنار عاجزة عن المجىء لأنها تمُتّ بنسب إلى بسمه النور أما الكلب فهو وحده الذى ليس من حلفائنا، وهيهات لنا أن نهرب من ملاحفته.

[تيلتيل وميتيل والرغيف وقمع السكر والكلب يدخلون نتهيب من اليمين عند مقدمه المسرح].

الهرة : [تسارع إلى التقدم للقاء تيلتيل] من هنا، من هنا، يا سيّدى الصغير، لفد أنبأت فحمة الليل بمقدمكم وفد سرّها كل السرور أن تستفبلكم، واعذروها إذا هى لم تسارع إلى باب القصر للحفاوة بكم فإن بها وعكة خفيفة.

هـو : طاب صباحك سيّدتى فحمة الليل.

فحمه الليل : [بصوت محنق] طاب صباحي؟ هذا كلام لا أستسيغه، وكان ينبغى أن تقول «طابت ليلتك» أو على الأقل «طاب مساؤك».

هـو : [وهو خجل من دنبه] عفواً سيّدتى، كنت أجهل هذا

[يشير بأصبعه إلى الطفلين الملازمين لفحمة الليل] أهما
ابناك الصغيران؟ ما ألطفهما.

فحمة الليل : نعم، الأول هو السبات.

هـو : ولماذا هو جدّ سمين؟

فحمة الليل : لأنه يسبع من النوم.

هـو : وهذا الآخر المتستّر. لماذا يحجب وجهه؟
ما علته؟ ما اسمه؟

فحمة الليل : إنها بنت، هي أخت السبات ومن الخير أن
لا أذكر لك اسمها.

هـو : ولمـاذا؟

فحمة الليل : لأن اسمها تنفر منه الأذان، دعنا نتكلم فى
مسألة أخرى، لقد انبأتنى الهرّه أنك جئت
تبحث عن الطائر الأزرق.

هـو : نعم سيّدتى، فهل لك إن أذنت أن تخبرينى أين
هو؟

فحمة الليل : لا أعرف عنه سيئاً، يا صديقى العزيز، غاية
ما أستطيع أن أؤكد لك أنه ليس موجوداً هنا
وأننى لم أره قط.

هـو : لا. لا. لقد أخبرتنى بسمة النور أنه هنا. وهى
على ما تقول أمينة، فهل لك أن تعطينى
مفاتيحك.

فحمة الليل : ولكن يا صديقى الصغير أنت تدرك ولا ريب
أننى لا أستطيع أن أسلم مفاتيحى لأول قادم.
فإنى قيّمه على كل أسرار الطبيعه وأنا مسئوله
عنها. ومحرّم عليّ كل التحريم أن أعهد بمفاتيحى
إلى أحد فما بالك إذا كان طفلاً.

هـو : ليس لك الحق فى حجزها عن الإنسان إذا
طلبها، إنى على علم بهذا.

فحمه الليل : من الذى قال لك؟

هـو : بسمة النور.

فحمة الليل : بسمة النور مرة أخرى، بسمة النور دائماً أبداً،
ما دخلها فى هذا؟

الكلب : أتحب يا مولاى الصغير أن أنتزع منها المفاتيح
عنوة؟

هـو : الزم الصمت والهدوء وحسن الأدب [إلى فحمه
الليل] لا داعى للجدل سيّدتى، اعطنى المفاتيح
من فضلك.

فحمة الليل : هل لديك العلامة على الأقل، أين هى؟

هـو : [يلمس فمه قلنسوته] أترين الماسة؟

فحمة الليل : [وقد أسقط فى يدها] أمرك، ها هو ذا مفتاح كل
أبواب البهو، ذنبك على جنبك، إذا أصابك سرّ.
فإنى بريئة مما يحدث لك.

الرغيف : [فى هلوع شديد] أثمه أخطار؟

فحمة الليل : أخطار؟ غاية القول أننى أنا نفسى لا أدرى كيف أسلمُ حين ننسق بعض هذه الأبواب البرونزية عن الهوَّه، وراءها، فهناك حول البهو فى كل كهف من كهوف البازالت مجمعُ كل علّه وكل بلاء وكل مرض وكل أنواع الرعب وكل المحن والأرزاء، وكل تدبير خفى تعانى منه الحياة. منذ الخليقه وليس إلا ببذل غاية الجهد إن استطعت حبسها فى مخابئها بعون من «القدر»، وأؤكد لك أننى أجد أكبر المسفة فى أن أفرض شيئاً من النظام على هذه الكائنات الهوج المتمرده، فأنت سترى رأى العين مادا يحدث حين يهرب أحدها وينفلت إلى سطح الأرض.

الرغيف : إن تطاول عمرى وتجربتى وإخلاصى تؤهلنى بطبيعة الحال لأن تسند إلىّ حمايه هذين الصبين، من أجل هذا، سيّدنى فحمه الليل، اسمحى لى أن أوجه إليك سؤالاً.

فحمة الليل : هاته.

الرغيف : إذا حاق بنا خطر فمن أىّ ناحية نهرب؟

فحمة الليل : لا وسيله للهرب.

هــو : [يأخذ المفتاح ويصعد أول الدرج] لنبدأ من هنا، هذا الباب البرونزى ما وراءه ؟

فحمة الليل : وراءه الأشباح فيما أعتقد لقد مضى زمن طويل منذ أن خرجوا حين فتحت لهم الباب آخر مرة.

هــو : [يضع المفتاح فى القفل] سأرى [إلى الرغيف] قفص الطائر الأزرق. أين هو ؟

الرغيف : [أسنانه تصطك] لا أقول هذا لأننى خائف ولكن ألست ترى من الأفضل أن لا نفتح الباب وأن نكتفى باختلاس نظرة من ثقب القفل ؟

هــو : لم أطلب مشورتك.

ميتيل : [تنفجر بالبكاء فجأة] أنا خائفة. أين قمع السكر ؟ أريد أن أعود للبيت.

قمع السكر : [يقترب منها وهو مهموم لها ومحتف بها] إننى هنا بجانبك يا آنسى، كفكفى دمعك، سأقطع أحد أصابعى وأهبك حلوى نبوت الخفير.

هــو : فُضّوها وخلّصونا،

[يدير المفتاح فى القفل ويجذب الباب بحذر وحالما يفعل تنفلت خمسة أو ستة أشباح لكل منها هيئة عجيبة تختلف عن هيئة الآخر، وتنتشر فى كل جانب، يُلقى الرغيف من الرعب بالقفص ويختبئ فى غيابة البهو وتقوم فحمة الليل بمطاردة الأشباح وهى تصرخ فى وجه تيلتيل].

فحمة الليل : اسرعوا اسرعوا، اغلقوا الباب وإلا خرجوا جميعًا ولم نستطيع أن نقبض عليهم. إنهم فى محبسهم يعانون الملل منذ أَلِف الإنسان أن يهزأ بهم [تطارد الأشباح وتحاول أن تسوقهم إلى باب محبسهم مستعينة بسوط على شكل أفعى] أعينونى، أعينونى، من هنا، من هنا.

هــو : [إلى الكلب] أعِنها يا تيلو، هيّا.

الكلب : [وهو يقفز وينبح] نعم. نعم. نعم.

هــو : الرغيف، أين هو؟

الرغيف : [من مخبئه فى غيابة البهو] إننى هنا، بجانب الباب حتى أمنع بقيتهم من الخروج.

[وحين يتقدم أحد الأشباح إلى ناحيته نراه يهرب منه جرياً وهو يطلق صيحات مرتعبة].

فحمة الليل :[إلى ثلاثة أشباح قبضت على أعناقهم] أما أنتم فمن هنا، [إلى تيلتيل] وارب الباب قليلاً، [تدفع بالأشباح إلى الكهف] لا خير من بقائهم هناك، [الكلب يسوق شبحين آخرين إلى المحبس] هيّا ادخلا أنتما أيضاً، أنتم تعلمون أن لا خروج لكم إلا يوم عيد جميع القديسين [تقفل الباب].

هــو : [يذهب إلى باب آخر] وماذا وراء هذا الباب!

فحمة الليل : وما جدوى بحثك؟ لقد قلت لك إن الطائر الأزرق لم يأت هنا قط، ولكن الأمر أمرك، افتحه إن كان هذا يروقك. ستجد من ورائه الأمراض.

هــو : [والمفتاح فى القفل] أينبغى الاحتراس منها حين أفتحه؟

فحمة الليل : لا تتعب نفسك، إنها يا ولداه صغيرة مسكينة هادئة مستخذية لا تعرف طعم السعادة فإن الإنسان يشن عليها منذ زمن غاراته العنيفة وبالأخص منذ أن اكتشف الميكروب، فافتح إذن لترى بنفسك.

[تيلتيل يفتح الباب على مصراعيه فلا يرى شيئاً].

هــو : أهم لا يخرجون!

فحمة الليل : لقد سلف لى أن أخبرتك، فأغلبها قد أقعدته العلة وقلة الهمّة، لأنها لم تجد فى قلوب الأطباء أقلّ ذرة من الرحمة، فادخل لحظة فسترى بعينك.

هــو : [ما يكاد يدخل حتى يخرج] لم أجد الطائر الأزرق، إن الأمراض بادية العلّة لم تقوّ حتى على رفع رءوسها.

[مرض صعير في مباذله من نياب المرل حف وعناءه وطافيه من المطى بحرح ويذرع البهو حيئه ودهاباً].

هـو : انظروا، هذا مرض صغير فد هرب، مَنْ هو ؟

فحمة الليل : انه أصغرهم ولا خطر له، هو الزكام. إنه أفلّهم لقاءً للاضطهاد، وأوفرهم عافيه. [تنادى الركام] تعالَ هنا يا ولدى، قد بكّرت فى الخروج فبل أوانك، ينبغى لك أن تنتظر حلول الربيع.

الزكام : يعطس ويسعل ويمسح أنفه ويعود إلى الكهف فيغلق تبلتيل بابه.

هـو : [يتجه إلى الباب المجاور] لنرَ حكايته، وما وراء هذا الباب ؟

فحمة الليل : احترس. وراءه الحروب، إنها بلغت اليوم ما لم تبلغه من فبل من الضراوة والعنفوان، الله وحده يعلم ماذا عسى أن يحدث لو هربت واحدة منها ولكنها لحسن الحظ مفرطة البدانة من أتر التخمة، نقيلة الحركة، فلنتساند جميعاً ونستعد لصدّ الباب وأنت تواربه لتلقى نظرة عجلى إلى ما وراءه.

[تيلتيل يأخذ كل حذره وهو يوارب الباب بحيث لا ينفرج إلا بأقل فدر يبيح له أن يصوب من حلاله نظره، فما يكاد يفعل حى يقوس ظهره من شده الجهد وهو يصد الباب ويصرخ].

هـو : أسرعوا أسرعوا أسرعوا، صدوّا الباب فى وجوههم، قد رأتنى فأقبلت هاجمة على الباب تريد أن تقتحمه.

فحمة الليل : هيّا بنا جميعا نصدّ عليها الباب بقوّة، وأنت يا رغيف، ماذا دهاك؟ ماذا تفعل؟ تعالَ معنا نصدّ الباب جميعاً فما أسدّ فوّتها، ها قد نجحنا، إنها قد استسلمت، جاء نجاحنا فى آخر فُرصة، [إلى تيلتيل] أرأيت؟

هـو : نعم، ما أشدّ ضخامتها وما أبشع منظرها، لا أظن أن الطائر الأزرق عندها.

فحمة الليل : لا ريب أنه ليس عندها، وإلّا لكانت التهمته على الفور، هل قنعت الآن؟ ألست ترى أن لا جدوى من بحثك؟

هـو : ينبغى أن أرى كل شىء، هـذه هـى وصيـة بسـمة النـور إلىّ.

فحمة الليل : وصية بسمة النور! ما أسهل الكلام على مَنْ يخاف ويقبع فى داره.

هـو : فلنمض إلى الباب المجاور. ما خبره؟

فحمة الليل : انى أحبس وراءه أصناف الدياجير والرعب.

هـو : هل أستطيع أن أفتح الباب؟

فحمة الليل : كل الاستطاعة، فإنها على شيء من الهدوء، شأن الأمراض.

[تيلتيل يفتح الباب بتوجس ويخاطر بنظرة إلى ما وراءه].

هـو : لا أرى سيئاً. إنها ليست وراء الباب.

فحمة الليل : [تنظر بدورها إلى الكهف] يا بنات الدياجير، ماذا تفعلن فلتخرجن إذن قليلا، ففي الخروج متعة لكنّ تفكّ عنكن تجمّد أوصالكن، ويا بنات الرعب، لا تخشين شيئاً.

[تخرج بنات الدياجير وبنات الرعب، الجماعة الأولى في ثياب سود، والجماعة الثانية في ثياب يميل لونها إلى الاخضرار، ويتلمسن بعجلة خطوة لهن قصيرة خارج الباب فإذا صدرت من تيلتيل حركة غير متعمدة يسرعن إلى دخول الكهف]

فحمة الليل : ماذا أصابكن، تجلّدن قليلاً، فليس هو إلا صبيّ لا يخرج من يده إيذاؤكن، [إلى تيلتيل] قد بلغ التهيّب عندهن ذروته، اللهم إلا كبرياتهن اللآتي تبصرهن في غيابة الكهف.

[تيلتيل يصوب نظره إلى غيابة الكهف]

هـو : ما أبشع منظرهن.

فحمة الليل : إنهن مقيدات بالسلاسل، هن وحدهن اللائي لا يخفن من الإنسان، أقفل الباب وإلّا نار غضبهن.

هــو : [ينتقل إلى الباب المجاور] هذا باب يخيّم عليه الظلام، ما خبره؟

فحمة الليل : وراءه أصناف من الأسرار، فإذا لم تعدل عن إصرارك فلك أن تفتح الباب ولكن إيّاك أن تدخل، وكن أسدّ حذرا، ولنستعد نحن جميعًا لصدّ الباب علبها كما فعلنا مع الحروب.

[تيلتيل يوارب الباب بحذر شديد ويمد بجوف رأسه من خلال الفرجه]

هــو : ويْ، ما أسدّ البروده، إنها تلسع عينيّ، أسرعوا إلى الباب فاغلقوه، صدّوه لإحباط جهد من يدفعه، [فحمة الليل والكلب والهره وباقى الزمره يصدون الباب] آه، قد رأيت..

فحمة الليل : ماذا رأيت؟

هــو : [وهو مضطرب] لا أدرى، إنه سيء مرعب، كن جميعاً جالسات كالأصنام التى لا عيون لها. مَنْ كان هذا العملاق الذى أراد إمساكى؟

فحمة الليل : أظنه هو الصمت لأنه حارس هذا الباب، لا ريب أنك رأيت شيئاً مرعباً فلا زلت لا يفارقك شحوبك وارتعاشك.

هــو : نعم، رأيت شيئاً لم أكن أتصوره، سيئاً لم

يصادفنى فط من فبل، إن يدىّ فد جمدتا من الصقيع.

فحمه الليل : سيحيق بك عما قريب بلاء أسدّ إذا مضيت فى بحثك.

هــو : [يتقل إلى الباب المجاور] وهذا الباب.. أمن ورائه أيضاً سىء مخيف؟

فحمه اللبل : كلا، وراءه خليط من أسياء كبيرة، إنى أحتفظ وراءه بالنجوم الخامدة، وعطورى المفضلة، وبعض أصناف من الوميض الذى أختص به وحدى كومض السعالى ووميض الدود المنير واليراعة المضيئة وأضم إليها أيضاً قطر الندى وأغنيه البلبل وما إلى ذلك.

هــو : نعم قصدى أن أرى النجوم الخابية وأغنيه البلبل كما تزعمين، لا ريب أن هذا هو بابها.

فحمة الليل : افتحه إن شئت فليس لَمنْ وراءه سرّ يصيب أحداً.

[تيلتيل يفتح الباب على مصراعيه وما يكاد يفعل حتى تنفلت النحوم من المحبس على هيئه فتيات رائعات الحمال، بجللهن وميض منوع الألوان، وتنتشر فى البهو وتؤلف على الدرج وحول الأعمدة حلقات دات ظرف وحسن، يغمرهن صوء مثل صوء الغسق، ثم تبدأ فى رقصة دائرية، وتمفلت أيضاً عطور فحمه الليل على هيئة أطياف رقت حتى تكاد العين لا تراها،

ويفلت كذلك وميض السعالى واليراعة المضيئة وقطر الندى الشفاف وتنضم إلى سابقاتها، على حين تنبعث من الكهف أغنية البلبل وتجوب أرجاء قصر فحمة الليل]

ميتيل : [وهى تصفق بانبهار] ما أجملهن من فتيات.

هـو : ما أبرع رقصهن!

هـى : وما أطيب عرفهن!

هـو : وما أحلى غناءهن.

هـى : ومن هى هذه الأطياف التى تكاد لا تراها.

فحمة الليل : هى عطور ظلالى.

هـو : وهاتيك اللاتى يشبهن سبائك النور الصافى، مَنْ هُنّ؟

فحمة الليل : إنهن جماعة قطر الندى الذى تألفه الغابات والسهول ولكن آن للهوهن أن ينقضى، سيتمادين فيه فلا يفرغن منه أبداً، إنهن إذا أخذن فى الرقص فلن أفلح إلا بعد مشقة بالغة فى سوقهن إلى المحبس من جديد [تدعوهن إلى الانصراف بدق كفّ على كفّ] هيا هيا أسرعن يا نجوم ليس هذا أوان الرقص فالسماء قد حجبتها سحب كثيفة، هيا هيا أسرعن ارجعن جميعاً، وإلا ذهبت أتصيّد شعاعاً من الشمس.

[النجوم والعطور تهرب فى رعب وتهرع إلى الكهف فيقفل عليها الباب وتنقطع أغنية البلبل].

هـو : [يتجه إلى الباب الكبير في غيابة البهو] هذا هو الباب الكبير، باب وسط البهو.

فحمة الليل : [بجدّ] لا تفتح هذا الباب.

هـو : لمـاذا؟

فحمة الليل : لأن فتحه مُحرّم.

هـو : إذن فالطائر الأزرق مخبئ وراءه، هذا ما قالته لى بسمة النور..

فحمة الليل : [تكلمه بحنان الأمّ] أنصت إلىّ يابنىّ، لقد عاملتك بطيبه ومجاملة، وفعلت لك ما لم أفعله هنا لأحد من قبلك، كشفت لك عن أسرارى، لأننى أحبك وأشفق على صباك وبراءتك، وها أنذا أكلمك كلام أمّ لوليدها، انصت إلىّ، صدقنى يا بنىّ، كف عن بحثك ولا تمض فيه، وإياك أن تتحدى القدر فتفتح هذا الباب.

هـو : [وقد تزعزع كثيراً] ولكن لماذا؟

فحمة الليل : لأنى لا أحب لك أن تهلك، لا أحد، اسمع كلامى، لا أحد ممن فتحوا هذا الباب ولو بمقدار شعرة رجع حيًّا لضوء النهار، فإن كل ما يتصوره العقل من أصناف المخاوف وكل أنواع الهلع، وكل ما يتحدث عنه أهل الأرض من الأهوال البشعة المنكرة لا تعدّ شيئاً مذكوراً

إذا فسست حنى بأهون ما يهاجم الإنسان مهما
إذا ما لمحت أول نظرة له حافه الهاوية الى
لا يجرؤ أحد على تسميتها، ينبغى اتقاء هذا
الباب، حنى أنا، إن بقبت أنت على إصرارك
رغم كل تحذير لن أجسر على التصدّى لهذا
الباب ولو بلمسة من طرف أصبعى، فأرجوك أن
تصبر حتى ألوذ ببرج لى منيع ليس به نوافذ،
الأمر الآن بين يديك، وفق عقلك وتفكيرك.

ميتيل : [تنفجر باكية وتتوالى من الرعب صرخات لها لا يبين فى طيّها كلامها وتجاهد فى حرّ تيلتيل].

الرغيف : [أسنانه تصطك] لا تقدم ياسيّدى الصغير [يركع أمامه] رحمة بنا، إننى أتوسلّ اليك وأنا راكع أمامك، أنت ترى أن فحمة الليل على حقّ.

الهرة : إن حياتنا جميعاً هى التى تضحّى بها.

هـو : لا مفرّ من أن أفتح الباب.

ميتيل : [بدنها] ينتفض من النسيج لا أريد، لا أريد.

هـو : ليأخذ كل من الرغيف وقمع السكر أختى ميتيل من يد للهرب معها فإنى عامدٌ إلى فتح الباب.

فحمة الليل : ليهرب من قدر، سارعوا إلى الخروج، فقد آن الأوان.

[تهرب فحمة الليل].

الرغيف : [يهرب فى دعر] انتظر حتى نبلغ على الأقلّ باب البهو.

الهرة : [يهرب أيضاً] انتظر، انتظر.

[يختبئون وراء الأعمده فى الطرف الأدنى من البهو ويبقى تلتيل وحده مع الكلب بجانب الباب الكبير].

الكلب : [يلهث ويلحقه الفواق وهو يجاهد فى كتم هلعه] أما أنا فسأبقى، سأبقى، لست بخائف، سأبقى، سأبقى إلى جانب مولاى الصغير سأبقى، سأبقى.

هـو : [يربّت عليه] أحسنت، أحسنت، تعال يا تيلو قبّلنى، ها نحن قد أصبحنا لا بال لنا فلنتجلّد، وإلا فالويل لنا.

[يضع المفتاح فى القفل فتبعث صرخه رعب من الطرف الأدنى للبهو حيث لاذ الهاربون، وما يكاد المفتاح يلمس القفل حتى ينشق الباب الكبير من وسطه وينزلق مصراع إلى اليمين ومصراع إلى اليسار ويختفيان داخل جدار الباب فتتبين فجأة حديقه مدهشه كأنما أبدعتها أروع الأحلام وجلّلتها بضياء الغسق، جاوزت فى جمالها حدّ كل تصديق وكل قيد وكل وصف بالكلام، تحلق بها خلال الكواكب والنجوم سروب من طيور زرق كأنها الحور تضيء كل شيء تلمسه وهى لا تنفك فى طيرانها تلمُ بجوهرة إثر جوهره وتتنقل من شعاع إثر شعاع من أشعة القمر، وهى تحوم دواماً وفى انسجام حتى تبلغ حدّ الأفق، أصبحت من كثرتها يُظن أنها أنفاس هذه الحديقه المدهشه

وسماؤها الزرقاء، بل يظن أنها هى الحديقة ذاتها، تيلتيل واقفٌ يغمره ضوء الحديقه وهو منبهر فى ذهول].

هــو : ما أبدعها من سماء [يلتفت ناحية الهاربين] أسرعوا، تعالوا، الطيور الزرق هنا، بعينها وذاتها، لقد فزنا بها أخيراً، آلاف من الطيور الزرق، بل ألف ألف منها، عندنا منها هنا أكثر من مطلبنا بكثير، تعالى يا ميتيل، تعال يا تيلو، تعالوا جميعا، أعينونى [يندفع نحو الطيور] إنها فى متناول اليد. طيعة لا ترهبنا، تعالوا من هنا [تسرع إليه ميتيل يرافقها الآخرون ويدخلون إلى الحديقه المدهشه ولا تتخلّف عنهم إلا فحمه الليل والهرّة] انظروا، انظروا، ما أوفر عددها، إنها تتهاوى على أكتافنا، انظروا، إنها تأكل ضوء القمر، ميتيل، أين أنت اذن، من كثرة الأجنحة الزرق وريسها المتساقط أصبحت لا أتبين سيئاً سواها، إياك أن تعضها يا تيلو، لا تؤذها تناولها برفق.

ميتيل : [تحف بها الطيور الزرق] اقتنصت سبعة منها. كم تصفق أجنحتها، إن يدى لا تفلح فى القبض عليها.

هــو : وأنا كذلك، فقد أمسكتُ منها بعدد أكثر من ملء يدى، ها هى قد هربت، ها هى قد عادت، ونيلو

كذلك فد أمسك ببعضها، إنها تجرفنا معها وتكاد تحملنا إلى السماء، تعالوا نخرج من هنا، إن بسمه النور تنتظرنا، ما أسد سرورها حين ترى غنيمتنا، من هنا، من هنا.

[يعادرون الحديقة ى لهفه وأيديهم ملأى بطيور ررق تصفق أجنحتها ويخترقون البهو وسط موجة من أجنحه مضطربة ويخرجون من ناحية اليمين من حيث دخلوا من قبل، وراءهم الرغيف وقمع السكر ولم يمسك أحدهما بطائر وتبقى فحمة الليل والهره وحدهما فتصعدان إلى غيابة البهو تتأملان الحديقة بقلق].

فحمة الليل : أتراهم قد فازوا بالطائر الأزرق؟

الهرة : كلا، فإنى أراه فوق شعاع من أسعه القمر لم تطله أيديهم لأنه جاوزها بارتفاعه.

[ويهبط الستار فلا تلبث أن تدخل بسمه النور من اليسار أمامها ى عين الوقت الذى يدخل فيه من اليمين أمام الستار كل من تيلتيل وميتيل والكلب وهم يندفعون وأيديهم مثقلة بالطيور الزرق ولكنها أصبحت جثثاً هامده، رؤوسها متدلية وأجنحتها محطمه]

بسمة النور : هل ظفرتم بطائر أزرق؟

هـو : نعم، نعم، بقدر ما نودّ، بل بألف منه إن سئنا، ترحل هى ذى أمامك، هل ترينها؟ [ينظرون إلى الطيور وهم يمدّون بها إلى بسمة النور فيتبينون أنها فارقت

الحياه] ماذا جرى، إنها ماتت، ماذا فعلوا بها؟ طيورك أنت يا ميتيل، أميّتة هى أيضاً طيور تيلو ميتة كذلك [يُلقى وهو محنق بجثث الطيور] مستحيل أن أصدق، يا للبشاعة! من الذى قتلها، إننى جدّ تعيس. [يحمى رأسه فى إبطه وينتفض بدنه بالنشيج].

بسمة النور : [تحضنه بحنان الأم] لا تبك يا بنىّ، إنك لم تمسك بالطائر الأزرق الذى يقوى على العيش فى ضوء النهار. لقد أفلت منا، ولكننا سنجده ولا ريب.

الكلب : [يتأمل جثث الطيور] أتصلح للأكل؟ [يخرجون جميعاً من اليسار].

[ستار]

المنظر الخامس

الغـابة

[العابه، والوفت ليل، والقمر مصىء، وأسحار هرمه مں أصاف محتلفه، مں أبررها سجرة سنديان، وزان، ودردار، وحور، وصوبر، وسرو، وريرفون، وفسطل إلح إلح..].

[تدخل الهرّه].

الهرة : [وهى تحنى رأسها بالتحية والتوفير أمام كل شجره] إلى كل سجرة هنا، تحيه وسلامًا.

الأشجار : [وأورافها تهمس] تحية لك وسلامًا.

الهرة : يومنا هذا يوم أغرّ، فإن عدونا سيأتى ليفكّ عفالكن ويسلم إليكن رقبته، إنه تلتيل ابن الحطاب الذى طالما نالكن بالأذى، إنه يبحث عن الطائر الأزرق الذى تخفينه عن الإنسان منذ بدء الخليقة، والذى يعلم وحده سرّنا، [همس أوراق الشجر] ماذا تقُلن؟ آه! إنها سجرة الحور التى تتكلم، نعم إنه يملك الماسة السحرية النى تكسف عن سريرتنا، إنه فد يرغمنا على أن

ندفع له بالعصفور الأزرق، ونصبح جميعًا بعدئذ أسرى فى قبضة الإنسان وتحت رحمته، [همس أوراق الشجر] من تتكلم؟ أنت يا سجره السنديان؟ كيف حالك؟ [همس أوراق شحره السنديان] لا يفارقك الزكام أبدًا؟ هل كفّ الليمون عن علاجك؟ تسكين دائمًا من الرومانزم؟ سببه - صدّقينى - هو هذه الأعشاب الكبيرة التى تفرطين فى لفّ قدميك بها، هل الطائر الأزرق ما يزال عندكن؟ [همس أوراق شجره السنديان] ماذا تقولين؟ نعم، لامجال للتردد، هذه فرصة متاحة لنا ينبغى أن نقتنصها لابُدّ من القضاء على الصبى [همس أوراق الشجر] ماذا تقُلن؟ نعم، إنه مع أخته، ينبغى أن تموت هى أيضًا، [همس أوراق الشجر] نعم، الكلب يرافقهما أيضًا، هيهات أن نبعده عنهما، [همس أوراق الشجر] ماذا تقلن؟ نقدم إليه رسوة؟ هذا مستحيل، لقد جرّبنا كل حيله فلم نفلح، [همس أوراق الشجر] ها أنت يا سجرة الصنوبر تتكلمين. اعددن أربعة ألواح من الخشب لأربعة نعوس، فتلتيل ترافقه أيضًا النار وقمع السكر والماء والرغيف، إنهم جميعًا فى صفّنا

اللهم إلا الرغيف فهو غير مضمون، بسمة النور وحدها لها ولاء للإنسان ولكنها لن تأبى فقد فمتُ بإقناع تيلتيل وأخته بالتسلل خفية حين نامت، هذه فرصة فريدة [همس أوراق الشجر] هأنذا أسمع صوت سجرة الزان، نعم، الحق معك، نعم، ينبغى إبلاغ الخبر إلى الحيوانات، هل الأرنب ما يزال يملك طبلته؟ إنه عندكن؟ فليدق على الطبلة لينادى جميع الحيوانات، ها هم أصحابنا قد أتوا.

[يبتعد صوت دق الطبلة، يدخل تيلتيل وميتيل والكلب]

تيلتيل : أهذا هو المكان؟

[الهرة تسرع فى اهتمام إلى لقائهما وتفرط فى مظاهر الاحترام لهما والحفاوة بهما].

الهرة : ها أنت ذا قد أتيت يا سيّدى الصغير، ما أجمل طلعتك وأبهى عافيتك هذا المساء، لقد سبقتك لأعلن عن مقدمك، كل سىء على ما يُرام، سنظفر بالطائر الأزرق هذه المرّة، إنى واتقة من ذلك، لقد بعتت بالأرنب يدق طبلته مناديا أكابر حيوان هذه المنطقة، إنها متهيبة لا تجسر على الاقتراب [ضجة أنواع مختلفة من الحيوان من بينها نقر

وحاموس وحنازير وجياد وحمير إلح إلخ. الهرة تنتحى بتيلتيل جانبًا وتهمس له] ولكن لماذا جئت بالكلب؟ لقد سلف أن قلت لك إنه على خصام مع الجميع حتى مع الأسجار، وأخشى أن يفسد كل شىء برفقته الكئيبة.

هـو : لم أستطع التخلص منه [إلى الكلب مهدّدًا] هل لك أن تغرب عنى أيها اللعين!

الكلب : مَنْ؟ أنا؟ لمَ؟ ماذا فعلت؟

هـو : قلت لك اغرب عن وجهى، أصَعب عليك أن تفهم؟ المسأله بسيطة، لسنا فى حاجة إليك، أنت تضايقنا بإصرارك وقد نفد صبرنا.

الكلب : سألجم لسانى، سأتبعكم من بعيد فلا يرانى أحد، هل أقف لك على ساقىّ وقفة المستجدى؟

الهرة : [تهمس لتيلتيل] هل تصبر على هذا العصيان؟ اضربه بعصاك مرارًا على أنفه، إنه حقًّا لا يُطاق.

هـو : [يضرب الكلب] هذا درس يعلّمك المسارعة إلى الطاعة.

الكلب : [يصرخ من الألم] أىْ، أىْ، أىْ.

هـو : ماذا تقول؟

الكلب : ينبغى أن أقبّل اليد التى ضربتنى، ضرب

الحبيب كأكل الزبيب، [الكلب يغالى فى التمسّح بتيلتيل ويرشقه بقبلات حارة].

هـو : رسادَكْ، أحسنت أحسنت، وهذا يكفى، فاغرب الآن عن وجهى.

ميتيل : كلا كلا، أريده أن يبقى، إنى أخاف من كل شىء فى غيبته.

[يثب الكلب إلى ميتيل حتى يكاد يوقعها ويفيض حماسه ولهفه وهو يرسب عليها]

الكلب : نعم الفتاة الطيبة القلب، ما أجملها! ما أطيبها، ما أجملها وأرقها، ينبغى أن أقبلك مرة وأخرى.

الهرة : يا له من غرّ مأفون، لندع هذا لما بعد، ولا نضع الوقت، [إلى تيلتيل] أدر الماسة.

هـو : أين ينبغى لى أن أقف؟

الهرة : تحت هذا الشعاع من القمر، إذ تحته تحسن الرؤية، نعم هكذا، أدر الماسة برفق.

[تيلتيل يدير الماسه فما يكاد يفعل حتى تدب رعشه فى الغصون والأوراق وتنشق جذوع الأشجار التى هى أكثر هرمًا وصخامة لتلفظ سرائرها المكونه وكل سريره تطابق شجرتها فى الطبع والهيئة، فسريره شجرة الدردار مثلاً على هيئة قزم ممسوح أكرش لا ينفك يلهث من فرط بدانته، وسريرة شجرة الريزفون مطمئنة ذات إلف وبشاشة، وسريرة شجرة الزان أنيقة خفيفه الحركه، وسريره شجرة التانول بيضاء البشره

متحمطة قلقة، وسريرة شجرة الصفصاف مدكوكة مشعثة الشعر نواحة، وسريرة شجرة الصنوبر هيفاء ممشوقة القامة ذات تكتم وصمت، وسريرة شجرة السرو دات شحن يوحى بجو مأساة، وسريرة شحر القسطل ذات عرور وحدلقة، وسريرة شحرة الحور دات مرح وبروات وثرثرة، بعص السرائر تخرج من جذوع الأشجار متثاقلة محمدة الأوصال فتتمطى كأنما تنفلت مں قيد أو كرى طال دهورًا، وبعصها يحرح قفزًا فى شاط ويقطة وعجلة، وتلزم كل سريرة ما أمكنها جوار الشجرة التى ولدتها]

شجرة الحور : [وهى أول من ينطلق وتصرخ بصوت عال] جاءنا أناس، جاءنا أناس فى سنّ الصبا، سيتاح لنا أخيرًا أن نتكلم، قد انتهى عهد الصمت، انتهى، من أين أتيا؟ ما شأنهما؟ منْ هُما [تتقدم شحرة الريزفون على مهل وهى تدخن عليوىها بهدوء] أتعرفينهما أنت يا شجره الزيزفون؟

سجرة الزيزفون: لا أذكر أننى رأيتهما من قبل.

شجرة الحور : كيف؟ رأيتهما من قبل ولا ريب فأنت تعرفين الناس جميعاً فمقامك دائمًا بجوار بيوتهم.

شجرة الزيزفون: [تتمحص الصبيين] أؤكد لك أننى لا أعرفهما، فهما لا يزالان صبيين، إننى لا أعرف إلا العشاق الذين يأتون لزيارتى فى ضوء القمر، السكارى الذين يشربون الجعة تحت غصونى.

سجرة القسطل : [فى أنفة وهى تحكم فى كبرياء مصطنعة وضع نظارتها الفرد فوق عين لها] ما الذى أرى؟ إنها من الفقراء، من الفلاحين.

شجرة الحور : بعض هذا التعاظم يا ذات الصون والعفاف، هذا دأبك مذ ترفعت إلا عن سكنى الشوارع الفسيحة فى العواصم.

الصفصاف : [تتقدم وهى نوّاحة، فى قدميها خفّان من خشب] يا إلهى، يا إلهى، لقد عاد الإنسان مرة أخرى ليقطع رأسى وأوصالى ويحملها حطبًا له.

شجرة الحور : اصمتى، ها هى شجرة السنديان تخرج من قصرها، إنها عليلة هذه الليلة، ألا ترونها قد ساخت؟ كم يبلغ عمرها فى ظنكن؟ تقول شجرة الصنوبر عنها إن عمرها أربعة آلاف سنة، ولكنى واثقة أنها تغالى، انتبهن، إن شجرة السنديان ستفضى لنا بخبرها.

[تتقدم شجرة السنديان بهدوء، لا مثيل لهرمها إلا فى تهاويل الأساطير والخرافات، على رأسها تاج النباتات، وعلى بدنها ثوب طويل أخضر مزركش بالأعشاب، هى عمياء، شعرها الأشعث متهدل حول وجهها، تعتمد يد لها على عصًا معقدة، ويد أخرى على شجرة سنديان صغيرة تقود خطاها، الطائر الأزرق حاطط على كتفها، وحين تقترب تصطف بقية الأشجار وتنحنى لها تبجيلًا واحترامًا].

تيلتيل : الطائر الأزرق عندها [إلى شحره السديان]
اسرعى، اسرعى، تعالى من هنا، اعطنى الطائر.
الأسجار : اصمت، إنها سجرة السنديان.
سجرة السنديان: [لتيلتيل] من أنت؟
هـو : أنا تيلتبل يا سبّدنى، متى أستطيع أخذ الطائر الأزرق؟
سجرة السنديان: تيلتيل ابن الحطاب؟
هـو : نعم سيّدنى.
سجرة السندبان: فد أصابنا على بد أبيك سرّ كببر، فقد صرع من أسرنى ستمائة من أبنائى، وأربعمائة وخمسة وسبعين من أعمامى وعمّاتى، وألفًا ومائتين من أولادهم، وبلاثمائة وبمانىن من زوجات أبنائى واننى عشر ألفًا من أحفادى.
هـو : لا أعرف هذا يا سيدّتى، غير أنه لم يصرعهم عمدًا.
سجرة السنديان: ماذا جئت تفعل هنا؟ ولماذا أطلقت سرائر الأسجار من مكامنها؟
هـو : عفوا سيدتى إذا كنت قد أزعجتكن، هى الهره التى قالت لى أننى سأعرف منكن أبن هو الطائر الأزرق.
سجره السنديان: نعم، أعلم هذا، أنت تطلب الطائر الأزرق وهو

السرّ الأعظم للأشياء كافة، وهو سرّ السعادة أيضًا، وبذلك يتاح للإنسان حين يملكه أن يستبد في تطويقنا بأغلال الأسر والعبّودية.

هـو : كلّا يا سيدتي، وإنما أطلبه لبنت الساحرة غرباويه فإنها جدّ مريضة.

شجرة السنديان: [تومئ إليه آمرة بالصمت] كفى، مالي لا أسمع الحيوانات؟ أين هُمْ فإن حكايتك تهمهم كما تهمنا، وينبغي إذن أن لا يقع على عاتق الأشجار وحدها اتخاذ القرارات الخطيرة التي يتطلبها الموقف، فلو علم الناس ما نحن مقدمات على فعله لانتقموا منا بقسوة، فينبغي إذن أن تكون خطتنا مرسومة باتفاق الجميع ليصحّ تعهد الجميع بكتمان السرّ والتزام الصمت.

شجرة الصنوبر : [تمد نظرها وهي تعلو بقية الأشجار] الحيوانات قادمة وراء الأرنب، هذه هي سريرة الجواد والثور والجاموسة والبقرة والذئب والحمل والديك والعنز والحمار والدبّ، وكلما ذكرت شجرة الصنوبر اسما لحيوان دخلت سريرته ثم تجمعت السرائر وجلست بين الأشجار، اللهم إلا سريرة العنز فإنها أخذت تتواثب هنا

وهناك وإلا سريرة الخنزير فإنها عمدت إلى نبش جذور الأشجار.

شجرة السنديان: هل حضر الجميع؟

الأرنب : الدجاجة اعتذرت بأنها رافدة على بيضها، والأرنب البرىّ بأن وراءه مشوارًا، والغزالة بألم فى قرنيها، والثعلب بأنه مريض، وأرسل شهادة بذلك من طبيبه، أما الأوز فلم تفهم، والديك الرومىّ انفجر غاضبًا.

شجرة السنديان: تخلف هؤلاء يؤسف له لكل الأسف، ولكن عدد الحاضرين كاف لعقد الاجتماع. يا أخواتى أنتم تعلمون المسألة. هذا الصبىّ الذى أمامكم يستطيع أن يضع يده على الطائر الأزرق بفضل طلسم اختلسه من قُدرة الأرض وبذلك ينتزع منا السرّ الذى حرصنا على إخفائه منذ بدء الخليقة. ونحن على علم بالإنسان بحيث لا يخامرنا أقلّ شكّ فى المصير الذى ينتظرنا، إذا تملك هذا السرّ. من أجل ذلك فإن كل تردد من جانبنا هو فى نظرى جرم وحماقة، الساعة خطيرة، وينبغى القضاء على الصبى قبل فوات الوقت.

تيلتيل : ماذا تقول؟

الكلب : [يدور حول سجرة السدياں وهو مكشّر عں أىيانه] هل ترين أسنانى أبتها العجوز الكسيحه؟

سجرة الزان : [فى حس] إنه يهںن سجره السندىان.

شجرة السنديان: أهذا هو الكلب؟ اطردوه، ينبغى لنا أن لا نصبر على اندساس خائن بيننا.

الهرة : [تهمس إلى تيلتيل] أبعده! هذا سوء تفاهم دعه لى فإنى سأعالج الأمر، ولكن ينبغى أن تسرع فى إقصاء الكلب.

هــو : [إلى الكلب] ألا تنصرف؟

الكلب : دعنى أمزّق خفىّ هذه الكسحانه وسنضحك مما ىحدب لها.

هــو : احترس وانصرف، انصرف ىا وفح. ىا ىفيل الدم.

الكلب : طيّب طيّب، سأنصرف وسأعود حىں ىحتاج إلىّ.

الهرة : [ىهمس إلى تيلتيل] من الأحوط أن تقيّده وإلا عاد لحماقاته، إن الأسجار ىغضب وتكون العواقب وخىمة.

هــو : ماذا أفعل؟ لقد أضعت سلسلته.

الكلب : [وهو ىرمحر ىهدد شجره السدياں] سأعود، سأعود يا مقطوعة النفَس يا فريسة الربو، تبًّا لكن من أسجار كسيحات فى سن اليأس، إن الهرّه

هى رأس المؤامرة، سأصفى الحساب معها ذات يوم، فيم همسك ووسوستك يا خائنة، يا لئيمة، [ينحيها] .

الهرة : [لتيلتيل] أرأيت كيف يهين الجميع ؟

هـو : هو حقًّا لا يطاق، إنه يسوّس علبنا فلا نسمع ما يقال، سيدى اللبلاب، هل لك أن تفنّده ؟

اللبلاب : [يتقدم بحذر إلى الكلب] هل يَعض ؟

الكلب : [وهو يزمجر] على العكس، على العكس، إن الكلب سيقبّلك انتظر فسوف ترى ما يحدث لك. اقترب. اقترب قليلًا أيها الوغد بأحابيلك العتيقة.

هـو : [يهدّده بالعصا] تيلو !

الكلب : [يجثم تحت قدمى تيلتيل ويهزّ ذيله] ماذا تريد منى أن أفعل يا مولاى الصغير ؟

هـو : ارقد على بطنك وأطع اللبلاب ودعه يقيّدك وإلّا..

الكلب : [يزمجر واللبلاب يقيّده] أوصالك خيوط مزقه يا حبل المشنقة، يا معودالنور، يا سلسلة الخنزير، انظر يا مولاى الصغير، إنه يسلوى ساقىّ.

هــو : حزاءً وفاقًا، فهذا ما كنت تطلب، اخسأ واهدأ، فأنت لا تطاق.

الكلب . لا أبالى، ولكنك مخطىء، إنهم يضمرون لك أسوأ النيات فاحترس يا مولاى الصغير، ها هو يكممّ فمى فلن أستطيع الكلام.

اللبلاب : [وقد كورّ الكلب بعد شدّ وباقه] أين أمضى به؟ لقد أحكمت وباقه ولن يفتح فمه.

سجرة السنديان: اربطه باحكام وراء جذعى وسده إلى أضخم جذورى، وسنديبر مصيره فيما بعد.

[يستعين اللبلاب بشجرة الحور ويحملان الكلب ويضعانه وراء جذع شجرة السنديان]

شجرة السنديان: هل فرغتما؟ حَسَنٌ، الآن وقد تَخلّصنا من هذا الساهد المملق، هـذا الخائن، فلنتشـاور فيما يقضى به الحق والعدل فى نظرنا، لا أخفى عليكم ما أحسّ به فى أعماقى من اهتياج مُضْنٍ، فهذه أول فرصة يتاح لنا فيها أن نحاكم الإنسان، وأن نسعره بسطوتنا، أظن أن الإنسان بعد كل الذى ذقناه على يديه من الشرور ومن المظالم الفادحة لا تخامره أدنى شكّةفى الجزاء الذى يستحقه.

كل الأسجار : نعم، نعم، هو يعلم الآن علم اليقين، إلى المستهه،

وكل الحيوانات: إلى الموت، لطالما ظلمنا، وطالما سدر فى غلوائه، لقد نفد صبرنا، فلنسحقه ونلتهمه، فورًا، فورًا..

هــو : [للهرة] ماذا جرى لهم؟ إنهم غاضبون.

الهرة : لا تنزعج، إنهم غضاب لأن الربيع قد تأخر قدومه دع الأمور لى، وسأعالجها جميعاً.

شجرة السنديان: كان حتما أن يصدر حكمنا باجماع الآراء، ويبقى علينا أن نعرف إذا شئنا تجنّب ثأر الإنسان كيف نختار من بين طرائق القتل أحكمها وأسهلها وأسرعها وأضمنها وأقلّها دلالة على التهمة إذا ما عثر الناس على جثة الصبيين فى الغابة.

هــو : ما هذا كله؟ ما هدفهم؟ لقد بدأت أضيق ذرعًا بهم، ما دامت شجرة السنديان عندها الطائر الأزرق فلتسلمه إلىّ.

الثور : [يتقدم إليه] أيسر طرائق الموت وأحكمها أن أطعنه بقرنى فى بطنه، فهل تريدون أن أنطحه؟

شجرة السنديان: من الذى يتكلم؟

الهرة : إنه الثور.

البقرة : الأفضل لى أن أنأى عن المتاعب فلا دخل لى فى هذا الموضوع، وإنى منصرفة إلى أكل هذا العشب كله فى المراعى التى ترونها فى زرقة

القمر، إن ورائى عملاً طويلاً يسغلنى.

الجاموسة : وكذلك أنا، وإنى على كل حال أقرّ مقدمًا كل سىء تفعلونه.

شجره الزان : إنى أقدم أعلى فروعى ليسنق عليها.

اللبلاب : وأكون أنا حبل المسنفة.

سجرة الزان : وأمدّكم أنا بألواح للنعوس الأربعة الصغيرة.

شجرة السرو : وأهيئ أنا لهم قبرهم الأبدىّ.

شجرة الصفصاف : أسهل الطرائق أن نغرقهم فى أحد الأنهار التى أطلّ عليها، دعوهم لى.

شجرة الزيزفون : [وهى عهّد للصلح] رسادُكم رشادكم، أحتم أن نلجأ للعنف، إنهما لا يزالان فى نضارة الصبا، ونحن نقدر بسهولة أن نغلّ أيديهما عن السرّ بأن نبقيهم أسرى داخل سياج أتولى أنا بنفسى إقامته من ضلوعى.

شجرة السنديان : مَنْ التى تتكلم هكذا؟ [يدلنى صوبها المعسول أنها شجره الريزفون].

شجرة الصنوبر : صدقت.

شجرة السنديان : إذن نكبنَا كالحيوان باندساس خائن بيننا، لقد ظفرنا إلى اليوم بولاء جميع الأسجار اللهم إلا أشجار الفاكهة وهى على كل حال لا تعدّ فى الحقيقة أشجاراً بمعنى الكلمة.

الخنزير : [يدير مفلتس صغيرتين بهمتس] أما أنا فأظن أنه ينبغى أوّلاً أن نلتهم البنت الصغيرة فلا بُدّ أن لحمها طرىّ.

تيلتيل : ماذا يقول هذا الأحمق؟ انتظر قليلاً يا...

الهرة : لا أدرى ماذا دهاهم، إن مسلكهم لا يبشّر بخير.

شجرة السنديان: سكوت! المسألة الآن هى أن نعرف من ينال شرف توجيه أول طعنة ومن يزيح عن هامتنا أكبر خطر يتهددنا منذ ولد الإنسان.

شجرة الصنوبر : هذا الشرف حق لك فأنت أمّنا وسيّدتنا.

شجرة السنديان: أهذه شجرة الصنوبر التى تتكلم؟ إننى مع الأسف عجوز طاعنة فى السنّ، عمياء عليلة، وأصبحت أوصالى من الخدر تأبى أن تطعنى، كلّا، بل أنتِ يا أختى يا سجرة الصنوبر دائمًا مخضره، مستقيمة لا تعرف الانحراف، سهدت عيناك مولد أغلب هذه الأسجار، أنت أحقّ بدلى بمجد تحريرنا جميعا.

شجرة الصنوبر : شكرًا لك يا أمّى المبجلة، ولكن ما دمت قد نلت أنا شرف إعداد قبر لهذين الصغيرين فإنى أخشى إذا وقع اختيارك علىّ أن أثير غيرة زملائى، وأظن إذا تنحينا نحن الاثنتين عن هذا

السرف فإن الجديرة بعدنا هى سجره الزان،
لأنها تفوفنا عرافه، نم إن ضربتها أسدّ لأنها
أصلبنا عودًا.

سجرة الزان : لا يغيب عنكم أن السوس قد نخر أوصالى وأن
ضربتى لم تعد مُحكمة، أما سجره الدردار
وسجرة السرو فلهما سلاح ماضٍ.

سجرة الدردار : ليس أسهى علىّ من نوال هذا السرف ولكنى
أكاد لا أحسن صلب عودى، وقد فرض فأر
هذه الليلة إبهام قدمى.

شجرة السرو : أما أنا فعلى استعداد، ولكنى على غرار أحنى
سجرة الصنوبر إذا فاتنى سرف إعداد القبر
فإنى سأحظى على الأقلّ بميزة الانفراد بذرف
الدموع على هذا القبر وليس من العدل أن
أجمع بىن وسامىن. واسألا سجره الحور.

سجرة الحور : أنا؟ هل اتجه ذهنكما إلىّ؟ ولكن خسبى طرىّ
سأن لحم الأطفال، نم إنى لا أدرى ماذا دهانى،
إنى أرتجف من الحمىّ، انظروا إلى أوراقى، لابُد
أن البرداء أصابتنى اليوم عند الفجر.

سجرة السنديان: [تنفحر عاصه] أنت ترهبىن الإنسان حتى هذين
الصبيين الغريرين، وكلاهما مضيّع أعزل من
السلاح، إنهما ينفخان فى قلبك بهذا الرعب

الخفىّ الذى طالما طوّقنا بما نحن فيه من ذُلّ ورقّ، إنى أرفض هذا الكلام، كفى، ما دام الأمر كذلك وما دامت الفرصة المتاحة هى فرصة العمر فسأمضى أنا وحدى، أنا العجوز الكسيحة المرتعشة العمياء للاقتصاص من عدوّنا الأزلى. أين هو؟

[تتهادى بحذر على عصاها وتتقدم نحو تيلتيل].

هــو : [يستلّ السكين من جيبه] منى وحدى تريد أن تقتص هذه العجوز أمّ النبوت الضخم.

[تند من بقيه الأشجار صرخه فزع لرؤيه السكين، هى فى يد الإنسان سلاح جبارون فى سره، بتار لا يقاوم، فيتوسط بين الاثنين ويمسكن سجره السنديان].

الأشجار : السكين! احترسى، السكين.

سجرة السنديان: [وهى تدافعهن] اتركننى، فما الجدوى، إن نجوتُ من السكين فلن أنجو من البلطة، مَنْ التى تمسك بى؟ أأنتن جميعًا هنا؟ ماذا؟ أهذا اتحاد منكن على نية واحدة. [تقذف بعصاها] إذن لتكن مشيئتكن، والعارُ لنا جميعًا، لن ينقذنا بعد إلا الحيوان.

النور : نعم هو هذا، أنا لها، فبنطحة واحدة من قرنى

[تعمد البقرة والجاموسة إلى شدّه من ذيله].

البقرة والجاموسة: لماذا تحشر نفسك، إياك والحماقة، هذه مسألة وخيمة العواقب سندفع نحن غُرمها، دعها إذن للحيوانات الضارية فهذا هو شأنها.

الثور : كلا كلا بل شأنى أنا، اصبرا فتريا، ولكن إذا لم تمسكا بى فقد تقع نكبة.

تيلتيل : [إلى ميتيل وقد اسعشت منها صرخة حادة] اختبئى ورائى، لا خوف وهذه السكين فى يدى.

الديك : سجاعة هذا الصبى يا لها من شجاعة..

هـو : هل قرّ قراركم؟ الاقتصاص منى أنا؟

الحمار : أكيدٌ يا بنىّ، كيف تطلّب فهمك للحقيقة مثل هذا الوقت الطويل.

الخنزير : لك أن تصلّى، فافعلْ، فقد حانت منيتك، ولكن لا تحجب عنا صبيّتنا الصغيرة، أريد أن أمتع عينى بالنظر إليها فإنها هى أوّل من سأْلتَهم.

تيلتيل : وهل أنا أجرمتُ فى حقكم؟

الشـاة : لا سمح الله.. ما الاجرام فى أنك أكلت وليدى وأخى وأختى وأعمامى الثلاثة، وعمتّى، وأبِى وأمى، صبرًا صبرًا، حين يُطرح بك أرضًا سترى أن لى أنا أيضًا أنيابًا وأضراسًا.

الحمار : وأن لى ظلفًا حادًّا قوى الشكيمة.

الحصان : [يمحص الأرض بقوائمه مرهوًّا] سترى ما سترى،

قل لى، أيهما أحبّ إليك؟ أن أنهشك بأسنانى أم أبطئك بحوافرى [يهدم بخيلاء نحو تيلتيل فيتصدى له ويشهر السكين فى وجهه فيصاب الحصان فجأة بالذعر ويولى الأدبار وينطلق كالسهم] يا للداهية، ليس هذا بعدل، ليس هذا من أصول اللعب، أن يدافع عن نفسه..

الديك : [وقد عجز عن كتمان إعجابه] لا شكّ أنه صبىّ جسور.

الخنزير : [للدب والذئب] فلنهجم عليهما جميعًا وسأسندكما من خلفٍ سنطرحهما أرضًا، ونقتسم الصبيّة حين تقع.

الذئب : شاغِلْهما من أمام، على حين أقوم أنا بحركة التفاف [ويدور حتى يجئ خلف تيلتيل ويهجم على ظهره ويكاد يطرحه أرضًا].

هـو : يا خائن ! [ينهض معتمدًا على ركبة واحدة ملوّحا بالسكين، حاميا أخته قدر طاقته وهى تولول من الفزع وحين يتبيّن للأشجار والحيوان أنه يوشك أن يقع على الأرض تقترب جميعها منه تحاول كل منها أن تصيبه بضربة، يخيّم الظلام فجأة، تيلتيل يستنجد باضطراب] النجدة النجدة تيلو، تيلو، تيلو، أين الهرّة؟ تيلو، تيلو، تيلو. أسرع إلىّ أنت والهرّة.

الهرة : لا أستطيع فقد التوت قدمى.

هــو : [يتحاشى الضربات ويدافع عن نفسه قدر جهده] النجده النجده، لقد خارت قواى، إنهم أكثر منى عددًا، الدبّ والخنزير والذئب والحمار وشجره الصنوبر وشجرة الزان.

[يخر تيلو حاله المتقطعه بعد أن وثب من وراء جذع شجرة السنديان ويشق طريقه مزاحمًا الشجر والحيوان حتى يلقى نفسه أمام تيلتيل ويدافع عنه بضراوه]

الكلب : [وهو يهوش بفوه يمينًا ويسارًا] لبيك لبيك يا مولاى الصغير لا تخف، إن فكى جبّار، خُذْ، هذه لك أيها الدب، فى عجيزتك الضخمة، أين من يريد منكم مثلها؟ وهذه للخنزير وهذه للحصان، وهذه لذيل الثور، تمام تمام، هأنذا قد مزقت سروال شجرة الحور وإزار شجرة السنديان أما شجرة القسطل فقد هربت، أف أفْ، الدنيا حَرّ..

هــو : [متضعضعًا] خارت قوى منذ ناولتنى شجره السرو ضربة شديدة على نافوخى.

الكلب : إنها ضربة من شجرة السرو وقد كسرتْ أيضًا قدمى.

هـو : ها هم يعودون للهجوم، كلهم معًا، فد جاء دور الذئب هذه المرة.

الكلب : انتظر، سترى كيف أعالجه بهجومى عليه.

الذئب : أيها الغبى، ببننا أخوّة فأنت من سلالتنا، أنسيت أن أهله أبوا تربية صغارك فأغرقوها.

الكلب : وحسنًا فعلوا فقد كانت تنسبهك.

كل الأشجار وكل الحيوانات : أيها العاقّ لجنسك، أيها الخائن والغرّ الأبله، انفض يدك منه، ألا ترى أن الموت محيق به، انضمّ إلينا.

الكلب : [فى نشوة من الحبّ والإخلاص] كلا كلا، سأقف وحيدًا ضدكم جميعًا كلا كلا، سأظل وفيًّا لمن ينتمى لهم مولاى، إنهم أفضل منكم وأجلّ قدرًا، [لتلتيل] احترس، هذا هو الدبّ، خذ بالك من الثور، سأثب إلى حَلْقِه، أىْ أىْ، هذه رفسة من حافر، لقد هشمّ الحمار سنين من فكىّ.

هـو : هدّنى الإعياء، تيلو، أىْ أىْ، هذه ضربة من شجرة الدردار، أنظر إلى يدى يسيل منها الدم، إنه الذئب أو الخنزير.

الكلب : سلامتك يا مولاى الصغير، دعنى أقبلك، هذه هى لعقة طيبة من لسانى ستريحك، قف ورائى ولا تتحول، فلن يجرأ أحد منهم على مهاجمتك..

بل. نعم. نعم سبجرأون، فها هم قد عادوا.
الخطر كبير هذه المرة فلنصمد لهم..

هـو : [يتهاوى إلى الأرض] لم تبق لى قدرة على المقاومة.

الكلب : أصدقاؤنا قادمون، تنبئنى بهم أذنى وأنفى.

هـو : من أين؟ ومنْ يكون القادم؟

الكلب : من هناك، إنها بسمة النور، لقد اهتدت إلى مكاننا، قد نجونا يا مولاى، يا مليكى الصغير، قبلنى، نجونا، نجونا، أنظر إلى أعدائنا، إنهم يتوجسون سرًّا ويتفرقون مرتعبين.

هـو : يا بسمة النور، يا بسمة النور، أقدمى وأسرعى، لقد ثارت ضدنا الأشجار والحيوانات وتألبت علينا.

[تدخل بسمة النور، وكلما تقدمت يتوالى إشراق القمر على الغابة حتى يعمها الضياء].

بسمة النور : ما الخبر وماذا جرى، كيف غلبك الضلال يا مسكين. أدر الماسة فإنها ستعيدهم إلى عالم الصمت والظلام ولن تتجلى لك بعد سريرتها.

[يدير تيلتيل الماسة فتهرع كل سريرة إلى جذع شجرتها وتدخله فينطبق عليها وتختفى أيضًا سرائر الحيوان ويرى من بعيد بقرة وشاة ترعيان العشب فى سلام إلخ إلخ وتستعيد الغابة براءتها].

هـو : [يتلفت حوله من فرط دهشته] أين هم، ماذا كان قد جرى لهم؟ف هل كانوا جميعًا قد أصيبوا بالجنون؟

بسمة النور : كلا، هذه هى حفيفتهم دائمًا، ولكننا لا نعلمها لأننا لا نراها، وقد حذرتك من قبل من خطر إيقاظها فى غيبنى.

هـو : على كل حال لولا الكلب، ولولا أن كان عندى سكين.. لم أكن أتصور من قبل أنهم على مثل هذه الشراسة.

بسمة النور : ها أنت ذا ترى أن الإنسان يقف وحيدًا ضد الجميع فى هذه الدنيا.

الكلب : [لتيلتيل] عسى أن لا يكون قد نالك أذى كبير يا مولاى.

تيلتيل : مسألة بسيطة، أما عن ميتيل فقد عجزوا عن لمسها ولكن أنت يا عزيزى تيلو، حدثنى عن نفسك، قد سال الدم على فكك وانكسرت قدمك.

الكلب : إصابة هيّنة لا تستحق الذكر، من غد سلتئم الجرح وينجبر الكسر ولكن كم كانت حامية هذه المعركة!

الهرة : [خارجه من غيل وهى تعرج] معركة حامية ولا ريب،

ففد طعننى العجل بفرنه فى بطنى، لا ترى العبن أبر الطعنة ولكنها تؤلمنى، أسد الألم، وسجرة السنديان كسرت قدمى..

الكلب : أحب أن أعرف أن قدمى هى؟

مستيل : [ترس على الهره] تيليت يا مسكينة، أحقًّا ما تقولين؟ إذن أين كنت فإنى لم ألمحك.

الهرة : [مسافقه] أميمنى، قد جرحت من فورى حبن هاجمنى الخنزير القذر الذى أراد التهامك فناولتنى حبنئذ سجرة السنديان ضربة دوختنى.

الكلب : [وهو يهمس بالكلام من بين أسنانه المطبقة] أنت! فليكن فى علمك أنه سيكون بينى وبينك حساب، ولن يفيدك الانتظار سيئًا، فجزاؤك لن يتغيّر.

ميتيل : [للكلب] دعها فى حالها يا لعين.

[ويخرج الجميع].

[ستار]

الفصل الرابع

المنظر السادس: أمام الستار

[يدخل بيلتيل وبسمه النور والكلب والهره والرغيف والنار وقمع السكر والماء واللبن].

بسمة النور : تلقيت رسالة عاجلة من الجنية غرباويه تخبرنى فيها أن الطائر الأزرق موجود هنا فى أغلب الاحتمال.

تيلتيل : فى أى مكان هنا؟

بسمة النور : هنا، فى المقبرة التى وراء هذا الجدار، يبدو أن أحد الموتى فى هذه المقبرة يخفيه فى قبره، يبقى علينا أن نعرف أيهم هو، لذلك ينبغى المرور بالموتى واحدًا واحدًا.

هـو : واحدًا واحدًا؟ وكيف نفعل؟

بسمه النور : المسألة بسيطة، ننتظر منتصف الليل، لئلا نفرط فى إزعاجهم، ثم تدير أنت الماسة فإذا بهم

يخرجون من الأرض، وأما الذين لا يخرجون فسنطلّ عليهم فى قبورهم.

هـو : ألن يخنقهم عملنا هذا؟

بسمة النور : لن يخنقهم، بل لن يبينوا أن خروجهم بإرادتنا، حقًّا إنهم لا يحبون أن يقلقهم أحد، ولكن من عادتهم على كل حال أن يخرجوا فى منتصف الليل فلا إزعاج لهم.

هـو : لماذا شحب لون الرغيف وقمع السكر واللبن ولماذا خرس لسانهم؟

اللبن : [وهو يترنح] أحس أننى سأصاب بالخثورة.

بسمة النور : [همس لتيلتيل] لا تشغل بالك بهمومهم، فما بهم إلا الخوف من الموتى.

النار : [تطوف بخطى لاهية] أما أنا فلست خائفة، فقد ألفتُ أن أخرقهم، كنت أحرقهم جميعًا فى الماضى فكانت لى متعة لا أجدها فى أيامنا هذه.

هـو : ولماذا يرتجف تيلو؟ هل هو خائف أيضًا؟

الكلب : [وأسنانه تصطك] أنا؟ إننى لا أرتعس، أنا لا أخاف أبدًا، ولكن إن تركتم هذا االمكان فسأتركه معكم.

هـو : وما للهرة لا تنبس بكلمه.

الكلب : [فى غموض] ليس علمى علمكم.

هـو : [لبسمة النور] هل ستأتين معنا؟

بسمة النور : كلا، فمن الأفضل أن أبقى عند باب المقبرة مع الأسياء والحيوان، لم يأت وقتى بعد، قربة النور غبر قادرة للآن أن تنفذ إلى دور الموتى، سأتركك وحدك مع ميتيل.

هـو : هل يمكن إذن لتيلو أن يبقى معنا؟

الكلب : نعم، نعم. سأبقى هنا، أحب أن أبقى مع مولاى الصغير.

بسمة النور : هذا مستحيل، إن أوامر الجنية صريحة، ومع ذلك فليس هناك سىء يخسى منه عليكما.

الكلب : طيب طيب، ما باليد حيلة، إذا وجدتهم أسرار يا مولاى الصغير فما عليك إلا أن تفعل هكذا [يصفّر] وسترى، سأسعفك كما أسعفتك فى الغابة [يسح وا وا وا].

بسمة النور : هيّا بنا، وداعا يا صغبرى العزيزين، لن أكون بعيدة عنكما، [تعانق الصبيين] أن الذين يحبوننى والذين أحبهم سيجدوننى دائمًا [للأشياء والحيوان] أما أنتم فمن هنا.

[يخرج مع الأشياء والحيوان ويبقى الصبيان وحدهما وسط المسرح فتنفتح الستار على المنظر السابع]

المنظر السابع

المقبرة

[بالليل فى نور القمر، مقبرة ريفية، قبور عديدة، ربى مخضرة، صلبان من الخشب، كسوة مقابر من الرخام إلخ إلخ].

[تيلتيل وميتيل واقفان بالقرب من نصب على هيئة عمود مستقيم].

هى : إنى خائفة.

هـو : [باطمئنان مزعزع] أما أنا فلا أخاف أبدًا.

هـى : هل الموتى أسرار؟ قل لى؟

هـو : كلا، كيف يكونون أسرارًا وهم غير أحياء؟

هـى : هل رأيت من قبل واحدًا منهم؟

هـو : نعم، مرة واحدة، منذ زمن بعيد، أيام أن كنت صغيرًا جدًّا.

هـى : كيف هو؟ قل لى..

هـو : شخص كله بياض، هادئ جدًّا، بارد جدًّا، ولا يتكلم.

هـى : هل سنراهم؟ قل لى..

هـو : ولا ريب، فهذا هو ما وعدتنا به بسمة النور.

هـى : أين مكانهم هؤلاء الموتى؟
هـو : هنا تحت العسب أو تحت هذه الأحجار النصله
هـى : أهذا هو مكانهم على مدار العام؟
هـو : نعم.
هـى : [مشيره إلى الأحجار فوق المقابر] أهذه أبواب بيوتهم؟
هـو : نعم.
هـى : أيكون خروجهم حين برقّ الهواء؟
هـو : أنهم غير قادرين على الخروج إلا بالليل..
هـى : ولمـاذا؟
هـو : لأنهم لا يرندون إلا القمصان..
هـى : وهل يخرجون أيضًا فى المطر؟
هـو : إذا أمطرت السماء لزموا بيوتهم.
هـى : هل بيوتهم جميلة؟ قلْ لى..
هـو : يقولون إنها ضيقة جدًّا.
هـى : هل معهم أولاد صغار؟
هـو : طبعًا، معهم كل من يموت.
هـى : ما هو غذاؤهم؟
هـو : إنهم يأكلون جذوع الأشجار.
هـى : وهل سنراهم؟
هـو : لا ريب، فإن إدارة المأساة ستجعل كل شيء ينكشف لعيوننا.

هـى : وماذا سيفولون؟

هـو : لن يفولوا سيئًا لأنهم لا يتكلمون.

هـى : ولماذا لا يتكلمون؟

هـو : لأنه ليس لديهم سىء يقال؟

هـى : ولماذا لبس لدبهم سىء يفال؟

هـو : وجعب لى دماغى [فتره صمت].

هـى : منى ندير الماسة؟

هـو : بسمة النور أوصنا بانتظار منتصف الليل. هذه ساعة لا يزعجهم الخروج فبها إلا فليلاً.

هـى : ولماذا يقل انزعاجهم عند الخروج فى هذه الساعة؟

هـو : لأنها ساعة الخروج لتنسم الهواء.

هـى : هل حلّ نصف اللبل؟

هـو : ألا ترين ساعه الكنبسه؟

هـى . نعم، بل أرى العقرب الصغبر.

هـو : إذن ترين أنها على وسك أن ندق اننتى عسرة مرة، ها هى تدق، أسمعب؟

[تسمع الدقاب الاننتا عشره]

هـى : أريد أن أعود.

هـو : لم نحن العودة بعد، سأدير الماسة.

هـى : كلا كلا، لا تفعل، أريد أن أعود، إننى خائفه يا أخى. أنى متعبة جدًّا.

هـو : ولكن ما من خطر علينا.

هـى : لا أريد أن أرى الموتى، لا أريد أن أراهم.

هـو : لك ما تريدين، أغمضى عينيك فلا ترينهم.

هـى : [تتشبث بثيابه] تيلتيل، لا أستطيع، مستحيل، إنهم سيخرجون من تحت الأرض.

هـو : لا ترتجفى هكذا، إنهم لن يخرجوا إلا لبرهة وجيزة.

هـى : ولكنك أنت أيضًا ترتجف. هل سيكون منظرهم مرعبًا ؟

هـو : أزف الوقت، فقد أصبحنا فى منتصف الليل.

[يدير تيلتيل الماسة، لحظة مرعبة من الصمت والهمود ثم تحدث بطء ترنح الصلبان وانشقاق الأرض فى الربوة المخضرة وارتفاع الحجارة عن القبور].

هـى : [وهى تحتمى بحضن أخيها] إنهم يخرجون، ها هم أمامنا.

[حينئذ ينبعث شيئًا فشيئًا من القبور المفتوحة لفيف زهور نابتة، هى أول الأمر رقيقة متهيبة، إنها كسحابة من البخار، ثم تتحول إلى بياض كوشاح البكر، ويزداد درجة بعد درجة التفافها وعلوها وفيضها وبهاؤها وتحلل شيئًا فشيئًا وبسلطان لا يقاوم كل الأشياء فتحيل المقبرة إلى حديقة ملائكية توحى بالطهارة،

ثم لا يلبث الفجر أن يرف إليها أول ضيائه فيتلألأ الندى، تتفتح الأشجار والأزهار، ويوسوس النسيم بين أوراق الغصون يطن النحل، تستيقظ الطيور فتملأ سواكير سنوتها أرجاء الكون بأناشيد فرحها بالشمس والحياه، تيلتيل وميتيل تتملكهما الدهشه والإعجاب، يده بمسك يدها، ويملأن الخطى من الزهور بحثًا عن آثار الموتى]

هـى : [هى تبحث فى العشب] أين هم هؤلاء الموتى؟

هـو : [يبحث مثلها] ليس هناك موتى.

[ستار]

المنظر الثامن

أمام ستار يمثل سحبا جميلة

[يدخل تيلتيل وميتيل وبسمه النور والكلب والهرة والرغيف والنار وقمع السكر والماء واللبن]

بسمة النور : فى اعتقادى أن يدنا ستقع هذه المرة على الطائر الأزرق وكان ينبغى أن أدرك هذا منذ أول مرحلة فى رحلتنا ولكن لم يحدث إلا فى هذا الصباح حين جدد الفجر قواى أن أسرقَ هذا الإدراك على ذهنى إسراق شعاع من السماء، نحن الآن عند مدخل الفردوس المسحور حيث يجتمع فى حراسه القدر كل ما يعرفه الإنسان من شخوص البهجه والهناء.

تيلتيل : وهل هناك كثير منهم، أيكون لنا منهم نصيب أبينهم صغار مثلنا أيضاً؟

بسمه النور : فيهم الكبير والصغير، والجلف والرقيق، فيهم من له أكبر حظ من الجمال وفيهم من هو أقلّ

لطفاً، أما أسوأهم طبعاً فقد سبق طردهم من هذا الفردوس فوجدوا ملجأ لهم فى ديار سخوص البؤس إذ ينبغى أن لا يغيب عنكم أن سخوص البؤس يقيمون فى مسكن مجاور نافذ على فردوس الهناء، لا يفصل بينهما إلا حاجز كأنه البخار أو كأنه ستار خفيف ينزاح كلما هبت عليه رياح من علياء العدالة أو من قاع الأبد، يحسن بنا أن نعمل بنظام وأن نتخذ بعض تدابير الحيطة، فسخوص الهناء هم فى العادة خيّرون إلا أن منهم من هو أسدّ من سخوص البؤس خطراً وخداعاً.

الرغيف : عندى فكرة، ما دام سخوص الهناء لهم مثل هذا الخطر والخداع أفليس من الأفضل أن نبقى جميعاً عند الباب حتى نحمى الصبيين بسواعدنا إذا اضطرا للفرار بعد دخولهما؟

الكلب : كلا كلا، أريد أن أكون مع مولاى ومولاتى أينما يذهبان فليبق بالباب كل من يرتجف قلبه من الرعب، فليس لنا حاجة إليه [ينظر إلى الرغيف] ولا إلى الجبناء [ينظر إلى الهرة] ولا إلى الخائنين.

النار : أما أنا فذاهبة معهما، يقال إن فى غبان هذا

الفردوس متعه كبيرة وأن أهله لا ينقطعون عن الرقص.

الرغيف : وعن الأكل أيضا؟

الماء : [تتنهد] لم يدخل حياتى قط هناء ولو صغير وأود أن أعرفه اليوم.

بسمه النور : اعقدوا ألسنتكم، لم يسألكم أحدُ رأيكم، إليكم قرارى، الكلب، والرغيف وقمع السكر يصحبون الصبيين، والماء لا تدخل لأنها شديدة البرودة، ولا النار لأنها مفرطه فى الاضطراب، وأناشد اللبن أن يلزم الباب لأنه سريع التأثر، أما الهرة فهى حرّة.

الكلب : إنها خائفه.

الهره : إذن سأنصرف فأسلم فى طريقى على بعض شخوص البؤس فبينى وبينهم صداقة قديمة، فهم يسكنون بجوار شخوص الهناء.

هو : وأنت يا بسمة النور، ألا تأتين معنا؟

بسمة النور : لا أستطيع أن أدخل كما أنا على شخوص الهناء فإن أكثرهم لا يحتملوننى، ولكن لدىّ الوشاح الغليظ الذى أتغطى به إذا زرت السعداء، [تفرد وشاحاً كبيراً تلفّه حولها بإحكام] ينبغى

أن لا يزعجهم سعاع من نورى، إذ أنٍ مِن شخوص الهناء من يعبس فى وجل محروماً من السعادة أما إذا دخلت هكذا فلن يخشانى أحد حتى أقلهم جمالا وأفلهم لطفاً.

[ينفتح الستار على المنظر التاسع]

المنظر التاسع
فردوس الحياة الدنيا

[ينفتح الستار عن ردهة فخمة في مدخل الفردوس ترسمها أعمدة عالية من المرمر، تتدلى بينها أستار من المخمل الثقيل الأرجواني، تعقدها حبال ذهبية، تحجب تحجب عيانه المنظر، طراز البناء يوحي بذروة ما بلغه يوما عصر النهضة في البندقية والأراضي الواطئة من استغراق في الملذات الحسية والترف كما تشهد به لوحات الرسام فيرونيزي وروبنز، أكاليل وتمائم وحدائق وزهريات وتماثيل ورسوم ذهبية مسورة بسخاء، في وسط الردهة مائدة ثقيلة فخمة من حجر الشب المزخرف بالفسيفساء، تزدحم عليها شمعدانات وأكواب من البللور وآنية من الذهب والفضة، تغص بأطعمة فاخرة، يجلس حول المائدة شخوص الترف في الأرض وهم يأكلون ويشربون ويندفعون في الهتاف والغناء، فيهم المرح وهو نشوان، وفيهم المستغرق في النوم، وبين أكداس من لحم الوعل وفاكهة مهولة انقلبت الأباريق والأكواب على المائدة، كل واحد منهم مفرط في البدانة، محتقن الوجه، في ملابس من القطيفة، على الرأس تاج محلى بالذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة، قيان فاتنات لا تنفك عن السعي بأطباق مزينة وشراب مشعشع، وموسيقى تنم عن ذوق فج ماجن تحت الصخب تعلو فيها عزف الآلات النحاسية. المسرح غارق في ضوء أحمر ثقيل

تلتشل وميتيل والرغيف وقمع السكر تغلبهم شيء من الدهشة والانبهار أول الأمر ثم يتحلقون على اليمين في مقدمة المسرح حول نسمة النور، ويمضي الهر دون أن ينبس بكلمة إلى عتبة المسرح، من الناحية اليمنى أيضاً – وترفع ستارة قاتمة اللون وتختفي]

هو : من هم هؤلاء السادة الضخام الذين يلهون
ويلتهمون كل هذه الأطعمة الشهية؟

بسمة النور : إنهم سخوص الرف فى الأرض، ممن تراهم العون، ومن الجائز -وإن كان الاحتمال ضئيلاً- أن نكون الطائر الأزرق قد سرد فنريّب عندهم قليلاً، لذلك لا تتعجّل إداره الماسه، وعلينا الآن دفعاً لوهم النفصر أن نستكسف هذا الجانب من الردهة.

هـو : وهل نستطيع الاقتراب منهم؟

بسمة النور : نعم ولا ريب، فهم غبر أسرار وإن كان فيهم من هو جلفٌ، ومن هو سئ الأدب.

هـى : عندهم فطائر لذيذة.

الكلب : ولحم صد طرىّ ومقدّد، وأزناد خراف وأكباد عجول، هذا أطيب طعام فى الدنيا، لا يفضله طعام آخر، فلا سيء يفضل أو يماثل كبد العجل.

الرغيف : إلاّ الخبز المصنوع من خالص دقيق القمح، عندهم أفخر صنف منه ما أجمل أرغفنهم! ما أجمل أرغفتهم، انها أضخم منى.

قمع السكر : عفوًا عفوًا ومائه مرة عفوًا! اسمحوا لى، اسمحوا.. لا أريد أن أجرح سعور أحد ولكن أنسيتم أن الحلوى هى مجد هذه المائدة فلها من الرواء البديع ما يفوق -إن جاز لى هذا

التعبير- كل سيء لا فى هذه الردهة وحدها بل ربما فى أى مكان آخر.

هـو : يا لسمة الرضى والسعادة الباديه عليكم، لا يكفّ لهم هتاف وصحك وغناء، أظن أنهم قد رأونا.

[ويقوم فعلاً من المائده نفر من شخوص الترف ويخطون بصعوبه مسندين أكراسهم بالأكف، ويتقدمون نحو تيلتيل وصحبته].

بسمة النور: : [لتيلتيل] لا تخش سيئاً، انهم أهل حفاوة وكرم ضيافة وأظن أنهم سيدعونك للعشاء معهم فلا تقبل دعوه ولا طعاماً، لئلا تنسى مُهمّتك.

هـو : ماذا؟ حتى ولا فطيرة واحدة صغيرة؟ إن فطائرهم تبدو شهية طازجة مُسكْره، محسوة بالفاكهة، عامرة بالقشدة.

بسمة النور : إن عواقبها وخيمة فهى ستحطم إرادتك وينبغى أن تعرف كيف تضحى ببعض الأسياء فى سبيل أداء الواجب. فارفض بأدب، ولكن بحزم، ها هم قادمون.

[زعيم الترف يمد يديه إلى تيلتيل]

زعيم الترف : مرحباً بك يا تيلتيل، أهلاً وسهلاً.

هـو : [بدهسه] أتعرفنى إذن؟ مَنْ أنت؟

زعيم الترف : أنا زعيم الترف، أنا الثراء، إننى قادم نيابة عن أخوتى، أدعوك أنت وصحبك لتشريف مأدبتنا التى لا انقضاء لها، وستجد نفسك بين من هم أفضل وأصدق شخوص الترف فى هذه الأرض، واسمح لى أن أقدم لك أهمهم، هذا هو صهرى ترف الحيازة والتملك، وبطنه على هيئة الكمثرى، وهذا هو ترف الغرور والاكتفاء بالنفس، إنه يزهو بأوداجه المنتفخه، وهذا هو ترف الشرب حين لا عطش، وهذا هو ترف الأكل حين لا جوع وهما توأمان وأقدامهما من عيدان المكرونة، [يقومان بتحية تيلتيل وهما يترنحان] وهذا هو ترف الاستغناء عن كل علم، وهو أصمّ كالصخر، وهذا هو ترف الاستغناء عن كل فهم، وهو أعمى كجرذ الجحور، وهذا هو ترف الترفع عن كل عمل، وهذا هو ترف الاسترسال فى النوم بعد الشبع منه، ولهما أيد من لباب الخبز وعيون من مُربّى الخوخ، وهذا ترف الضحك الغليظ، إن فمه مشقوق حتى الأذنين، ولا أحد يقاوم عدواه.

[يقوم بتحيه تيلتيل وبدنه يرتج ويتلوى من الضحك]

هـو : [يشير إلى ترف آخر منتح جانباً] ومَنْ هذا الذى

لا يجرأ على التقدم ويدير لنا ظهره؟

زعيم الترف : لا تلح فى السؤال، انه فى خجل، إذ لا يليق تقديمه للصغار [يمسك يد تيلتيل] ولكن تعال إذن، سنبدأ المأدبة من جديد، لقد تكررت عشرين مرة منذ الفجر، ولسنا فى انتظار أحد غيرك، هل تسمع كل الضيوف يهتفون بدعوتك، لا أستطيع أن أقدمهم لك جميعا فهم عديدون، [يمد ذراعيه للصبيين] اسمحا لى أن أقودكما إلى مقعدى الشرف.

هـو : شكراً سيدى زعيم الترف، يؤسفنى أشدّ الأسف أننى غير قادر فى هذه اللحظة أن ألبّى دعوتكم، إننا فى عجلة، فنحن نبحث عن الطائر الأزرق. فلعلك تعرف صدفة أين هو؟

زعيم الترف : الطائر الأزرق؟ انتظر إذن، نعم. نعم. أتذكّر الآن، لقد سمعتُ عنه من قبل، إنه فيما أظن طائر لا يؤكل، على كل حال إنه لم يُمثُل فوق مائدتنا، ولكن لا تجهد نفسك، فلدينا أشياء أخرى أفضل منه، فتعال لتشاركنا حياتنا وتشهد كل ما نفعل.

هـو : وماذا تفعلون؟

زعيم الترف : كل فعالنا أن لا نفعل شيئاً، فنحن لا نرتاح

ولو دقيقة، إذ ينبغى أن نأكل وأن نشرب وأن ننام، وكل هذا يستنفد وقتنا كله.

هـو : وهل فى ذلك متعه؟

زعيم الترف : من كل بُدّ، فليس فى الأرض متعه سواها.

بسمة النور : أهذا هو اعتقادك؟

زعيم الترف : [يهمس إلى تيلتيل مشيراً إلى بسمة النور] مَنْ تكون هذه السابة السيئه الأدب؟

[وأثناء الحوار السابق يختفى شخوص ثانويه من الترف بالكلب وقمع السكر والرغيف ويقودونهم إلى المأدبة الصاخبه وفجأة يلحظ تلتيل صحبه وقد جلسوا على المائده فى إخاء مع بقيه الضيوف، يأكلون ويشربون ويترنحون]

هـو : [لبسمه النور] أنظرى! إنهم على المائده.

بسمة النور : نادهم وإلا كانت العاقبة وخيمة

هـو : تيلو! تيلو! تعال هنا، تعال هنا حالاً، سامع؟ وأنت يا قمع السكر، وأنت يا رغيف من سمح لكما بالابتعاد عنى، ماذا تفعلان هناك بغير إذن منى.

الرغيف : [وفمه محشو] ألا تستطيع منادانا بلهجه أكثر أدباً.

هـو : يا للعجب! منذ متى تعلّمت هذه الجرأة على؟ ماذا دهاك! وأنت يا تيلو. أهذه هى الطاعه

عندك؟ هيّا، تعال هنا، اركع اركع وبأسرع مما تفعل.

الكلب : [بصوت واطى ومن طرف المائده] أنا حين آكل لا أجيب أحداً ولا أسمع سيئاً.

قمع السكر : [بلهجه معسوله] اعذرنا، إننا لا نستطيع أن نخذل أصحاب بيت لهم مثل هذا الظرف.

زعيم الترف : حلمك حلمك، إنهم يضربون لك المثل، فالضيوف ينتظرونك ونحن لا نقبل الاعتذار، سنرغمك بلطف على الجلوس، هيا يا سخوص الترف، ساعدونى، ادفعوه دفعًا إلى المائدة حتى ينعم بالسعادة رغم أنفه.

[تتقدم سخوص الترف وهى تترنح وتتماسك قدر جهدها وتهلل فى فرح وتجذب الصبيين وهما يقاومان، بينما يلف ترف الضحك الغليظ ذراعه على خصر بسمه النور]

بسمة النور : [إلى تيلتيل] أدر الماسة فقد آن الأوان.

[تيلتيل يستجيب لها، ما يكاد يدير الماسه حتى تعمر المنظر ضياء لا وصف ولا حد لنقائه، كأنما تعكس عليه الملائكه لون أجنحتها الورديه، صاف رقراق، تنفك وتختفى عن مقدمه المنظر زخارفه الثقيله وأستاره الصفيقه الأرجوانيه، فتتكشف عن حديقه ناعمه كأنها من عالم الخرافه، تسودها دعه وسكينه، هى أشبه شيء بصرح أقامته مملكة النبات، ترتاح العين لانسجام خطوطه وأبعاده، إنها حديقه ثرية بأغصان فتيه تترقرق عليها الضياء، ملتفه ومتشابكه بلا فوضى، الزهور سكرى بطهارتها،

ومياه صافيه تنطق بالجدل وهى تصب وتسيل وتصطفق فى جداول جاريه، كأنما عد رحاب الهباء إلى حدود الأفق، تبهد مائده العربده ولا يبقى لها أثر، ستائر المخمل والحرير وتيجان شخوص الترف ما تكاد تتلقى أوائل أنفاس هذا الضياء المشعشع الذى يغمر المنظر حتى ترتفع وتتمزق وتتهاوى، وكذلك الأقنعة الضاحكة الملقاة تحت أقدام الضيوف وقد عرتهم الدهشة، ويسقط انتفاخ شخوص الترف تباعاً على مرأى العين انسقاط مثانة انفجرت، يتبادلون النظرات وأجفانهم تطرف من أثر هذا الضياء المجهول الذى تعشى له أبصارهم، وحينما تتجلى لهم حقيقتهم ويرون أنفسهم شخوصاً دميمه، رخوه، رزية تنبعث منهم صيحات الخجل والوجل، تتبين الأذن بوضوح من بينها صيحه ترف الضحك الغليظ بسبب علوها على صيحات الآخرين، وترف الاستغناء عن كل فهم يظل ساكناً كل السكون، على حين يضطرب زملاؤه وقد أحسوا بالضياع، يتلمسون وسائل الهرب بالاختفاء فى الأركان للتستر بعتمتها فيما يأملون، ولكن سناء الحديقة الرائعه لم يترك بها أثراً لظل، فيعمد بعضهم فى يأسهم من النجاه إلى اقتحام ذيل الستاره المائلة فى ركن على اليمين، المنعقدة فوقها سقيفه باب كهف شخوص البؤس، وكلما هم كل واحد منهم فى رغبه بإزاحة الستاره قليلا انبعث من أغوار الكهف سيل من السباب واللعنات والشتائم، أما الكلب والرغيف وقمع السكر فقد تخاذلوا وتدلت آذانهم وانضموا إلى صحبة الصبيين واختبئوا فى خجل وراءهما].

تلتيل : [وهو يرقب فرار شخوص الترف] ما أبسع دمامتهم. إلى أين فرارهم؟

بسمة النور : جُن جنونهم ولا ريب، أنهم يلجئون إلى

سخوص البؤس وأخنسى أن يحتجزوهم عندهم إلى الأبد.

هـو : [يلتفت حوله مسحورًا بما يرى] ما أجملها من حديقة، ما أجملها من حديقه، ولكن أين نحن؟

بسمة النور : لم يتبدل مكاننا، إنما التبدل فى نظرة العيون، نحن الآن نسهد حقيقه الأسباء، سرى سخوص الهناء النى تتحمل سناء الماسه.

هـو : ما أبهى هذا المنظر وما ألطف هذا الهواء، يخيل إلىّ أننا فى اعتدال الربيع، ما الذى أرى؟ من الفادمون علينا من هناك، لعلّهم سيعنون بأمرنا.

[وتندأ الحديقة فعلا بالا لاء ســحوص ملائكيه كأنما انفلتت من سبات طويل ويحو ر باىسحام خلال الأسجار، علىها ملاىس يشع منها صـ . له أطياف ترباح العس لتناسقها وبهائهها، تتفتح الرهـ ـ فى الحديقه، ويمر نغر الحداول، ويسرى سناء فجر وليد، وىتلألأ الندى].

بسمه النور : ها هى ذى فئة من شخوص الهناء فادمة إلىنا، ىدفعهم حـ " النطلع، ولكنهم أهل ظرف وسماحه، سنعلم منهم الخبر.

هـو : وهل تعرفينهم؟

بسمة النور . نعم، أعرفهم جميعًا فإنى ألمّ بهم مرارًا دون أن ىدركوا من أنا.

هــو : ما أكبرهم، ما أكبرهم، إنهم قادمون من كل صوب.

بسمه النور : كانوا أكبر عددًا من قبل، فقد أضر بهم شخوص الترف.

هــو : لا ضير عليهم فقد بقى منهم عدد ليس بالقليل.

بسمة النور : وسترى كثيراً غيرهم كلما طاف ضياء الماسه بالحديقة، فإن شخوص الهناء فى الأرض أكثر مما نظن، ولكن أغلب الناس لا ينتبه إليهم.

هــو : ها هم صغارهم يتقدمون إلينا، فلنجرِ للقائهم.

بسمه النور : لا تتعب نفسك، فكل من يعنينا أمره سيمرّ من هنا ولا يتسع وقتنا لمعرفة الآخرين.

[صغار شخوص الهناء تتوثب وتتضاحك بملء الأفواه، تتقدم من مؤخرة الحديقة وترقص متحلقة حول الصبيين].

هــو : ما أوسمهم، ما أوسمهم، من أين أتوا؟ ومَنْ هم؟

بسمة النور : إنهم شخوص هناء الأطفال.

هــو : هل لى أن أكلمهم؟

بسمة النور : لا داعى للكلام فهم لا يعرفون إلا الغناء والرقص والضحك، أما الكلام فلم يتعلّموه بعد.

هــو : أهلاً أهلاً [إلى بسمه النور] انظرى إلى هذا الطفل

السمين الضاحك ما أجمل خدودهم وما أبهى ملابسهم. أكلّهم أثرياء؟

بسمة النور : كلّا، هنا كما فى كل مكان يزيد الفقراء على الأغنياء.

هـو : وأين الفقراء بينهم؟

بسمه النور : لا تتبينهم العين لأن هناء الأطفال ملفوف فى أجمل كساء فى الأرض أو فى السماء.

هـو : [وهو لا يستقر فى مكانه] أريد أن أرقص معهم.

بسمه النور : هذا مستحيل، فليس لدينا وقت، أنى أرى أن الطائر الأزرق ليس عندهم، وهم فوق ذلك فى عجلة، فأنت تراهم قد أخذوا فى الانصراف. وهم أيضًا وقتهم قليل فلا يُضيعونه هدرًا، فأمد الطفولة قصير.

[يهرع إلى الحديقه فئه من شخوص الهناء أطول من السابقين، يتعالى غناؤهم وهم يهتفون: ها هم قد أتوا، ها هم قد أتوا، انهم يروننا، ثم يرقصون بمرح حول الصبيين وعند نهايه الرقصه يتقدم من هو فى الظن زعيم هذه الفئة الصغيرة نحو تيلتيل ويمد له يده]

الهناء : أهلًا بك يا تيلتيل.

هـو : مرة أخرى أجد من يعرفنى، [إلى بسمه النور] قد بدأت أن أكون معروفًا لدى الجميع هنا، [إلى الهناء] مَنْ أنت؟

الهناء : أنت لا تعرفنى؟ أراهنك أنك لا تعرف أحدًا منا هنا.

هـو : [بلا حرج] فعلاً، لا أعرف أحدًا، فلا أذكر أننى رأيتك من قبل.

الهناء : [لزملائه] أتسمعون؟ كنت وانقًا أنه سيقول أنه لم يرنا، [تنفجر بقية شحوص الهناء بالضحك] ولكن يا عزيزى تيلتيل، أنت لا تعرف أحدًا غيرنا، نحن دائمًا من حولك، فى صحبتك، نأكل ونشرب ونصحو ونتنفس ونعيس.

هـو : نعم. نعم أنت على حق، أدركت الآن صدق ما تقوله، فإننى تذكرت ولكنى أود أن تنبئونى بأسمائكم.

الهناء : أرأيت أنك لا تدرك شيئًا، أنا هناء بيت الأسرة، بيتك، وزعيم كل هناء آخر يسكنه.

هـو : أفى البيت أشكال أخرى من الهناء؟

[يفج شحوص الهناء بالصحك]

الهناء : هل سمعتم؟ يسأل أفى البيت هناء آخر، البيت يا بنىّ مكتظ بأسكال من الهناء حتى تكاد تفيض من سدود أبوابه ونوافذه، ونحن نزحمه بالضحك والطرب والفرح حتى لتكاد الجدران تتراجع أمامنا وحتى يكاد السقف يطير، ولكن

مهما بذلنا من أنفسنا لك فأنت لا برانا. أرجو أن برجع عقلك لرأسك قليلاً من قادم، وإلى أن يحدث لك هذا تعال صافح أعواننا حتى إذا رجعت لبيتك سهل عليك تبينهم ثم تعرف فى نهاية يوم سعيد كيف تسجعهم بابتسامه منك وتسكرهم بكلمه طيبة، لأنهم يبذلون كل جهدهم من أجل أن تنعم بحياة حلوة خفيفة الحمل، دعنى أقدم لك نفسى أولاً، خادمك المطبع: هناء المتمتع بالصحه والعافيه، ولعلّ جمالى لا يفوق جمالهم بريقًا، ولكنى أهمهم، أتعرفنى الآن؟ وها هو هناء التمتع بالهواء الطلق، إنه يكاد يكون سفافًا، وها هو هناء تمتع الولد بحبه لأبويه، ينمّ لون ثوبه الرماديّ عن حشمته ولا يسلم من حزن طفيف لأن العيون قلما تأبه به، وهذا هو هناء التمتع بالسماء الزرقاء، ثوب أزرق بطبيعة الحال، وهذا هو هناء التمتع بالغابة، وثوبه أخضر بطبيعه الحال أيضًا، ستراهم جميعًا إذا جلست إلى النافذة، وهذا هو هناء التمتع بإشراق الشمس، له لون الماس، وهذا هو هناء التمتع بالربيع، إنه فى لون الزمرد وبه طيس.

هــو : هل لكم هذا الجمال كل يوم؟

الهناء : أىْ نعم، فكل الأيام يوم عيد فى كلّ البيوت، إذا عرف أهلها كيف يفتحون عيونهم، ثم إذا حل المساء وأتاك أصحابى هؤلاء، دعنى أقدمهم لك، هذا هو هناء التمتع بالغروب، وهو أبهى من كل ملوك الأرض، ثم يتبعه هناء التمتع بطلوع النجوم وبثيابه من ذهب كآلهة الأقدمين، ثم إذا تكاثرت السحب وأتاك صاحبى هذا، إنه هناء التمتع بالمطر وثوبه مطرز باللؤلؤ، ومعه هناء التمتع بمدفأة الشتاء الذى يسدل على الأيدى المثلجة وشاحه القرمزىّ، ولكنى لم أحدثك عن أفضلنا جميعًا لأنه يكاد يكون أخًا شقيقًا للنعم الكبرى الصافية التى ستراها قريبًا، وأعنى به هناء التمتع بفكر طاهر برىء، وهوأكثرنا نقاءً، وها هو هناء آخر، ولكن ما أكثر من احتاج إلى تقديمه إليك، ولو فعلت لما انتهيت، فينبغى لى أن أنبىء بمقدمكم النعم الكبرى المشرفة علينا هناك، فى آخر الحديقة، بالقرب من باب السماء، فإنها لا تعلم بعد أنكم قد أتيتم، سأبعث إليهم بهناء التمتع بالجرى على قطرات الندى بأقدام حافية، فهو أخفّنا

حركة [يخاطب الهناء الذى وقع عليه اختياره، فيتقدم مسرفًا فى الترحيب بالحركة والتوثب - ويستطرد الهناء قائلًا له]

هيّا، طِرْ إلى حيث أرسلتك.

[يتقدم فى هذه اللحظة هناء آخر، عار إلا من ستر أسود على خاصرته، يزاحم بفيه سخوص الهناء وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة، ويقترب من تيلتيل وهو يتوثب، فيعاكسه بوضع كفه على الأنف وتلعيب أصابعه، محاولا صفعه أو ضربه بالقدم، وإذا هم تيلتيل بصده تملص منه].

هـو : [وقد علته الدهشة والجنون] من هذا المتوحّش؟

الهناء : أمرى لله، لا مفرّ من أن أقدمه لك، إنه هناء العفرتة، وقد هرب من كهف سخوص البؤس، لا ندرى أين نحتجزه، فإنه يهرب من كل محبس، بل إن سخوص البؤس ترفض إيواءه.

[يتمادى هناء العفرتة فى معاكسة تيلتيل الذى يحاول عبثا صده عنه، ثم إذا به ينفجر فجأة بضحكة عالية وينصرف بلا دافع كما أتى].

هـو : ماذا به؟ هل أصابه مسّ من الجنون؟

بسمة النور : لست أدرى، والظاهر أن حالك يكون كحاله حين تتحامق وتركب رأسك، ولكن بقى علينا أن نسأل عن الطائر الأزرق فلعل زعيم هناء البيت لايجهل مكانه.

هـو : [يسأل الزعيم] أين الطائر الأزرق؟

الهناء : صاحبنا لا يعرف الطائر الأزرق.

[يضج كل شخوص هناء البيت بالضحك]

هـو : [في غضب] نعم، لا أعرف أين هو، وليس في هذا مدعاة للضحك.

[ضحكات أخرى]

الهناء : حلمك، لا تغضب، [ثم إلى بقية شخوص الهناء] دعونا الآن نتكلم بجدّ، إنه صادق في قوله إنه لا يعرف أين الطائر الأزرق. وما العجب في ذلك؟ إنه ليس بأقلّ غفلة عن بقية الناس، ولكن ها هو هناء التمتع بالجرى على قطرات الندى بأقدام حافية قد نقل النبأ إلى النعم الكبرى وها هي ذي تتقدم إلينا.

هـو : ما أجملهن، لماذ لا يضحكن. أهُنّ غير سعيدات؟

بسمة النور : لا يكون الضحك دائمًا دليلًا على فرط السعادة.

تيلتيل : مَنْ هُنّ؟

الهناء : هي النعمُ الكبرى.

هـو : أتعرف أسماءهن؟

الهناء : أعرفها بطبيعة الحال، فلطالما لعبت معهن، ها هي ذي أولًا وفي مقدمة الباقيات، نعمة القدرة

على العدل، وهى تبتسم كلما رأت انتصارًا على ظلم، وأنا لصغر سنى لم أرها تبسم بعد، ومن ورائها نعمة طيبة القلب، هى أكثرهن سعادة وإن كانت أكثرهن أسى، ونحن لا نحتجزها إلا بمشقة عن مضيها لشخوص البؤس الذين تود أن تواسيهم، وعن اليمين نعمة الراحة فى إنجاز العمل، بجانبها نعمة الفكر، ثم نعمة الفهم، وهى تبحث دائمًا عن شقيقها: ترف الاستغناء عن الفهم.

هـو : ولكنى رأيت شقيقها، إنه ذهب إلى شخوص البؤس مع شخوص الترف.

الهناء : كنت واثقًا من ذلك فإنه أصبح ضالًّا أحمق من فرط معاشرته لقرناء السوء، فأصيب طباعُه بالشذوذ، ولكن حذار من أن نجئ سيرته على لساننا أمام شقيقته وإلا مضت تبحث عنه وفقدنا بذلك وجود نعمة كبرى بيننا، وها هى ذى أيضًا واحدة من النعم الكبرى إنها نعمة رؤية الجمال أينما كان، إنها تضفى كل يوم مزيداً من بهاء أشعتها على الضوء الذى يغمر هذا المكان.

هـو : ومَنْ هى الماثلة هناك، بعيدًا، بين السحب

الورده، لا أراها إلا إذا سببت غابه جهدى على أصابع قدمىّ.

الهناء : هذه هى نعمه القدره على الحبّ، ولكن هبهات لك أن نتبينها كل التبين فأنت ما زلت صغيراً.

هـو : ومَن هُنّ الواقفات إلى الخلف، يمنعهن التهيب عن التقدم إلينا، ولماذ وجوههن محجبه؟

الهناء : هى النعم التى لم يعرفها الإنسان بعد

هـو : وماذا تدبّره الأخريات لنا، وما لهن قد انسقفن صفّين؟

الهناء . لاستقبال نعمة أخرى قادمه، لعلها أكثر النعم طهارة وصفاء.

هـو : ومَنْ نكون؟

الهناء : ألم تتبين بعد؟ فأمعن النظر إليها، وافتح عينك لتطل منها قلبك أيضاً. هذه النعمه قد رأتك، قد رأتك، إنها تجرى نحوك فاتحة لك ذراعيها، إنها نعمه الأمومه متمثلة فى أمّك، وإن نعمه الأمومه ليس كمثلها نعمة أخرى.

[تتزاحم النعم حول نعمه الأمومة وترحب بها ثم تصطف بين يديها وتلزم الصمت توقيراً لها]

نعمة الأمومة : تيلتيل وأنت يا ميتيل، كيف أجدكما هنا؟ لم أكن أتوقع لقاءكما، إذ كنت أعانى من الوحده

فى البيب، فإذا بكما تعرجان إلى السماء حسب
سألق بالسرور أرواح كل الأمهات، ولكن
لنبادل العناق والقبلات، قبلات كسره، قدر
ما نستطيع، ارتما فى حضنى فلبس فى العالم
سعادة أكبر من هذه السعاده، لماذا لا تبسم
من البسر بما تلسل، وأنت كذلك يا متبل،
ألا تتبينان حبّ أمكما، انظرا إلىّ بإمعان،
ألا تريان عينىّ وسفنى وذراعى.

هــو : نعم، نعم، إننى أتبينها ولكنى لم أكن أدرى، لك صوره أمنا ولكنك أجمل منها.

نعمة الأمومه : هـذا حق لأننى أصبحت لا أنفدم فى السبخوخة، وكل يوم يمضى يمنحنى قبضًا من القوة والسباب والسعادة، وكل بسمه منكما ترفع مما مضى لى من عمر ىقل كاهلى سنة بأكملها، لا ييبن لكما هذا فى البيت ولكن كل شىء هنا منبىن على حقيقته.

هــو : – يأخذه الدهسة ويتأمل أمّه ويحضنها ويعانقها بدوره – ما هذا الثوب الجميل، من أى نسيج هو؟ أهو من حرير أو من فضة أو من لؤلؤ..

نعمة الأمومة : كلا، إنه من حنوّ النظرات والقبلات واللمسات، فكل قبلة تهبه شعاعًا من القمر أو

من الشمس.

هــو : هذا عجيب، فلم أكن أحسب قط أنك على مثل هذا الثراء، فأين إذن كنت تخفين هذا الثوب الجميل، أفي الصوان الذي مفتاحه مع أبي؟

نعمة الأمومة : كلا، كنت ألبسه كل يوم، ولكن العين لا تراه لأنها لا ترى شيئًا إذا كانت بلا بصيرة فكأنها مغمضة، هذا الثراء لكل أم تحب أولادها، فقيرة هي أم دميمة أم عجوز، فإن حبّ الأم لأولادها هو من بين النعم الكبرى أكثرها جمالاً وبهاء وكل سحابة من الحزن على وجه أم يكفيها لكي تنقشع وتتبدد قبلة واحدة تهبها أوتنالها وتصبح الدموع نجومًا تتلألأ في محجريها.

هــو : [ينظر إليها في دهشة] نعم، هذا حق، فإني أرى نجومًا تتلألأ في محجريك، إنهما عيناك كما عرفتهما ولكنهما الآن أكثر بهاء، وها هي ذي يدك أيضًا، وها هو ذا خاتمك، بل ها أنذا أرى أثر الحرق الذي أصابها ذات يوم وأنت تشعلين المصباح، ولكن زاد بياض هذه اليد وزاد صفاء بشرتها، كأنما يفجّ منها النور. أهي تعينك الآن

في العمل كما كانت تفعل سابقتها في البيت؟

نعمه الأمومه : نعم، فهي يد واحدة لم تتبدل، أفلم تكن تراها في البيت تتألق بالبياض ويفيج منها النور كلما ربتت عليك بحنان؟

تيلتيل : هذا عجيب يا أمي، هذا هو صوتك بعينه، ولكن كلامك هنا أجمل من كلامك في البيت.

نعمة الأمومة : أنسبت كثرة مشاغلي في البيت وزحمة العمل، ولكن إحساس القلب يغني عن شهادة الأذن والآن وقد أبصرتني فهل ياترى ستتبين صورتي هذه إذا عدت للكوخ غدًا ورأيتني في ثيابي الممزقة؟

هــو : لاأريد أن أعود مادمت أنت هنا، فإني أحب أن أكون معك طوال بقائك في هذا المكان.

نعمه الأمومة : الأمر سيان، لا فرق بين بقائنا معًا هنا وبين بقائنا معًا في البيت، أنت وأنا، أنت لم تأت هنا إلا لتدرك وتعرف في أية صورة ينبغي لك أن تراني حين تراني في البيت. أفاهم أنت يا تيلتيل؟ أنت تحسب أنك الآن في عالم علويّ، ولكن هذا العالم العلويّ لم يكن ينقصنا من قبل كلما تبادلنا العناق والقبلات، ومعنى الأم لا يقبل الثنية، فليس لك أم

سواى، لكل ولد أم واحدة لا تتبدل، هى
عنده دائما أجمل الأمهات ولكن ينبغى له أن
يدرك حقيقتها ويعرف كيف يراها، ولكن قل
لى كيف فعلت حتى وصلت إلى هذا المكان
ووجدت طريقا ظلّ الإنسان يبحث عنه منذ
أن سكن الأرض؟

هـو : [مشيرا إلى بسمة النور] هى التى قادتنى [تتراجع بسمة النور متحشمة].

نعمة الأمومة : ومن تكون هى؟

هـو : إنها بسمة النور.

نعمة الأمومة : إذن هى صاحبتك التى سمعتُ عنها، يقولون إنها تحبك كثيرا، وإنها طيبة القلب. ولكن لماذا تتحجب؟ ألا تسفر عن وجهها أبدا؟

هـو : نعم نعم، ولكنها تخشى أن يتزلزل الهناء إذا تجلّت له الحقائق بفضلها.

نعمة الأمومة : ألا تدرى صاحبتك إذن أنها هى التى ننتظرها دون أحد سواها، [تنادى على بقية النعم] أقدمن يا أخواتى، أقدمن جميعكن، هذه هى بسمة النور جاءت أخيرًا لتزورنا.

[تربط النعم وتهلل وهى تقترب].

النعم : بسمة النور هنا، بسمة النور هنا.

نعمة الفهم : [تزيح كل أحواتها لتتمرد بمعانقة نسمة النور] لم نكن ندرك أنك بسمه النور، فأنت أذن هى، لقد لبثنا ننتظرك زمنا طويلا، أتعرفننى؟ إننى نعمة الفهم التى طالما بحثت عنك، إننى فى غاية السعادة وإن كنت لا أرى أبعد من أنفى..

نعمه العدل : [تعانقها بدورها] هل تعرفيننى؟ إننى نعمه العدل التى طالما ناسدتك العون، إننى فى غاية السعاده وإن كنت لا أرى أبعد من ظلّى.

نعمة الجمال : [تعانقها كذلك] إننى نعمة القدرة على رؤية الجمال التى طالما هامت بك، إننى فى غاية السعادة وإن كنت لا أرى أبعد من مسرى أحلامى.

نعمة الفهم : كفى كفى يا أخواتى وإلا طال انتظارنا، نحن لا ينقصنا ثبات القوة، ولا تنقصنا سلامة الطوية، [مخاطبة نسمه النور] هيّا، انزعى كل الأحجبة التى تخفى عنا بقية الحقائق، وبقية النعم، ها أنت ذى ترين كل أخواتى راكعات عند قدميك، فأنت مليكتنا، وأنت نوابنا.

نسمة النور : [وهى تمعن فى حجب وجهها] أخوانى، أخواتى، الجميلات، إن لى مولى أطيعه، لم يحن الوقت بعد، لعله يحين فيما بعد، حينئذ سأقبل عليكن بلا خشية، منفلتة من حجُب الظلال، فوداعًا،

انهضن نتبادل العناق، مرة بعد أخرى، سأن سفيهات اجمعن بعد فراق، انتظارًا منا للنوم الموعود.

نعمة الأمومة : لن أنسى كرم رعايتك لولدىّ الحبيبين.

بسمة النور : إننى سأرعى دائمًا كل أناس يحب بعضهم بعضًا.

نعمة الفهم : لتكن آخر قبلاتك قبلة على جبينى.

[تتبادلان العناق طويلًا ثم تنفصلان وإذا العيون دموع تترقرق].

هــو : [بدهشة] لماذا تبكيان؟ [ينظر إلى بقية النعم] وأنتن أيضًا، لم البكاء، لماذا لم تبق واحدة لم تترقرق فى عينيها الدموع؟

بسمة النور : اسكت يابنىّ...

[ســـتار]

الفصل الخامس

المنظر العاشر: عالم الغد

[بهو فسيح فى قصر الأثير، حيث يقيم الأطفال الذين لم يولدوا بعد، على مد النظر أعمده من الياقوت تسند عقودًا من الزمرد، كل مافى البهو من ضوء وعتبات لازورديه، وشعشعه نهايه البهو حيث تتراجع الأعمده، وتنبهم أواخرها. كل الأشياء كبيرها وضئيلها تحللها علالة من زرقه لطيفه كأنها من عمل السحر أو من نسج الخيال، نشد عن ذلك قواعد الأعمده وتيجانها والأحجار واسطه العقود وبعض الكراسى والمقاعد الدائره فإنها من الرخام أو المرمر، إلى اليمين، بين الأعمدة أبواب ضخمة من العقيق، هذه الأبواب التى سيفتحها الدهر قبل ختام المنظر فتنكشف الحياه على الأرض ومطالع الفجر، يتناثر بتناسق فى كل أرجاء البهو حشد من الأطفال، يلبسون ثيابًا فى زرقه السماء، بعضهم يلعب، وبعضهم يتمشى، وبعضهم مستغرق فى الحديث أو الأحلام، وكثير منهم فى سبات، وكثير منهم أيضًا يشتغلون بين الأعمدة بتجارب تسفر عن مخترعات الغد، ما يصنعونه من أدوات وعدد وأجهزة، وما يزرعونه أو يجنونه من نبات وزهور وفاكهه تلفها جميعا علالة من الزرقة السماوية التى تجلل البهو كله، يجوس بين الأطفال فى صمت شخوص كأنها من ملائكة، لها قامة مديده، وبهاء رائع مطمئن.

يدخل من اليسار، وكأن الدخول خلسة، بالتسحب خلف الأعمده فى مقدمه المسرح كل من تيلتيل وميتيل وبسمه النور فينور لدخولهم بين الأطفال هرج ومرج، ثم يهرعون إليهم من كل صوب، ويتحلقون حول هؤلاء الزوار الأغراب وينظرون إليهم بدهشة]

مسل : أين قمع السكر والهرة والرغيف؟

بسمة النور : ليس من شأنهم الدخول هنا، فلو تركناهم يدخلون لعرفوا المستقبل ورفضوا الطاعه.

ميتيل : والكلب؟

بسمه النور : يحسن أيضًا أن لا يعلم ما ينتظره على مرّ القرون، لقد جمعتهم كلهم فى قبو الكنيسه.

هـو : وأين نحن؟

بسمة النور : نحن فى عالم الغد، بين الأطفال الذين لم يولدوا بعد، وبما أن الماسه ستتيح لنا أن نبصر هنا بوضوح كل ما يعجز الإنسان عن رؤيته فإننا فى أغلب الاحتمال سنعثر هنا على الطائر الأزرق.

هـو : عسير أن لا يكون أزرق اللون، فهذا هو لون كل شىء هنا (يتأمل فيما حوله) ما أجمل هذا المشهد.

بسمة النور : أنظر إلى الأطفال الذين يجرون إليك.

هـو : هل أغضبهم حضورنا؟

بسمة النور : كلا، فأنت ترى أنهم يبتسمون ولكنهم فى دهشة.

الأطفال الزرق : [يجرون إليهم وقد تكاثر عددهم] أحياء صغار، تعالوا وانظروا الأحياء الصغار.

هـو : لماذا يسموننا بالأحياء الصغار؟

بسمة النور : لأنهم لم يصبحوا بعد من الأحياء.
هـو : وماذا يفعلون إذن؟
بسمه النور : إنهم ينتظرون ساعه مولدهم.
هـو : ساعه مولدهم.

بسمة النور : نعم، فهنا يتجمع كل الأطفال الذين يولدون فى الأرض، وكل واحد منهم ننتظر ساعته، وحين بود الأباء والأمهات أن يرزقوا بأطفال فإن هذا الباب الكبير الذى تراه هناك، على اليمن، ينفتح ويخرج منه هبتهم من الأطفال.

هـو : ما أكثر عددهم، ما أكثر عددهم؟
بسمة النور : وهناك كنير أيضا غيرهم، فنحن لا نراهم كلهم، تخيّل عدد الأطفال الذين سيعمرون الأرض إلى آخر الدهر، لا أحد يقوى على إحصائهم.
هـو : ومن هى تلك الشخوص الزرق؟
بسمه النور : لا يدرى أحد أمرها على وجه التحقيق، يقال إنها الحارسات الحفظه، وعهدها بالأرض يأتى بعد عهد البشر، غير أنه لا يجوز لنا أن نستجوبها.
هـو . ولماذا؟

بسمه النور : لأن ما عندها هو سر الأرض.

هـو : وما الفول فى الصغار؟ هل نستطيع أن نكلمهم؟

بسمه النور : نعم، وينبغى أن نتعارف، انظر، ها هو ذا واحد منهم أسد من الآخرين تطلُّعًا إليك فاقترب منه وكلّمه.

هـو : وماذا أقول له؟

بسمه النور : ما تشئ، كأنما تتحدث إلى رفيق.

هـو : وهل لى أن أصافحه؟

بسمه النور : بطبيعه الحال. فهو لن يؤذيك، ولكن عجبا لك، لِم هذا التهيب، سأترككما وحدكما لتجد راحتك معه، ثم لابُد لى من أن أتحدث مع السخوص الزرق.

هـو : [يقترب من الطفل الأزرق ويمد له يده] أهلاً وسهلاً، [يلمس بأصبعه ثوبه الأزرق] ما هذا؟

الطفل الأزرق : [يلمس بجدّ قبعه تيلتيل] وما هذه؟

هـو : هذه هى قبعتى، أليس لك قبعة؟

الطفل الأزرق : لا، وفيمَ لبس القبعات؟

هـو : خلعها يعنى الإشارة بالتحبه، ثم إنها تنفع فى البرد.

الطفل الأزرق : ما هو البرد؟

هـو : حين يرتجف جسدك هكذا [يقلد تيلتيل حركه ارتجاف

المقرور] وحين تنفخ فى كفيك وتطوّح بذراعيك هكذا [يطوّح تيلتيل بذراعيه].

الطفل الأزرق : هل فى الأرض برد؟

هـو : نعم، فى فصل الشتاء، حين لا حطب فى المدفئة.

الطفل الأزرق : ولماذا لا يكون فيها حطب؟

هـو : لأنه غالى الثمن ولا بد من نمود لشرائه.

الطفل الأزرق : ماهى النمود؟

هـو : هى السىء الذى ندفع به.

الطفل الأزرق : فهمتُ.

هـو : وبيننا من عنده نقود، وبيننا من ليس عنده نقود.

الطفل الأزرق : ولمـاذا؟

هـو : لا نقود إلا عند الأغنياء، هل أنت غنى؟ كم عمرك؟

الطفل الأزرق : سأولد عما قريب، بعد عشر سنوات، كيف وجدت أنت الولادة، هل طبت بها؟

هـو : نعم وسررت أيضًا.

الطفل الأزرق : وماذا فعلت لتنالها؟

هـو : لم أعد أذكر، ففد مضى عليها وقت طويل.

الطفل الأزرق : سمعنا كلامًا كثيرًا عن جمال الأرض وجمال الأحياء.

هــو : صدقت، فأنا لا أشكو من سىء، فعندنا طيور وكعك ولعب، بعض الأولاد عندهم كل هذا، ومن ليس عنده يستطيع أن يتمتع برؤيتها فى يد الآخرين.

الطفل الأزرق: سمعنا أن الأمهات يففن بالأبواب لمراقبتنا، يفال إنهن طيّبات القلب، أحقّ هذا؟

هــو : نعم، الأمهات أبدع سىء فى الأرض، والجدّات أيضًا، غير أن الموت يتخطف الجدّات سريعًا.

الطفل الأزرق : تقول الموت؟ ما هو الموت؟

هــو : رحيل ذات مساء بلا عودة.

الطفل الأزرق : لمـاذا؟

هــو : لا أحد يدرى، لعلّ الدافع على الرحيل هو طلب النجاة من الأحزان.

الطفل الأزرق : وهل رحلت عنكم من تسميها جدتك؟

هــو : نعم، وكانت طيبه القلب جدًّا.

الطفل الأزرق : ماذا جرى لعبنك، إنهما تذرفان لؤلؤًا.

هــو : ليس لؤلؤًا.

الطفل الأزرق : ما هو إذن؟

هــو : لا شىء سوى أثر انبهار بصرى من انتشار الزرقة حولى.

الطفل الأزرق : وما اسمه؟

هـو : اسم ماذا؟
الطفل الأزرق : هذا الذى بنرفرق فى عنىك.
هـو : ما هو إلا قطرات من الماء.
الطفل الأزرق : وهل تنبع من العينين؟
هـو : نعم، أحياناً، عند البكاء.
الطفل الأزرق : تقول البكاء؟ ما هو البكاء؟
هـو : إننى لم أبك، الذنب ذنب الزرقة من حولى، ولو بكيت لكان حالى أيضًا كما ترى.
الطفل الأزرق : وهل يبكون عندكم كثيرًا؟
هـو : الصبيان لا يبكون، أما البنات... وهل عندكم أنتم بكاء؟
الطفل الأزرق : كلا، ولا أعرف كيف أبكى.
هـو : صبراً! ستعرف فيما بعد، بماذا تلعب، ما هذه الأجنحة الكبيرة؟
الطفل الأزرق : هذه؟ إنها من أجل الاختراع الذى سأقوم به فى الأرض.
هـو : أى اختراع هو؟ هل اخترعت شيئاً؟
الطفل الأزرق : نعم، أفلا تدرى؟ حين أحلّ بالأرض ينبغى لى أن أخترع الشىء الذى يهب السعادة.
هـو : أهو شىء لذيذٌ أكله، أم شىء له ضجيج؟
الطفل الأزرق : كلا، لا حسّ له.

هـو : يا للخسارة..

الطفل الأول : إننى أسغل به كل يوم، وأكاد الآن أنجزه، هل تريد أن تراه؟

هـو : طبعاً، أين هو؟

الطفل الأزرق : هناك، بين عمودين، يمكنك أن تراه من هنا.

[يقترب طفل أزرق آخر من تيلتيل ويشده من كمه]

الطفل الثانى : هل تريد أن ترى اختراعى أنا أيضاً؟

هـو : نعم، وما هو؟

الطفل الثانى : الوصفات الأربع والأربعون لإطالة الحياه، إنها فى هذه الزجاجه الزرقاء.

طفل ثالث : [يخرج من الحشد] أما أنا فسأسلط نوراً لا يعرفه أحد [يسطع جسمه بنور عجيب] أليس هذا بغريب؟

طفل رابع : [يشد تيلتيل من ذراعه] تعالَ لكى ترى الآله التى اخترعتها، إنها تحلق فى الهواء كأنها طائر بلا جناح.

طفل خامس : صبراً صبراً، تعالوا أوّلاً لتروا اختراعى أنا، إنه يكشف الكنوز المخبوءه فى القمر.

[يتزاحم الأطفال الزرق حول تيلتيل وميتيل ويناسدهما كل واحد منهم بالبدء برؤيه اختراعه أولاً، وتختلط الأصوات فيقول صوت «إنه أجمل اختراع» ويقول صوت «إنه أعجب اختراع» ويقول صوت «إنه متشكل من السكر» ويقول

صوت «إن سر اختراعى هو فى بساطته» ويقول صوت «لقد سرقوا منى فكرتى»

وفى هذا الضجيج يشدون تيلتيل وميتيل إلى ناحية المعامل الزرق حيث يدور كل طفل آلته المدهشة فتدور فى جو أزرق عجلات واسطوانات وتروس وأشياء عجيبة لم تجد لها اسماً إلى اليوم، كأنها فى عالم من صنع الخيال، آلات كثيرة غريبة مجهولة السر تنطلق وتحوم أعلى البهو أو ترحف على الأرض حول الأعمدة على حين ينشغل بعض الأطفال الزرق ببسط لفائف الخرائط والرسوم وتقلب صفحات الكتب وإزاحة الستار عن تماثيل زرق وتناول زهور ضخمة وفواكه هائلة الحجم وكأنها من ياقوت وزمرد].

الطفل الأزرق : [وهو رازح تحت حمل زهرة زرقاء ضخمة] انظروا إلى أزهارى.

هـو : ما هذه الأزهار؟ لا عهد لى بها.

الطفل الأزرق : إنها من زهور الربيع.

هـو : مستحيل، إنها كبيرة كعجلة القطار.

الطفل الأزرق : وما أزكى عطرها؟

هـو : [يشمها] هائل جدًّا.

الطفل الأزرق : ستكون الأزهار هكذا حين أنزل إلى الأرض.

هـو : متى إذن؟

الطفل الأزرق : بعد ثلاث وخمسين سنة، وأربعة شهور، وتسعة أيام.

[ويأتى اثنان من الأطفال الزرق يحملان عنقوداً عجيباً من العنب، حباته فى حجم الكمثرى وكأنه ثريا بللورية ضخمة]

أحد الطفلين : وما رأيك فى فاكهتى؟

هـو : أهو عنقود من الكمثرى؟

الطفل : كلا، إنه عنقود من العنب، وسيصبح كل عنب هكذا حين أبلغ الثلاثين من عمرى، فقد اكتشفت السرّ.

طفل آخر : [ينوء بحمل قفص به تفاح فى حجم البطيخ] انظر نى أنا. هل ترى تفاحى؟

هـو : إنه بطيخ لا تفاح.

الطفل : كلا، إنه تفاحى، وهو ليس أفضل ما عندى، كل تفاح سيكون هكذا حين أصبح بين الأحياء، فقد اهتديت إلى السرّ، وسأكون بستانىّ الملك صاحب الأفلاك التسعة.

هـو : الملك صاحب الأفلاك التسعة؟ أين هو؟

الملك : [يتقدم نحيلاء، عمره أربع سنوات فيما يبدو] لا يكاد يملك الوقوف على ساقيه الصغيرتين المعوّجتين، هو أنا.

هـو : ولكنك غير كبير السنّ.

الملك : [بلهجة ملؤها الجدّ والعتاب] غير أن كل الذى سأفعله سيكون كبيراً.

هـو : أي سيء ستفعل؟

الملك : سأؤسس الاتحاد العام للأفلاك السماويه.

هـو : [ملحًا في السؤال] حقًا؟

الملك : كلها ستصبح أعضاء في الاتحاد ما عدا المستري وأورانوس ونيبتيون فهي على بعد مهول يجل عن القياس.

هـو : سيء بديع.

طفل أزرق : هل ترى هذا الطفل هناك؟

هـو : أيّهم؟

الطفل : هناك، الطفل الصغير النائم عند قاعدة عمود.

هـو : وما خبره؟

الطفل : إنه سيهب الفرحَ للأرض.

هـو : وكيف؟

الطفل : بأفكار لم تتولد بعد.

هـو : وهذا الطفل السمين الذي يدس أصبعه في أنفه، ماذا سيفعل؟

الطفل : سيكسف النار التي تستمد منها الأرض دفئها إذا ما وهنت حرارة الشمس.

هـو : وهذان الطفلان اللذان لا يكفان عن تبادل العناق وقد شدّ كل منهما على يد الآخر. هل هما أخ وأخت؟

الطفل : كلا، إنهما طفلان نحن فى حيره من أمرهما، إنهما هما العاسقان.

هـو : وما معنى عاسق؟

الطفل : لست أدرى، هكذا سمسها الدهر، من قبل السحرية بهم، لا عمل لهما طول اليوم إلا تبادل النظرات والقبلات وتنهدات الوداع.

هـو : ولـمـاذا؟

الطفل : لأنهما لن ساح لهما فيما يبدو أن ننزلا إلى الأرض معاً.

هـو : وهذا الطفل أبو الخدين الموّردين الذى يمص إبهامه وقد بدت عليه إمارات الجدّ. من هو؟

الطفل : إنه - فيما يبدو - المكلف بمحو المظالم من على وجه الأرض.

هـو : حقّا؟

الطفل : يقال إنه عمل ساق.

هـو : وهذا الطفل الأسمر الذى يمسى وكأنه لا يرى سيئاً، هل هو مصاب بالعمى؟

الطفل : لم يصبه للآن ولكن سيصيبه فيما بعد، تأمله جيداً، إنه فيما يبدو المكلف بالانتصار على الموت.

هـو : ماذا سيعمل؟

الطفل : لست أدرى على وجه النقس، ولكن نىمال إن عمله سىكون هائلاً.

[يسىر تيلتيل إلى أطفال نائمىن عند قواعد الأعمده، وفوق الدرج وعلى المقاعد]

هـو : وكل هؤلاء النائمىن، وما أكىر النائمىن هنا، ألن نكون لهم عمل؟

الطفل : إن ذهىهم هو الدى نعمل الآن.

هـو : من أجل ماذا؟

الطفل : إنهم لا يدرون بعد، ولكن ينبغى لهم أن ىمنحوا الأرض شىئاً فممنوع علىنا هنا أن نخرج إلى الأرض وجعبتنا فارغه.

هـو : ومن الذى ىمنعكم؟

الطفل : إنه الدهر الذى ىقف بالباب وسنرى حىن ىفتحه أنه لا ىترفق بنا.

[طفل ىجرى من مؤخره البهو ىسى الحسد].

الطفل : أهلاً ىا تيلتيل.

هـو : عجباً، كىف عرفت اسمى.

الطفل : [وهو يلهث ويرشق تلتيل وميتيل ىقىلات حارة] أهلاً بكما، كىف حالكما، تعال ىا تيلتيل عانقنى، وأنت أيضاً يا ميتيل، ليس من العجيب ىا تيلتيل أن أعرف اسمك إذ أننى سأكون

أخاك، لم أسمع إلا الآن بمقدمك، كنت في نهاية البهو منشغلاً بجمع أفكارى وحزمها، قلْ لأبى إننى مستعد.

هو : كيف؟ أعازم أنت على المجئ عندنا؟

الطفل : طبعاً، السنة القادمة، فى عيد الفصح، أرجوك أن لا تعذبنى كثيراً أثناء طفولتى بينكم، ويسعدنى أن استطعت عناقكما مقدماً، وقل لأبى أن يصلح المهد، هل الأحوال عندكم طيبة؟

هـو : لا بأس بها، وأمى طيبة القلب جدًّا.

الطفل : والطعام؟

هـو : أنت وبختك، وقد تأكل فى بعض الأيام فطائر حلوة، أليس كذلك يا ميتيل.

هـى : فى الأعياد وأمنا هى التى تصنعها بيدها.

هـو : ما هذا الذى وضعته فى كيسك. ما الذى ستأتى به إلينا؟

الطفل : سآتى ومعى ثلاثة أمراض: الحصبة، والسعال الديكى والحمى القرمزية.

هـو : كفاية كفاية، ثم ماذا أنت فاعل بنفسك بعد ذلك؟

الطفل : بعد ذلك سأرحل.

هـو : لم يكن هناك إذن داع للمجىء.

الطفل : وهل لنا خيار؟

[يعلو فى هذه اللحظة ثم ينتشر صوت بللورى له ذبذبة متصلة قوية ينبعث فيما يبدو من الأعمدة والأبواب العميقة وقد غمرها نور أشد سطوعاً].

هـو : ما هذا؟

الطفل : هذا هو الدهر، إنه يوشك أن يفتح الأبواب.

[يشيع الهرج والمرج بين الأطفال، يترك أغلبهم آلاتهم وأعمالهم، النائم منهم يستيقظ، ويحول الجميع أبصارهم نحو الأبواب العميقة ثم يقتربون منها].

بسمة النور : [وقد عادت إلى تيلتيل] هيّا نحاول الاختفاء وراء الأعمدة، إذ ينبغى أن لا يكتشف الدهر وجودنا هنا.

هـو : من أين ينبعث هذا الصوت؟

الطفل : إنه الفجر وقد أوشك أن يطلع، إنها الساعة التى ينزل فيها إلى الأرض كل طفل سيولد اليوم.

هـو : وكيف ينزلون؟ هل هناك سلّم؟

الطفل : سترى، انظر إلى الدهر، إنه يشدّ المزلاج.

هـو : ومن هو هذا الدهر؟

الطفل : إنه رجل شيخ، ينادى الأطفال النازلين.

هـو : وهل هو شرير؟

الطفل : كلا، لكنه لا يسمع لنا قولاً فإنه رغم التوسّل

يصد كل راغب فى النزول إذا لم يكن قد أتى دوره.

هــو : وهل يسعدهم هذا النزول للأرض؟

الطفل : على كل حال لا يسعدنا البقاء هنا إذا حرمنا من النزول للأرض. غير أننا حين ننزل نشعر بمسحة من الحزن.. انظر انظر، هذا هو الدهر يفتح الأبواب.

[تنفتح الأبواب على مصاريعها ببطء، وتصل إلى الأسماع من بعيد ضجة الأرض كأنها أنغام موسيقية].

الدهر : [فى هيئة شيخ له لحية طويلة يحمل سجلاً وساعة رمليه، يظهر عند الباب ثم تلوح أطراف أشرعه بيض وذهبية لسفن راسية على أرصفة معقده من أنفاس الفجر النديه، يتكلم وهو على عتبة الباب] هل استعدّ كل من دقت ساعته؟

[يهرع إليه أطفال زرق وهم يشقون الحشد من كل جانب].

الأطفال : مستعدون، مستعدون، مستعدون.

الدهر : [فى صوت أجش غضوب، يقول للأطفال وهم يمرون أمامه استعداداً للنزول] واحداً واحداً، لقد تقدم منكم عدد أكبر مما ينبغى، الحال لا يتغيّر، ولكن هيهات أن يستغفلنى أحد، [يصد طفلاً] ليس هذا دورك، عد، فموعدك غداً، وأنت كذلك مثله، إن موعدك بعد عشر سنوات، ماذا؟ أراع آخر

يريد النزول، إنه التالت عشر ولا يلزمنا إلا اثنا عشر فقد انقضى عهد الرعاة، وهذا حشد من الأطباء، سبق أن نزل منهم أكثر مما يلزم أهل الأرض حتى جأروا بالسكوى. وأين المهندسون؟ هناك حاجة لرجل أمين بينهم، رجل واحد، يكون بمثابة المعجزة فى الأرض، فأين هو هذا الرجل الأمين؟ [يشير إلى طفل قائلاً] أنت؟ [تفيد هزة من رأس الطفل إنه يقول نعم] ولكنك نحيف، ولن تعيش طويلاً وأنتم [مشيراً إلى أطفال يتزاحمون على النزول] أنتم هناك، لا تسرعوا هكذا، [إلى طفل] وأنت ماذا ستحمل للأرض؟ لا شيء؟ يدك خلو؟ إذن لا نزول لك، عليك أن تعدّ لأهل الأرض شيئاً حتى ولو جريمه كبيرة إذا شئت، أو عدوى وباء، فالأمر لا يعنيني، وسيان عندى هذا وذاك، ولكن لابد أن تحمل لهم سيئاً إن أردت النزول، [يقع بصره على طفل يدفعه الآخرون للأمام وهو يغالبهم بجهد] وأنت ماذا بك؟ أنت تعلم حق العلم أن الساعة ساعتك فهناك طلب لبطل يحارب الظلم، فأنت من يجب عليه النزول.

الأطفال : إنه لا يريد النزول يا سيّدنا.

الدهر : كيف؟ لا يريد النزول؟ أين يحسب نفسه هذا المسخ؟ ألا يعلم أن لا شفاعة ولا شفيع هنا؟ [إلى الطفل] هيّا هيّا، فليس لدينا وقت.

الطفل المتأبي على النزول : لا. لا. لا أريد، أحبّ أن لا أولد، أفضل البقاء هنا.

الدهر : لا دخل هنا لحبّك أو لكرهك، إذا أزفت الساعة فليس منها مفرّ، هيا، إلى الأمام، أسرع...

طفل آخر يتقدم : دعوني أمرّ، سآخذ دوره، فقد سمعت أن أبوي عجوزان وأنهما ينتظرانني منذ أمد طويل.

الدهر : دعنا من هذا، فالساعة هي الساعة، والدهر هو الدهر، لو أصغيت لكم لما فرغت، هذا يريد وذاك لا يريد، هذا متعجل، وذاك متباطئ [يزيح عن عتبه الباب كل الأطفال المتزاحمين عليها] لا تقتربوا كثيراً يا أولاد، إلى الوراء كل فضوليّ، من لم يأت دوره لا شأن له بما وراء الباب، أنتم الآن تتلهفون على الخروج وحين يجيء دوركم إذا بكم تنكصون في خوف انظروا، ها هم أربعة أطفال يرتعشون كورقة في مهبّ الريح [إلى طفل لم يكد يهم بالخروج حتى عاد أدراجه] ماذا بك؟

الطفل : نسيت الصندوق الذى وضعت فيه الجربتين اللتين سأرتكبهما فى الأرض.

طفل آخر : ونسيت أنا الفمفم الذى وضعت فيه الفكرة الى ستنير للناس طريقهم.

الطفل الثالث : ونسيت أنا البذره الى ستطرح أجمل الكمثرى.

الدهر : أسرعوا وأتوا بها، لم يبق أمامنا إلا اثنان وسبعون ثانية، إن سفينة الفجر تهز شراعها دلالة على أنها ستعجلنا، إذا تأخرتم أقلعت دونكم ولم تولدوا، هيا هبا، انزلوا إلى السفينة

[يمسك بطفل يحاول المروق من بين ساقيه ليركب السفينة]

ماذا أفعل بك؟ لقد عيل صبرى، هذه ثالث مرة تحاول فيها أن تولد قبل دورك احذر أن تقع يدى عليك مرة أخرى وإلا سيكون انتظارك أبديًّا، ويكون مقامك فى جوار أخى الأزل، وأنت تعلم أنه مقام عصيب، دعونى الآن لعملى، هل نحن جميعًا مستعدون؟ هل كل واحد منا فى مكانه؟ [تستعرض نظرته الأطفال الذين تجمعوا على الرصيف أو جلسوا فى السفينة] ينقصنا واحد، يختبئ كما يشاء فإنى لابُدّ واجده رغم الزحام، فهيهات أن يستغفلنى أحد! فهيّا، أنت هناك،

أنت الذى يسمونه بالعاشق، قل وداعًا لعسيقتك وتعال [زوج العشاق وهما فى عناق طويل، لكل منهما وجه محنق يائس يتقدمان نحو الدهر ويركعان أمامه].

البنت : دعنى يا سيدى أرحل معه.

الولد : دعنى يا سيدى أمش معها.

الدهر : مستحيل، لم يبق أمامنا إلا ثلاثمائة وأربع وتسعون ثانية، وليس لأحد منكم خيار هنا.

البنت : سيدى، سيكون نزولى إلى الأرض بعد فوات فرصة اللقاء.

الولد : لن أكون هناك حين تنزل هى.

البنت : لن تتاح لى رؤيته بعد اليوم.

الولد : سيعيش كل منا فى الأرض وحيدًا.

الدهر : كل هذا لا يعنينى، قدّما التماسكما إلى الحياة أما أنا فأجمع وأفرق تنفيذًا للأوامر، (يمسك بالولد ويقول له: تعال.

الولد : لا. لا. خذها هى أيضًا.

البنت : [تتشبث بثياب الولد] دعه لى، دعه لى.

الدهر : رشادكما! إننى لا أقوده للموت! بل للحياة [يجر الولد قائلا له: تعال تعالَ].

البنت : [تمد يدها بيأس نحوه] اجعل لى علامة، علامة، قل لى كيف ألقاك؟

الولد : سأحبك إلى الأبد.

البنت : سأكون سقيمة من الحزن، وهذه هى علامى التى ستعرفنى بها.

[تسقط وتظل منطرحه الأرض]

الدهر : تجمّلى، فهذا أفضل لك، والآن قد انتهينا [ينظر إلى ساعته الرملية] لم يبق أمامنا إلّا ثلاث وستون ثانية.

[يشتد آخر هرج ومرج للأطفال الراحلين والباقين، تبادل لعناق الوداع فى عجلة «إلى اللقاء يا بيير» - «إلى اللقاء يا جان» «هل أخذت كل ما يلزمك؟» - «بشر بأفكارى» - «ألم تنس شيئًا» - «لا تنس أن تلقانى هناك» - «سأهتدى إليك» - «إياك أن تمعن فكرك» - «احذر أن تميل كثيرًا وأنت تطل من حافة السفينة على الفضاء» - «أبعث لنا بأخبارك» - «أخبرنا هل الحال طيب هناك» - ستجدنى فى لقائك - «سأولد على عرش الخ الخ»].

الدهر : [وهو يهز منجله ومفاتيحه] كفى كفى، رفعت السفينة أنجرها وأوشكت على الإقلاع.

[يمر شراع السفينة ثم يختفى، ونسمع تهليل راكبيها وهى متباعدة. «الأرض» الأرض، إنى أراها إنها جميله» إنها مضيئة، إنها كبيرة، ثم تنبعث وكأنما من قرار سحيق أغنية تأتى من بعيد كلها مرح وترقب]

هـو : [إلى بسمة النور] ما هذه الأغنية؟ إنها ليست

فيما يبدو من غناء الأطفال الراحلين، فالصوت مختلف.

بسمة النور : نعم، فهذه هى أغنيه الأمهات المتطلعات للقاء الأطفال.

[يعلو الدهر الأبواب العقيمية ثم يلتفت ليلقى آخر نظره على البهو فإذا به يفاجأ بتلتيل وميتيل وبسمه النور]

الدهر : [فى دهشه وغضب] ما هذا؟ ماذا تفعلون هنا؟ من أنتم؟ لماذا لونكم غير أزرق؟ من أين دخلتم؟

[يتقدم إليهم مهددًا بمنجله]

بسمة النور : [إلى تيلتيل] لا تردّ عليه، إن الطائر الأزرق معى، أخفيه تحت وشاحى، فلنهرب من هنا، أدر الماسه وسترى أنه سيعجز عن اقتفاء أثرنا.

[يتسللون بين الأعمدة إلى اليسار ويخرجون]

[ستار]

الفصل السادس

المنظر الحادى عشر الوداع

[المسرح عثل جدارًا يشمه باب صغير، الوقت. طلوع الفجر، يدخل تيلتيل وميتيل وبسمة النور والرغيف وقمع السكر والنار واللبن].

بسمه النور : ما هذا المكان فى تخمينك؟ سنعجز عن الإجابة ولا ريب؟

تيلتيل : طبعًا لا أستطيع أن أجيب وكيف أعرفه وأنا لم أره من قبل؟

بسمة النور : ألا يتبين لك هذا الجدار وهذا الباب الصغير؟

هو : هذا جدار أحمر وباب صغير أخضر

بسمة النور : ألا يذكرك هذا الباب بسىء؟

هو : يذكرنى بالباب الذى خرجنا منه هربًا من الدهر.

بسمه النور : ما أغرب حال الناس حين يعيشون فى الأحلام، يدهم أمامهم يرونها ولكنهم لا يعرفونها.

هو : من الذى يحلم؟ أهو أنا؟

بسمة النور : لعلّه أنا، من يدرى، ومع ذلك فهذا الجدار يسوّر بيتا أنت رأيته مرارًا منذ مولدك.

هـو : تقولين إننى رأيته مرارًا؟

بسمه النور : صح النوم، هذا هو البيت الذى غادرناه ذات مساء منذ عام فى مثل هذا اليوم، لا قبل ولا بعد.

هـو : عام كامل؟ ثم ماذا حدث؟

بسمة النور : لا تجحظ عيناك من الدهشة كأنهما بحيرتان من الياقوت، إنه هو البيت، بيت والديك.

هـو : [يقترب من الباب] نعم، أظنّه هو، نعم، يخيل إلىّ، هذا الباب الصغير، عرفت الآن مزلاجه، هل سأجد أهلى داخله؟ هل نحن الآن بالقرب من أمى؟ أود أن أدخل فورًا، وأعانقها توًّا.

بسمة النور : انتظر لحظة، إنهما غارقان فى سبات عميق. ينبغى أن لا نوقظهما فجأة، ثم أن الباب لا ينفتح إلا إذا دقت الساعة.

هـو : أية ساعة؟ وهل سطول انتظارى؟

بسمة النور : كلا مع الأسف، ما هى إلا دقائق قليلة.

هـو : ألا يسعدك الدخول معى؟ ماذا بك يا بسمه

النور، أنك شاحبه اللون حتى لبفال إنك مريضة.

بسمة النور : أنا بخير يا بنيّ، ولكنى أحس بمسحه من الحزن لأننى سأفرافكم.

هـو : تفارقيننا ؟

بسمه النور : لا مفر من ذلك. لم يعد لى ما أعمله هنا. لفد حال الحول، فإن الجنية ستعود وتطالبك بالطائر الأزرق.

هـو : ولكن الطائر الأزرق لس معى، فإن طائر عالم الذكريات قد اسودّ لونه، وطائر عالم الغد قد احمر لونه، وطيور فحمة الليل فد ماتت ولم أستطع افتناص طائر الغابه. هل الذنب ذنبى إذا بدّلت الطيور ألوانها أو ماتت أو طارت من يدى وهل ستغضب الجنبه، وماذا عساها تفول ؟

بسمه النور : فعلنا كل ما قدرنا عليه، لا مفر من الاعتفاد بأن الطائر الأزرق لا وجود له إذ أنه ببدّل لونه إذا دخل الففص.

هـو : وأين الففص ؟

الرغيف : ها هو ذا يا سيدى، لقد كلفت بحمله والحرص عليه خلال هذه الرحلة الطويلة المليئه بالأخطار، والآن وقد انتهت مهمتى فإنى أعبده

إليك سليمًا محكم الإغلاق كما تسلمته، [يتخذ لهجة الخطيب] والآن، باسم جميع الحاضرين أستأذنكم فى أن أضيف كلمتين.

النار : لم يأذن له أحد بالكلام.

المـاء : سكوت. سكوت.

الرغيف : هذه المقاطعات الخبيثة من عدوّ حقير أو من منافس حقود (يرفع صوته) لا تمنعنى من أداء واجبى حتى النهاية، لذلك، نيابة عن الجميع أقول..

النار : من أذنك أن تتكلم نيابة عنى، أليس لى لسان؟

الرغيف : [مستمرًا] نيابة عن الجميع أقول، تعبيرا عن عاطفة لا يمنعها اضمارها من أن تكون صادقة وعميقة، أننا نودع الآن الصبيين الصغيرين اللذين اختارهما القدر، بعد أن تمّت اليوم مهمتنا، فإذا قلنا لهما اليوم وداعًا فإنما نعبّر عن حزننا ومودتنا وتقديرنا المتبادل...

هـو : ماذا؟ تقول وداعًا؟ أتتركنا أنت أيضًا؟

الرغيف : لا مفر من ذلك مع الأسف، نعم، سأفارقكما ولكنه فراق فى الظاهر، فلا يجدّ إلا أن آذانكم لن تسمعنى أتكلم.

النار : لحسن الحظ!

الماء : سكوت. سكوت..

الرغيف : [لا يبالى بالمقاطعه وفى لهجه حاده] إننى أتجاهل هذه المقاطعة، أعود فأقول ان آذانكم لن تسمعنى أتكلم، لن ترونى فيما بعد نابضًا بالحياة، ستعمى عيونكم عن رؤية سريرة الأسياء، ولكنى سأكون هناك دائمًا، فى صندوق الخبز، وعلى الألواح وعلى المائدة، بجانب قدر الحساء، فإنى بين أطعمة الانسان - أن جاز لى القول - أشدها اخلاصًا له وأقدمها صحبة.

النار : مهلا. مهلا وأنا؟

بسمة النور : رشادكم، الوقت يمر، والساعة توشك أن تدق، حينئذ تدخلون عالم الصمت فاسرعوا بمعانقة الصغيرين.

النار : [تسرع إليهما] أنا أولا، أولا أنا [تعانقهما بحراره وعاطفة ملتهبه] وداعا ياتيلتيل، وداعًا يا ميتيل، وداعا يا عزيزى، اذكرانى إذا حدث ذات يوم أن احتجتما إلى من يشعل لكما نارًا..

هو : أىْ أىْ، إنها تحرقنى.

هـى : وتلهب أنفى.

بسمة النور : رشادك يا نار، بعض هذا الاندلاق! إنك لا تعانقين مدفئة..

المـاء : يا لها من غبيه.
الرغيف : وقليلة الأدب.
المـاء : [تقترب من الصبيين] عناقى لكما كله ود ولا أذى منه.

النار : احرسا فإنها ستبللكما.
المـاء : إننى عطوف رفيقة، سائغة للشاربين.
النار : وما قولك فى الغرقى؟
المـاء : أوصيكما بحب النافور، وأصغيا إلى خرير الجداول فإنى سأكون هناك.
النار : أهو كلام أو طوفان؟
المـاء : فإذا جلستما مساءً على ضفاف الجداول، والغابة هنا مليئة بها - فأصيخا لها السمع لتفهما ماذا تريد أن تقوله لكما، إن الدموع تخنقنى وتمنعنى عن الكلام.

النار : لا يطابق حالها قولها.
المـاء : واذكرانى إذا رأيتما الإبريق، وستجدانى أيضًا فى الكوز، والبئر، والمرشّ، والصنبور.
قمع السكر : [وهو يبالغ بطبعه فى الرقه والتحمل] وإذا بقى ركن ولو صغير فى ذاكرتكما فلا تنسيا أن صحبتى كانت أحيانًا حلوة، لكما، لا أستطيع أن أقول أكثر

من ذلك، فإن الدموع غير موصوفة لطبعى،
وإذا سقطت على قدمى أذابتهما.

الرغيف : يا منافق!

النار : [مقلدة صوت الباعة] سكر نبات، ملبس، كراميلّا.

هـو : وأين اختفى تيلو وتيليت. ماذا يفعلان؟

[تسمع صرخات عالية تنبعث من القهوة].

هـى : [فى انزعاج] هذه تيليت تئنه، هى فى سدة من الألم.

[وتدخل الهرة حريًا، انتفش شعرها وتلبد، تمزقت ثيابها، تصع منديًلا على حدها كأنما تتوجع من أصراسها، تتوالى لها تنهدات لا تخلو من غصب، والكلب يزنقها ويخبطها برأسه ويده وقدمه].

الكلب : [وهو يصرب الهرّة] خذى أيكفك هذا أم تريدين المزيد خذى.. خذى.

[بسمة النور تيلتيل وميتيل يسارعون إلى فصلهما: تيلو! أجننت؟ العجب لك أرقد ألا تنتهى؟ من يصدق؟ كفى كفى] [يفصلون بين الاثنين بهمة].

بسمه النور : ما هذا؟ ما الذى حدث؟

الهرة : [تتباكى وتمسح الدموع] إنه هو الذى اعتدى غلىّ يا سيدى بسمة النور، لقد أهاننى وشتمنى ووضع المسامير فى حسائى وشدّ ذيلى وانهال

عليّ ضربًا وأنا لم أفعل له شيئًا.

الكلب : [يقلّدها ساخرًا] لم أفعل له شيئًا! [يعيظها بوصع كفه على أنفه وتلعيب أصابعه] لا يهمنى الآن شيء، فقد ضربتك، وضربتك ضربًا موجعًا، وسأضربك.

هـى : [تأخذ الهرة فى حضنها] تيليت يا مسكينة. أرينى موضع الألم، إننى سأبكى أنا أيضًا..

بسمة النور : [تزجر الكلب] مما يزيد فى حماقتك أنك اخترت لحظة هى فى ذاتها مؤلمة لتعرض علينا هذا المشهد المشين، ألا تعلم أنها لحظة الوداع؟

الكلب : [وقد هدأ فجأة] أهو وداع للصبيين؟

بسمة النور : نعم، فالساعة التى تعرفها ستدق وسنرتد إلى عالم الصمت فلا نستطيع بعد ذلك أن نكلمهما.

الكلب : [تندّ عنه ولولة صادقة ملؤها اليأس ويرتمى على الصبيين ويرشقهما بقبلات حارة هوجاء] كلا، كلا، أبدًا أبدًا، سأظل أكلمهما، أنت تفهمنى الآن يا مولاى، أليس كذلك؟ نعم. نعم. سأقول لك كل شيء، وستقول لى كل شيء، لن تشكو بعد من سوء أدبى، وسأتعلم القراءة والكتابة ولعب الدومينو، وسأكون دائمًا نظيفًا، ولا أسرق شيئًا من المطبخ. أتريد أن أريك لعبة من ألعابى المدهشة؟ أتريد منى أن أعانق الهرّة؟

هـى : [للهره] وأنت يا تيلب، ليس عندك ما تقولينه لى ؟

الهره : [وهد أحرجت وهى تتكتم بياتها] سلفيان منى الحب ما دمتما جديرين به.

بسمة النور : الآن جاء دورى يا عزيزى لأقبلكما للمره الأخيرة.

[تيلتيل وميتيل يتشبثان بثياب بسمه النور، كلا كلا، يا بسمه النور، ابقى هنا معنا، أبونا لن يعترض وأمنا ستقول لها إنك كنت فى غاية الطيبه معنا

بسمة النور : لا أستطيع مع الأسف فإن هذا الباب موصد دوننا وينبغى لى أن أفارقكما.

هـو : وأين تذهبين وحدك ؟

بسمة النور : غير بعيد يا عزيزى، سأكون هناك.. فى عالم الصمت.

هـو : لا. لا. لا أريد فراقك، سنذهب معك، وسنقول هذا لأمى.

بسمة النور : لا تبكيا يا عزيزىّ، ليس لى مثل ما للماء من صوت، فليس عندى إلا ضيائى وهو شىء لا يسمعه الإنسان. ولكنى سأظل ساهرة على هذا الإنسان إلى الأبد، واذكرا دائمًا أننى هى من تكلمكما فى كل شعاع من القمر، وفى كل

بسمة من نجم، فى كل فجر يبزغ، فى كل مصباح يوقد، فى كل خاطرة خيّرة بريئة فى قلبيكما، [تدق الساعة خلف الجدار ثمانى دقات] انصتا، دقت الساعة، فوداعًا، الباب ينفتح، ادخلا، ادخلا، مع السلامة، مع السلامه.

[تدفع الصينين عبر الباب الصغير الذى ينفتح ثم يتعلق عليهما بمسح الرغيف دموعًا منفلتة، أما قمع السكر والماء فينخرطان فى البكاء ثم يتفرق الجميع سراعًا كأنهم يهربون ويخرجون إلى اليمين وإلى اليسار.

يسمع نباح الكلب من ناحية، ويظل المسرح خاليا برهة قصيره ثم ينشق من الوسط منظر الجدار والباب الصغير ليكشف عن المنظر الأخير]

المنظر الثانى عشر
اليقظـة

[هو عين المنظر الأول، ولكن كأنما مست يد سحرية كل الأشياء، الجو والجدران، فإذا بها تنم عن الصفاء والبشر والسعادة، ينفذ ضوء النهار من خصاص النافذة وينشر البهجة، تيلتيل وميتيل غارقان فى النوم فى مهديهما على اليمين فى آخر الحجرة، والكلب والهرة وباقى الأشياء تلزم الوضع الذى كانت عليه فى المنظر الأول قبل دخول الجنية]

[تدخل الأم تيل]

الأم : [وهى تزحزح الصبيين فى حنوّ وانشراح] هيّا هيّا، على أقدامكم يا كسالى، ألا تخجلان؟ لقد دقت الساعة الثامنة وعلت الشمس أشجار الغابة، يا له من نوم عميق [تنحنى وتقبلهما] على وجناتهما صبغة الورد، ويفوح منهما عطر الزهور، [تقبلهما مرة أخرى] ما أسعدنى يا أولادى! ولكن ينبغى أن لا أطيل نومكما حتى الظهر وإلا شببتما على الكسل، ثم إنى سمعت أن طول النوم مُضرّ بالصحة، ها هما يستيقظان. ماذا بك؟ [إلى تيلتيل] كأنما عشيت عيناك.

هـو : [وهو يمرك عيبيه] أمى. أمى، أنت الى أرى..

الأم : نعم بالطبع، أنا أمّك، لم يتبدّل وجهى هذه الليله. ماذا بك حتى تنظر إلىّ بمل هذه الدهسة؟ هل انقلب أنفى فأصبح تحته فوقه.

هـو : ما أسعدنى برؤيتك، كأننى لم أرك منذ زمن طويل. ينبغى أن أعانقك فورًا، مره بعد مره، أحقا أن هذا هو فراشى؟ أحقًا إننى فى البيت؟

الأم : ماذا دهاك، ألم تستيقظ بعد؟ هل أنت مريض؟ دعنى أرى. اخرج لسانك، هيًّا، قم والبس ثيابك.

هـو : عجبًا، أرى أننى لا ألبس إلا قميصى.

الأم : طبعًا، أنت لا تلبس غيره عند النوم، هيّا، البس سترتك وسروالك، إنها هناك فوق المقعد.

هـو : هل كنت ألبسها أثناء الرحله؟

الأم : عن أىّ رحلة تتحدث؟

هـو : رحلتى فى العام الماضى.

الأم : العام الماضى؟

هـو : نعم، فى عيد الميلاد، حينما خرجت من البيت.

الأم : خرجتَ من البيت؟ إنك لم تغادر هذه الحجرة، لقد وضعتك فى الفراش أمس وها أنذا أجدك

فيه هذا الصباح، هل رأيت فى الحلم كل ما تقوله لى؟

هـو : أنت لا تفهمين، رحلة العام الماضى حينما خرجت مع ميتيل والجنية وبسمه النور – على فكره، بسمة النور ست طيبة جدًّا – وكان معنا الرغيف وقمع السكر والماء والنار ولم ينقطع بينهما السجار. هل أغضبك رحيلى، هل أحزنك كثيرًا، وماذا قال أبى؟ لم أستطع أن أرفض الرحيل فتركت رسالة أسرح فيها...

الأم : ما هذا الهراء، لا ريب أنك مريض أو أنك لا تزال غارقًا فى النوم [ترسب عليه سحاب] هيّا، استيقظ، هل وعيت لنفسك؟

هـو : أؤكد لك يا أمى.. صدّقينى، لعلّ المستغرق فى النوم هو أنت.

الأم : كيف أكون مستغرقة فى النوم، إننى مستيقظة وأعمل منذ الساعة السادسه، فنظّفت البيت وأسعلت النار فى المدفأة.

هـو : اسألى ميتيل وسترين أننى لا أكذب، كم رأينا من مغامرات؟

الأم : ميتيل أيضًا؟ هذه حكاية طويلة.

هو : إنها كانت معى، ورأينا جدّى وجدّتى.

الأم : جدك وجدتك؟

هـو : فى عالم الذكريات، كان فى طريقنا، هما بين الأموات ولكن صحتهما حسنة، وقد صنعت لنا جدتى فطيرة تفاح بديعة ورأينا أخوتنا روبير وجان ومعه نحلته، ومادلين وبيريت وبولين ثم ريكيت.

هـى : ريكيت تحبو ولا تمشى.

هـو : أمّا بولين فدمّلها لا يزال على أنفها.

هـى : ورأيناك أنت أيضًا يا أمى مساء أمس.

الأم : لا عجب فى ذلك فقد أرقدتكما مساء أمس.

هـو : كلا كلا، إنما رأيناك فى فردوس الأرض، وكنت أبهى جمالاً ولكن شبهك لم يتغيّر.

الأم : فردوس الأرض؟ لست أعرفه!

هـو : [يتأملها ويعانقها] كنت أمس أبهى جمالاً ولكنى أحبك كما أنت الآن.

هـى : [تعانقها] وأنا أيضًا..

الأم : [وقد روى لهما قلبها ولكن القلق لا يزال يساورها] يا إلهى! ماذا دهاهما، سأفجع فيهما كما فجعت فى أخوتهما، [تنزعج فجأة وتنادى] بابا تيل، بابا تيل، تعال سريعًا، أولادنا مرضى.

الأب : ماذا جرى؟

هو وهى : [يجريان إليه ويعانقانه فى فرح] هذا هو بابا، هذا هو بابا، صباح الخير يا بابا، هل كانت السنة الماضيه سنة رخاء؟

الأب : لم الانزعاج؟ ما السبب؟ لا أراهما مريضين، بل هما فى أحسن صحه.

الأم : [وعيناها تدمعان] لا تخدعك الظواهر، فلعلّ حالهما هو حال أخوتهما وقت أن فجعنا فيهم. كانوا فى أتمّ صحه إلى آخر يوم. ثم توفاهم الله إلى رحمته، لا أدرى ماذا جرى لهما، لقد أرقدتهما أمس فى الفراش وهما فى أحسن حال، ما أيقظتهما هذا الصباح إذا هما فى أسوأ حال، أصابهما الهذيان ولا كلام لهما إلا عن رحلة موهومة، رأيا خلالها بسمة النور وجدهما وجدتهما، يقولان إنهما بين الأموات ولكن صحتهما حسنة.

هو : جدى لا تزال له ساقه الخشبية.

هى : وجدتى لا تزال تشكو من الروماتزم.

الأم : هل سمعت. اجر لتنادى الطبيب.

الأب : لا. لا. وهل هما يحتضران حتى أناديه؟ صبرًا لننتظر ماذا سيحدث لهما. (يسمع دق على الباب) ادخل..

الجارة : صباح الخير، وكل عيد وأنتم جميعًا فى صحه وسلامه.

هـو : هذه هى السب غرباويه.

الجارة : جئت لآخذ قليلا من الحطب، لأطبخ عليه حساء العيد، فالجوّ بارد هذا الصباح، صباح الخير يا أطفال. كيف الحال؟

هـو : يا ست غرباوية، لم أجد لك الطائر الأزرق.

الجارة : ماذا يقول؟

الأم : مصيبة يا ست غريبة، انهما يهذيان، هذا هو حالهما منذ أن استيقظا، لا شك أنهما أكلا سيئاً أضرّ بهما.

الجارة : طيّب يا تيلتيل، ألا تعرف الست غُريبه، جارتك الست غُريبة؟

هـو : نعم أعرفك، أنت الست غرباويه. أغاضبه أنت منى؟

الجارة : غرباويه؟

هـو : غرباوية.

الجارة : تريد أن تقول غُريبه؟

هـو : غرباويه، غريبه، كما تسائين، إن كنتم فى شك فاسألوا متيل.

الأم : الداهية السوداء أن ميتيل تهذى أيضًا.

الأب : كلام فارغ، سينقطع الهذيان وسأناول كلا منهما صفعة على خدّه لتنبيهه.

الجارة : لا تفعل، لا لزوم للصفع، فإنى خبيرة بهذه الحالة هى أضغاث أحلام تلم بكل من يرقد فى ضوء القمر، وابنتى المريضة حالها هكذا فى أغلب الأوقات.

الأم : على فكره، كيف حالها الآن؟

الجاره : نصف نصف، إنها لا تقوى على مغادرة الفراش ويقول الطبيب إنها مسألة أعصاب، ومع ذلك فإنى أعلم أين دواؤها وقد طلبته منى فى هذا الصباح ليكون هديتها يوم العيد. إنها على يقين من أنه دواؤها الشافى. هكذا تحدثها نفسها.

الأم : نعم، أعلم يقينها هذا، تؤمن أن لا دواء يشفيها إلّا عصفور تيلتيل، فهى لا تنفك تطلبه. إذن يا تيلتيل، ألم تطب نفسك بعد بإهدائه إلى هذه الفتاة المسكينة؟

هـو : هو لى فكيف أهديه يا أمى؟

الأم : هو لى، هو لى، ولكنك لا تعنى به. بل لا تلقى عليه نظرة فهو من شده الحسرة بوسك أن يموت منذ زمن طويل.

هـو : نبّهتنى يا أمى، الآن تذكرت عصفورى. أين

هو؟ ها هو القفص. ميتيل! أترين القفص؟
هو الذى كان فى يد الرغيف. نعم، هو بعينه،
ولكن ليس به إلا عصفورى، فأين الآحر،
الطائر الأزرق، هل أكله عصفورى؟، انظرى
انظرى! يا للعجب، فى القفص طائر أزرق،
وما هو إلا عصفورى، هو بعينه، وإن كانت
زرقته قد زادت، إنه الطائر الأزرق الذى طالما
سعينا وراءه فلم ننجح فى اقتناصه، على حين
أنه كان موجودًا فى بيتنا طول الوقت، هذا
شىء مدهش، هذا شىء بديع، ميتيل، أترين
العصفور قد عرفنا الآن أنه الطائر الأزرق.
ماذا كانت تقول بسمه النور لو رأته؟ سأنزل
القفص. [يقف على المقعد ويُنزل القفص ويعطيه للجارة] .
ها هو العصفور يا ست غريّبة، إن كان فى
زرقته الآن نقص فإنه سيستكملها فيما بعد،
وسترين، ولكن هيّا، احمليه سريعًا إلى بنتك.

الجارة : أجادٌّ أنت؟ حقا ما تقول؟ تعطيه لى هبه منك؟
من فورك، وبلا عوض؟ رب، كم ستسعد
هديتك ابنتى.

هـو : اذهبى بسرعة، فبعض الطيور تبدّل أحيانًا
لونها.

الجارة : سأعود لأخبرك بما قالته ابنى..

[يخرج]

هــو : [يطيل التأمل فيما حوله] بابا، ماما، ماذا فعلتما بالبيت؟ إنه عين البيت ولكنه أكثر جمالاً.

الأب : كيف زاد جماله؟

هــو : نعم، كأنما زادت عليه يد بطلاء جديد، وبالترميم والإصلاح، فكل شيء لامع ونظيف، لم تكن هذه حاله فى السنة الماضية.

الأب : السنة الماضيه؟

هــو : [يذهب إلى النافذه] وهذه الغابه التى أراها، ما أكبرها، ما أجملها، إنها لتبدو لعينى كأنها غابة جديدة أراها لأول مرة، ما أسعدنى هنا، [يذهب ليفتح صندوق الخبز] أين الرغيف؟ إنه راقد باطمئنان، ثم أين تيلو؟ مرحبا يا تيلو. والعراك فى الغابة. هل تذكره؟

هــى : وتيليت عرفتنى ولكنها لا تكلمنى.

هــو : سأكلّم الآن الرغيف، [يلمس جبهته] عجباً، لم تعد الماسة معى، فمن الذى أخذ قبعتى الصغيرة الخضراء؟ لا بأس فإنى لست فى حاجة إليها. [ينظر إلى المدفئه] آه! هذه هى النار. ما ألذّ جوارها، إنها تئز وهى تضحك لتغيظ الماء [يجرى

[إلى الصسور] يا ماء! أهلا بك، ماذا تقول؟ إنها ماضية فى الكلام ولكنى لم أعد أفهمها بوضوح.

هـى : وأين قمع السكر فإنى لا أراه.

هـو : ما أسعدنى هنا. ما أسعدنى.

هـى : وأنا أيضا، وأنا أيضا.

الأم : ماذا بهما ليدورا فى البيت هكذا..

هـو : أما أنا فقد أحببت بسمة النور بالأخصّ، أين المصباح؟ هل أستطيع أن أضيئه؟ [وهو متماد فى التلفّت حوله] كل ما أرى جميل، ما أسعدنى!

[يُسمع دق على الباب]

الأب : ادخل.

[تدخل الجارة الست عرينة ممسكة بيد ست صغيرة شقراء بهية الجمال تحص عصفور تيلتيل الأزرق]

الجاره : أرأيتم المعجزة؟

الأم : من يصدق؟ إنها تمسى!

الجارة : تمشى، وتجرى، بل ترقص.. حين رأت العصفور نهضت من فراشها إلى النافذه قفزة واحدة لتتبين فى النور هل العصفور الذى جئتها به هو حقًا عصفور تيلتيل، وإذا بها تنطلق فجأة إلى الطريق، كأنها ملاك يطير، لم أستطع اللحاق بها إلا بعد جهد شديد.

هــو : [يقترب منها وينظر إليها بدهشة] ما أشبهها ببسمة النور!

هــى : ولكنها أضأل منها جسماً.

هــو : حقًّا، غير أنها ستنمو..

الجارة : ماذا يقولان؟ ألم يفلعا عن الهذيان؟

الأم : هما الآن أحسن حالاً وسمرّ الأزمة، وسيسفبان من الهذيان حين يتناولان الفطور.

الجارة : [تدفع ابنتها لتعانق تيلتيل] اذهبى إليه يا بنى واسكريه.

[تيلتيل يغلبه الخجل ويتراجع خطوة].

الأم : ماذا بك يا تيلتيل؟ أتستحى من هذه البنت الصغيرة؟ قبّلها قبلة كبيرة. [يقبّلها قبلة صغيرة] قبّلها أفضل من هذا. أين جرأتك المعهودة؟ قبلة أخرى. ولكن ماذا بك؟ كأنك ستبكى..

[تيلتيل بعد أن يقبل الفتاة بخجل يظل واقفاً أمامها برهة وحيرة، يتبادلان النظرات فى صمت ثم يربت تيلتيل على رأس العصفور].

هــو : هل قنعت بزرقته؟

البنت : نعم، أنا راضية به.

هــو : رأيت طيوراً أشد منه زرقة، أما الطائر الذى

كملت زرقه فلم نستطع افتناصه رغم ما بذلناه من جهد.

البنت : لا ضير، فعصفورى جميل.

هو : وهل أكل؟

البنت : لم يأكل بعد، وما أكله؟

هو : كل سيء، حبّ الفمح والأذره والسعبر وفتات الخبز.

البنت : وكيف يأكل؟ فل لى.

هـو : بمنفاره، تعالى أريك كيف يأكل.

[بمد يده ليتناول العصفور الأررق من يد البنت فتمانع مدفوعة بغريزه حب التملك ؛وينتهر العصفور الأررق لحظة ارتباكها فيفلت ويطير]

البنت : [تندّ منها صرحه يائسة] ماما، لفد طار.

[ثم تنخرط فى البكاء].

هـو : لا تنزعجى، لا تبكى، فإنى سأقتنصه لك من جديد.

[يخطو نحو مقدمه المسرح، ويخاطب الحمهور - إدا عثر عليه واحد منكم فليتكرم بإعادته إلينا فكلانا أنا والست الصغيرة فى حاجه إليه لننعم بالسعادة معًا حين نكبر].

[ختـــام]

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٥٥٥٠
الترقيم الدولي	٩٧٧-٠٢-٢١٥٢-X	ISBN

١ / ٨٤ / ٣١٣

طبع مطابع دار المعارف (ج. م. ع.)